مكتبة ياسمين

نزار عيسى

رواية

جريمة في بيت العناكب

عصير الكتب

telegram @yasmeenbook

جريمة في بيت العناكب

يُكلَّف ضابط المباحث الموقوف عن العمل "عصام عبد الستار" بمهمة التحقق من رسائل تهديد غامضة يتلقاها رجل الأعمال "رسمي عناكب"، والتي يُصر بأن مَن أرسلها هو ابنه الذي تُوفي قبل سنة! على الرغم من شعور مُحقِّقنا بتفاهة المهمة، فإنه كان مضطرًّا إلى قبولها لأن التكليف جاء بطلب شخصي من مدير التحقيقات الجنائية، بالطبع لم يُصدق أن شبحًا يُرسل رسائل حتى وإن كان الخط الموجود في الرسائل مطابقًا بالفعل لخط الابن المتوفَّى.

وفي الوقت الذي اعتقد فيه "عصام عبد الستار" بأنه تمكَّن من حلِّ لغز الرسائل، يُفاجأ بوقوع جريمة قتل على درجة عالية من الإتقان حتى إنه بدأ الشك فيما إذا كان الجاني شبحًا حقًّا، وإن الابن المتوفَّى قد قرر أن يُنفذ تهديداته، ما بدت مهمة سهلة للوهلة الأولى، تحولت إلى واحدة من أكثر القضايا تعقيدًا التي مرت عليه في حياته. وبات عليه حل اللغز والإيقاع بالقاتل قبل أن يضرب مجددًا بشرًا كان أو شبحًا.

مكتبة ياسمين

تصميم الغلاف: محمود هشام

9789779922959

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

جريمة
في بيت
العناكب

عصير الكتب

عصير الكتب

للنشر و التوزيع

مكتبة ياسمين

telegram @
yasmeenbook

● طبعة يوليو/ 2023م

● رقم الإيداع: 14389/2023م

● الترقيم الدولي: 9-295-992-977-978

● العنوان: جريمة في بيت العناكب

● تدقيق لغوي: نهال جمال

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

نزار عيسى

رواية

جريمة في بيت العناكب

مكتبة ياسمين

telegram @
yasmeenbook

عصير الكتب

إهداء

إلى كلِّ قارئ لديه شغف بالأعمال البوليسية
وسارَ وراء شغفه حتى وجد نفسه عالقًا
في شباك هذه الرواية.

«يحفرون عيوبك على النحاس،
ويكتبون فضائلك على الماء!».

- مثل إيطالي

اليوم الأول

حياتي الفارغة

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

١

كان يومًا عصيبًا على حضرة المحقق، الفذ واللامع وصاحب السجل المميَّز، فقد وجد نفسه مضطرًّا إلى أن يدق المسمار الأخير في نعش طلاقه الذي تم اليوم بصفة رسمية، وخسر شطرًا غير هين من أملاكه لمجرد أن قاضي الأحوال الشخصية اعتقد أن طليقته أجمل من ألا تحظى بعدد من الأشياء الجميلة، ولأن والدها دفع له من تحت الطاولة قطعًا، وانتهى الأمر باعتبار حضرة المحقق، الفذ واللامع وصاحب السجل المميَّز، شخصًا عدوانيًّا وسريع الانفعال ومصابًا بالفصام ويتعذر العيش معه، علاوة على أنه غير قادر على القيام بمهامه الزوجية، مع أن بإمكاني أن أشهد شخصيًّا بأن حضرة المحقق، الفذ واللامع وصاحب السجل المميَّز، أحد أهدأ الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي وأبعدهم عن الانفعال والعدوانية، وهو شخص عاقل جدًّا، لكن فيما يتعلق بالواجبات الزوجية ليس بإمكاني أن أؤكد أو أنفي أي شيء.

غير أن يومه لم ينتهِ عند هذا الحد، لأن ما سبق وذكرتُه كان الشق المتعلِّق بما سبق وقت الظهيرة، أما ما يلي ذلك فهو شأن مختلف تمامًا، لكنه يدخل ضمن خانة الظروف السيئة، لأن حضرة المحقق تعرض لابتزاز علني من قِبل مدير التحقيقات الجنائية في مديرية الأمن شخصيًّا، اللواء هشام عزت، الشخص نفسه الذي أوصى بتعيين حضرة المحقق في منصبه كرئيس لمباحث قسم شرطة غرب القاهرة في زمن ولَّى، والشخص نفسه الذي أخبر

حضرة المحقق بأنه يعتبره ابنه، والشخص نفسه الذي كان على رأس لجنة تحقيق داخلية أوصت بعزله من الخدمة في حال صدر حكم يدينه في قضية إطلاق النار على سفاح فتيات الليل، التي عجزت المديرية عن سبر أغوارها.

آه، صحيح، بالمناسبة، أنا هو حضرة المحقق، الفذ واللامع وصاحب السجل المميَّز، لكن وجدت أن من الأسهل أن أنقل لنفسي الأخبار السيئة باستخدام ضمير الغائب، وقعها أقل ضررًا بهذه الطريقة، كأنها تعني شخصًا آخر غيري، من الأسهل قبول الأخبار السيئة حين تُنقَل عن أشخاص آخرين.

والآن يطلب مني اللواء هشام أن أقوم بمهمة مثل هذه.

- مستوى متدنٍّ جدًّا.

والآن تنبهت إلى أنني نطقت عبارتي الأخيرة بصوت عالٍ تعدى مونولوج أفكاري الداخلية، كانت هذه هي طريقتي المعتادة في التعبير عن العجز والإحباط، عادةٌ لديَّ ولا أملك حلًّا لها حين يستغرق مني التفكير ما يفوق طاقتي على البقاء هادئًا، السيئ في الأمر هو أن حضرة اللواء هشام عزت مدير التحقيقات الجنائية في مديرية الأمن شخصيًّا، كان موجودًا معي في الغرفة نفسها، الأسوأ أنه سمع عبارتي الأخيرة، لست متأكدًا تمامًا لكن هناك الكثير من الدلائل على ذلك، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، عينه التي رفَّت بينما يتظاهر بانهماكه التام في قراءة ورقة محشورة في ملف أزرق مكتوب عليه سري وعاجل، وعينه، مرة أخرى، التي تركت الورقة وتوجهت إليَّ محتدَّة، وفمه الذي ترك بابه مفتوحًا دون أن يكون مكلَّفًا بالأكل أو النطق، ووجهه الذي تحول من جبهة وفك وخدين ومنافعها إلى علامة استفهام كبيرة، وعلامات الاستفهام الأخرى التي بدأت تخرج من أذنيه وفتحتَي أنفه لتنتشر في أرجاء الغرفة.

بينما كنت أضيِّع الوقت الثمين في البحث عن المزيد من الدلائل بدلًا من أن أفكر في رد مناسب، فإنه تكلم ليقطع الشك الذي اقترب من أن يتحول إلى يقين بيقين كامل مكتمل مثل بدر في تمامه.

- ما هو المتدني جدًّا؟

بإمكاني أن أفكر في عشرات الأمور التي يمكن أن أصفها بأنها متدنية جدًّا، منحطَّة، قذرة، لكن أن تفكر في الأمر شيء، وأن تصرِّح به شيء آخر مختلف، ليس أمام حضرة اللواء الذي يقول لي دومًا إنه يعتبرني ابنه، وذلك لمجرد أن والدي الذي كان قائد كتيبة عسكرية وقضى نحبه في تفجير نُسب لجماعة إرهابية خلَّدت اسمه في لائحة طويلة من شهداء لم يعد يتذكرهم أحد، أبي الذي قضى نحبه في وقت كنتُ فيه صغيرًا في السن لدرجة أني لا أملك القدرة على التفريق بين حبة بطاطا ورأس نبيه مالك العمارة التي استأجر فيها والدي قبل أكثر من ثلاثين سنة، عقد إيجار ينتهي بتمليك لم يحصل بعد.

- عذرًا؟

أتظاهر بأني لم أسمع ما قاله في المرة الأولى، لكي أكسب ثانيتين إضافيتين أفكر خلالهما في ردٍّ مناسب، لكن أفكاري ذهبت في اتجاه آخر مثل سائق ضلَّ طريقه، فكرت في أنه، إذا كان اللواء هو من ربَّاني مثلما يدَّعي، إذ إنني لا أتذكر الكثير عن ذلك، كيف وجد وقتًا كافيًا ليفعل ذلك بينما لديه ستة أولاد آخرين؟ ولماذا لم يحضر أيٌّ منهم حفل زفافي؟

- ما هو المتدني جدًّا يا عصام؟

عقد ذراعيه على صدره، وبدأت خلايا دماغه في البحث عن أتفه سبب ليثور غاضبًا، لكني رسمت على وجهي ابتسامة، بريئة ولطيفة، مثل ابن يبتسم في وجه والده الذي يفخر به.

- الكلاسيكو الذي أُقيم في الأمس.

- كلاسيكو؟

- أقسم بالله مستوى لعب باهت، خسارة فيهم مئات الملايين التي يشفطونها...

قاطعني محتدًّا: «اسكت».

سكتُّ.

قال بعد برهة، وهو يلعب بشارب رفيع كان ثخينًا فيما مضى قبل أن يبدأ بجز شعيراته بطريقة دورية بناءً على نصيحة صغرى حفيداته: «هل عدتَ لتتكلم مع نفسك مجددًا؟».

شعرت بالحرج كأنه ضبطني متلبسًا بارتداء ملاءة، قلت: «هذه ليست مشكلة نفسية فعلًا يا سيدي، على العكس، الدراسات أثبتت أنها عادة صحية تفيد في حل المشكلات وتقوية الذاكرة...».

قاطعني بحزم مضبوط على مقاسي: «مجنون يا عصام، الشخص الذي يشرد وينشغل في الكلام مع نفسه وهو في حضرة شخص آخر إنسان مجنون».

سمعت صوت ابتلاع ريقي وكدت أن أختنق بلعابي ثم عطست لأداري ارتباكي.

- قل لي، هل هناك صوت يتكلم في رأسك؟ وهل طلب منك أن تطلق النار على ابن وزير الداخلية السابق؟

شكرت الظروف التي تسببت في تغيير مجرى الحديث. قلت وأنا أتظاهر بالانفعال: «ابن وزير الداخلية الذي تدافع عنه يا سيدي قاتل متسلسل».

- أنا لا أدافع عنه، وهذا ليس موضوعنا.

لكني لم أكن لأترك هذه الفرصة تفلت من يدي، رفعت من وتيرة الانفعال قليلًا.

- ذلك الشاب الذي تدافع عنه اغتصب وقتل سبع عاهرات بدم بارد، أنت تدافع عن سفاح سادي مخبول متعطش للدماء لا يعرف الرحمة...

- عصام، اخرس.

خرستُ.

أطلق اللواء زفرة، وبدا أن ظنه خاب قليلًا في ابنه الذي لم يخرج من بطن زوجته، للِّواء شارب كلاسيكي مميز ووجه طويل ومربع بقمة صلعاء إلا من بعض الشعيرات البيضاء التي اصطفت على كلا الجانبين، وكتفاه عريضتان وقد استرخيتا تحت بذلة سوداء تتوسطها ربطة عنق ذات لون أحمر قانٍ، كان

رجلًا يملأ ملابسه ومركزه معًا، أما الآن فإن علامات الاستفهام التي كانت تخرج من أذنيه ومن فتحتَي أنفه كانت منتفخة وحمراء اللون ولها أعين ترمقني بنظرات غاضبة.

قال بعد أن هدأت أعصابه: «لنعد إلى موضوعنا».

- هذه هي المشكلة يا سيدي، أنا لدي الكثير لأنشغل به، القضايا...

قاطعني بصرامة تتعدى حجمي: «أيُّ قضايا يا حضرة الضابط وأنت موقوف عن العمل منذ شهور؟!».

اللعنة على هذا الأمر، لعنة وألف ألف حسرة، ترقيتي كانت إيقافًا عن العمل! بينما تابع اللواء كلامه متخذًا من الصراحة شعارًا: «وحتى لو عدتَ إلى عملك، في أحسن الأحوال ستقضي ما تبقى من حياتك المهنية في أرشفة ملفات القضايا التي يحلُّها زملاؤك، أو ستُنقل إلى أقاصي الصحراء لتزعج سائقي المركبات على الطريق السريع قبل أن تقتل نفسك من الملل بسبب قلة حركة المرور».

سألت وأنا أزدرد لعابي تخوفًا: «وما هي أسوأ الأحوال يا سيدي؟».

- عذرًا؟

- قلتَ إني في أحسن الأحوال سأعمل في الأرشيف أو في إحدى إدارات المرور النائية، أتساءل عما سيحدث لي في أسوأ الأحوال.

هتف بانفعال يمكن أن يضر بصحته لو أنه كان مدخنًا: «ستُطرد من العمل يا حضرة المحقق، وستكون محظوظًا في حال عثرتَ على وظيفة رجل أمن على باب بنك أو حارس شخصي لدى مطرب مهرجانات».

تنفست الصعداء، على الأقل لن أحاكَم زورًا وبهتانًا وأُزج في السجن الذي ساهمت في ملء زنازينه، لكن الطرد من سلك الشرطة يمكن أن يكون محبِطًا ومدمِّرًا، لدرجة أن البعض على استعداد لأن يحضِر سلكًا حقيقيًّا ويشنق نفسه في حال حدث واستُغني عنه، ولأني لم أكن من ذوي النزعات الانتحارية ولا توجد أصوات تتكلم في عقلي مثلما يعتقد سيادة اللواء ليبرر قيامي بما يفترض أنه واجبي أصلًا، فإني لم أكن أرى أي داعٍ للتخلي عن الحياة في ظرف ثوانٍ معدودات بعد أن أتعبتْ والدتي نفسها تسعة أشهر لكي تلفظني

إلى العالم، وكعادتي في مثل هذه المواقف فقد قررت أن أنظر إلى الجانب الممتلئ من الكوب، المشكلة هي أن الطاولة أمامي كانت فارغة لأن سيادته لم يدعُني لكوب ماء حتى، لذا تخيلت كوبًا ممتلئًا في ذهني وقلت مقللًا من أهمية مصيري: «ما دام لدي سقف فوق رأسي وشراب الشعير بنكهة الأناناس في ثلاجتي، سأكون بخير».

فاجأني بضحكة أفرط فيها حد البذخ، قبل أن يقذف الكلام في وجهي بلا وازع، كأني لم أعد الآن في مكانة ابنه الذي ربَّاه ويعرفه تمام المعرفة: «أنت أكبر مغفل عرفته في حياتي كلها، هل تعتقد أن الحياة عبارة عن أكل وشرب فقط؟ الحياة تُقاس بالقيمة، من أنت وماذا تساوي مقارنة بالآخرين، وأنت دون منصبك في الشرطة، قيمتك لا تتعدى صفرًا في أقصى الشمال، لن يحترمك أحد مجددًا، ستعيش مثل أي مواطن بدرجة عادية».

رأي يُحترم، مع ذلك كنت مستعدًّا لأن أرمي بكل كلامه من النافذة التي كانت مفتوحة بالقرب مني، التي زادت من درجة حرارة الغرفة بدلًا من أن تخفِّف منها، آه، كنا نخوض غمار شهر يوليو وما أدراك كيف يكون يوليو حين يقرر أن يرتدي عباءة أغسطس.

قلت بهدوء أحسد نفسي عليه: «لا تقلق يا سيدي، أنا لدي خططي الخاصة بالمستقبل».

استبق الأحداث متهكمًا: «تريد أن تفتح مكتب التحريات الخاص بك».

تجاهلتُ السخرية في قسماته وقلت مبتهجًا: «لقد خططتُ للأمر بعناية، حتى إني عملت دراسة جدوى اقتصادية، مكتبي سيكون الأول من نوعه في البلاد».

- ومن هو الأخرق الذي سيمنحك تصريحًا لذلك؟

كنت على وشك أن أقول له إنه هو الأخرق الذي سيفعل، لكني لم أرغب في أن يلقيني من النافذة مثلما فعلتُ مع كلامه المعبِّر قبل قليل.

- سأجد حلًّا يا سيدي.

فتل شاربه مجددًا وقال: «لا بأس، يمكنك أن تبدأ بالمهمة التي كلفتُك بها».

قلت متظاهرًا بالاستعباط: «أي مهمة؟».

لكنه كان أكثر تركيزًا بكثير مما تصورت، قال وهو يرمقني بنظرة ثعلب خبير: «تلك التي وصفتَها قبل قليل بأنها مستوى متدنٍّ جدًّا».

عبارته الأخيرة قطعت عليَّ كل سبل المناورة، لذا تكلمت بصراحة: «يا سيدي، صحيح أني موقوف عن العمل لأجل غير مسمى، لكني ما زلت برتبة رئيس مباحث، وليس من اللائق أن أذهب إلى بيوت الناس لأؤدي لهم خدمات يمكن لعسكري أن يقوم بها».

حينها رسم على وجهه إحدى تلك الابتسامات التي تجعلك تفكر في أن هناك حكمة مهمة ستتبعها، لكن حكمته تلخصت في العبارة التالية.

- ألم أقل لك إنك أحمق؟

أطلقت زفيرًا ينم عن الانزعاج تزامنًا مع هرش سبابتي لمؤخرة رأسي، بينما تابع كلامه شابكًا كلتا يديه أمامه: «أرأيت كيف أنك في داخلك تفكر في عكس ما تدَّعي؟ أنت الآن تدرك لا شعوريًّا أنك دون منصبك لا تساوي شيئًا، وإلا لما شعرت بالإهانة مما طلبتُه منك».

لم أملك أي حجة أدفع بها دليله الدامغ.

- أنت محق يا سيدي.

قال بعد برهة: «اسمع، أنت الآن في موقف لا تُحسد عليه وبحاجة إلى كل مساعدة ممكنة، ورسمي عناكب رجل له وزنه في البلد، قرارات مصيرية يمكن أن تتغير بإشارة من إصبعه، أنا يا بني أمنحك فرصة ذهبية لم تكن تحلم بها، هذا الرجل يمكنه أن يعيد إليك منصبك إذا كان راضيًا عنك».

أطلقت تنهيدة مستسلم لمصيره: «حسنًا يا سيدي، لقد أقنعتني».

قال بارتياح: «جيد، سأتصل به الآن وأخبره أنك ستكون تحت تصرفه غدًا صباحًا. هل لديك عنوان منزله؟».

- يمكنني أن أعثر عليه بسهولة.

- سبق أن أخبرته بأنك أحد أكفأ الضباط لدي وأكثرهم اجتهادًا، لذا أرجو ألا تخيِّب ظني.

- هل يتوقع حضوري أنا شخصيًّا؟
- بشحمك ولحمك.
- وهل يعرف أني موقوف عن العمل لأني قتلت سفاح العاهرات؟ أعني... لأني قتلت ابن وزير الداخلية بالخطأ؟
- لقد أخبرته بأنك في إجازة، لكنه يعرف أنك قتلت ابن وزير الداخلية، بل إن هذه كانت أحد الأسباب التي دفعته لأن يصر عليك بالاسم.

فكرت أن سُمعتي قد سبقتني إذًا وانتشرت في الأمصار والأقطار وصار اسمي متداولًا حتى بين كبارات القوم، لكن تشككي دفعني لإخفاء شعوري بالزهو.

- ما هي طبيعة الخدمة التي يحتاج إليها رسمي بيك؟
- شيء يتعلق برسالة تهديد وأمور عائلية أخرى، لم أناقش معه التفاصيل، المهم هو أن تكون متكتمًا.

ثم تناول هاتفه الجوال وبدأ يعبث بمحتوياته دون أن يعاود النظر إليَّ، كانت هذه إشارة لي بالمغادرة، فاستأذنت بالخروج، ثم سمعته يقول من وراء ظهري: «لا تخيِّب ظني بك».

telegram @
yasmeenbook

2

قدت سيارتي متمهلًا على شارع الكورنيش، في طريقي إلى شقتي التي كانت تشكِّل وصمة الأمل الوحيدة فوق جدار حياتي اليائسة، ثلاث غرف بشرفة تطل على النيل غير عابئة بانحسار منسوب مياهه في آخر السنوات، تلك الشقة التي كانت يتيمة مثلي هي كل ما تبقى لي بعد أن حصلت طليقتي على كل ما خلاها. حكايتي مع جيهان، تجربة عملية للمثل القائل لا يفل الحديد إلا الحديد.

الوصول إلى شقتي كان أشبه بمخاض عسير يتجدد يوميًّا، مع ذلك لم أفقد أعصابي يومًا ولم يسبق لي أن شتمت أي سائق مهما كان لونه أو جنسه أو أسلوب قيادته، كنت أجد متعة في القيادة المتمهِّلة، كانت تلك هي ساعة اليوغا خاصتي، أستغلها في التفكير والتأمل في خلق الله، الحياة مثل امتحان تزداد صعوبة أسئلته في كل سنة، مع ذلك لم أكن أستغرب قط أن يستمر أبناء شعبي في التناسل، لأن التناسل على ما يبدو كان المتعة الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة في زمن بدأت فيه بنود لائحة الرفاهيات تقل تدريجيًّا مثل قميص رديء يتقلص مع كل غسلة، من كان يفكر في أن العثور على مكان ركن مجاني لسيارته يُعد رفاهية؟ أشعر بالشفقة على الأجيال السابقة، عاشوا وماتوا دون أن يدركوا كم كانوا محظوظين لأن أعمارهم لم تمتد لتصل بهم إلى اليوم، العالم صار شبيهًا بحكاية ديستوبية تستوحي أحداثها من قصة حقيقية ودون أن تخفي أسماء أبطالها الحقيقيين.

تركتُ النيل ورائي مؤقتًا لأخرج من عنق زجاجة الازدحام المروري باتجاه طريق جانبي فيه مبانٍ وعمارات تشبه بعضها شكلًا وتتفاوت حجمًا مثل إخوة يتشاركون بعض الصفات الوراثية ويتنافرون في بعضها، لكني عثرت على ضالتي سريعًا، عمارة اصفرت أحجارها بفعل الزمن وعوامل الأكسدة، وبينما كنت أهم بركنها في موقف تحت ظلال شجرة وارفة وموفورة الصحة على الرغم من عزلتها، لمحت سمير يهرول باتجاهي وهو يشد سرج بنطاله الكحلي الواسع مخافة أن يتعثر في خطواته.

- باشا مصر والدول العربية المجاورة.

كنت أفضِّل لقبًا على غرار الفذ واللامع وصاحب السجل المميَّز، وإن كنت أشك في قدرة دماغه على تركيب هذه الألقاب في جملة واحدة دون أن يتعثر في نطقها مثلما يوشك أن يتعثر في خطواته، إنما لا بأس، سأكتفي باللقب الذي أطلقه عليَّ، ابتسمت له على سبيل المجاملة مثل إنسان يبتسم لقطة جاءت تتمسح في قدمه، لكني لم أكن لأمد يدي قط لأمسح على شعره، لهذا تجاهلت عصا المكنسة التي ظهرت من تحت خصاص قميصه الواسع لمصافحتي وتظاهرت بأني أسوِّي أوراقًا كانت منثورة بجانبي كأثر أخير لزمن يوشك أن يشيح بوجهه عني نهائيًّا.

ربما كان ذلك اللواء العجوز مدَّعي الأبوة محقًّا وتمكن من سبر أغوار نفسي بطريقة فشلتُ فيها شخصيًّا، تساءلت عما إذا كان من السهل قراءة سطور وجهي حقًّا، أم أن تلك صفة تجذرت في نفس كل من يعلِّق نياشين على كتفه، بأن يخشى زوالها في يوم من الأيام.

- كيف الأحوال يا باشا؟

قلت مصطنِعًا التأفف: «من ربنا بخير، إنما البركة في عبيده».

مد يده العظمية النحيلة ليفتح لي الباب، لكني سبقته وترجلت من السيارة، إذ إن وراء هذه المبادرة ما وراءها، وصدقت ظنوني حين بادر بالقول: «سعادة المستشار أراد أن يركن مكانك، لكني أبيت وأخبرته أن هذا المكان محجوز لباشا مصر شخصيًّا».

كان الكذب يشع من عينه ليزاحم الجشع، لأن سيارة سعادته كانت تركن في مكان أقرب إلى الباب، لكني تغاضيت عن ذلك واكتفيت بالقول: «جهودك مشكورة».

اقترب مني متمسِّحًا بكفين مضمومتين أسفل المعدة وعينين تراقبان حذائي الرسمي، وقال مكرِّرًا: «أهلًا يا باشا، نوَّرت المكان».

عدت في سري لأحسد الأجيال السابقة على حياتهم وأرثي جهلهم في آنٍ واحد، ما هو الشيء الذي فعلتُه في حياتي وأغضبتُ به ربي حتى أضطر إلى دفع رسوم ركن بحكم القانون لمصلحة التنمية الاجتماعية ورسوم أخرى بحكم الأعراف لجيب هذا القصير الذي لم يكن وجوده يغني ولا يسمن ولا مكان له من الإعراب بوجود كاميرات المراقبة وخدمة التوصيل بنوعيها السريع المدفوع والبطيء المجاني؟ إذا كانت هذه هي حياتي كضابط شرطة فإني لا أتخيل كيف سيكون عليه الحال بعد ذلك، حين يصبح فصلي من العمل قرارًا رسميًّا بينما أكافح حاليًّا لإخفاء خبر إيقافي.

الآن بدأ عقلي يعمل بطريقة مختلفة كأن المسننات قررت أن تدور في الاتجاه المعاكس، وباتت زيارة السيد عناكب ضرورة ملحة.

قال سمير مكرِّرًا: «نوَّرت يا باشا».

لم أكن أنوي أن أعطي قنديل البحر هذا جنيهًا أحمر، مع ذلك وضعت يديَّ في جيوبي وأبقيتهما لثوانٍ ثم أخرجتهما فارغتين لمجرد إغاظته، بعدها تركته ومشيت مبتعدًا، لكنه لم ييأس، هرول ورائي طمعًا في أي ميدالية ولو كانت شرفية.

- هل يمكن أن أطلب منك خدمة يا باشا؟

ضاعفتُ من وتيرة سيري بطريقة لا تتناسب مع لهجتي البطيئة: «بالتأكيد، ماذا تريد يا سمير؟».

- لي قريب يعمل سائق سيارة أجرة، وسحب أحد رقباء السير رخصه زورًا وبهتانًا.

قلت متهكمًا: «زورًا وبهتانًا قلت لي؟».

- الحكاية وما فيها يا باشا، أن قريبي هذا توجد عداوة قديمة بينه وبين أمين شرطة يعمل في قسم الدقي...

روى لي بعضًا من حكاية طويلة لم أكن مهتمًّا بسماعها قدر اهتمامي بإضاعة المزيد من الوقت على كلام فارغ ريثما أصل إلى بر الأمان، الذي كان في حالتي هذه المصعد الذي نزل من عليائه أخيرًا ليستقبلني بذراعين مفتوحتين، أوهمت رفيقي القصير بأني مهتم بالاستماع إلى شكواه قبل أن أباغته بالولوج إلى المصعد قبل أن يغلق دوني أبوابه.

- يا باشا...

قلت وأنا أضغط على زر الإغلاق استعجالًا: «أرسل لي اسم قريبك ورقم الرخصة على هاتفي».

ها هي رسالة أخرى ستظل في جوالي دون أن أقرأها أبدًا.

أنزلني المصعد على الطابق الثاني، لأخرج منه بغير الهيئة التي دخلته فيها، توجد في الطابق شقتان تقابل باباهما مثل خصمين يستعدان لخوض شجار دون أن يجرؤ أحدهما على الاقتراب من الآخر، أحدهما باب شقتي التي ورثتُ سداد ثمنها الذي تحدى كل قوانين الفيزياء، إذ مهما سددتُ أقساطه فإنه لم يكن يتناقص قط، والشقة المقابلة يملكها رجل يعمل مدرب لياقة لصالح جهة أمنية ويصلح لأن تعلَّق صورته فوق صفحة كتاب الأحياء لإعطاء درس عن إنسان النياندرتال، وجه كبير الحجم غائر الملامح وجسد له تضاريس عضلية هائلة فوق قدمين نحيفتين، شخص آخر يهمل تمارين السكوات والقرفصاء نكاية بعضلة الفخذ التي بدت مثل ابن عاق حرمه والده من الميراث، لكنه على ضخامته البدنية وجهته الأمنية فإنه لم يكن السبب الذي يدفعني لأن أسير على رؤوس أصابعي فوق الرخام مثل راقص باليه نسي انتعال حذائه، وإنما كنت أداري ضجتي عن سمع وبصر تلك القنبلة الموقوتة التي تسمى هيفاء، التي كانت اسمًا دون قد، امرأة بيضاء كالقشطة البلدية، ممتلئة الخدود والجسد ومنتفخة الشفاه، هي وزوجها الأمرد عاشا قبالتي لسنوات لكني مع ذلك لم أعرف بوجودها في هذا العالم إلا مؤخرًا بعد أن زادت ساعات فراغي.

كنت قد صرت أقل انشغالًا بعد أن أوقِفتُ عن العمل ورحلت جيهان من البيت، قراران أرعنان خبط عشواء كعينَي رجل أعمى وأعور في آنٍ واحد، اختنقتُ بضيقي بعدها وزادت ساعات مكوثي على الشرفة في ظلمات الليل الداكنة، أرغي مع نفسي وأشباحي برفقة القهوة السوداء وكل مخلوط من لفافات مضروبة، وفي إحدى جولاتي باتجاه الزاوية الأبعد من حدود الشرفة، التي تصلح لأن يلقي المرء نفسه منها ليسقط رأسًا داخل حاوية قمامة تفيض على الدوام، سقطت عيناي سهوًا على الشق المفتوح من خلف ستارة النافذة التي تختفي خلفها غرفة نوم توردت جدرانها، ولمحت هيفاء تؤدي وصلة رقص أمام مرآة كبيرة تعكس منحنيات جسدها بأفضل مما يظهِره الواقع، تتمايل طربًا على أنغام أغنية شعبية طربتُ للحنها لكني لم أكن أفقه من كلماتها شيئًا، ولأني كنت محرومًا ومسطولًا في آنٍ واحد فقد طالت وقفتي هناك، في زاوية ضيقة تطل على زاوية أضيق حتى باتت وقفتي مفضوحة، نيران سيجارتي الصديقة كشفت موقعي بطريقة خرقاء لتلتقي أعيننا للمرة الأولى، رمقَت الناظر إلى انعكاس مرآتها باستهجان في أول الأمر، قبل أن تتابع رقصتها الذاتية كأن شيئًا لم يكن، وتلك كانت الشرارة الأولى التي ظلت نيرانها تلاحقني حتى هذه اللحظة.

كنت أبحث عن المفاتيح في جيوبي حين غمزت الصنارة في الاتجاه المعاكس، سمعتُ مصراع باب يقرقع خلفي أتبعه صوت أنثوي ناعم يرمي لي بالتحية.

- مساء الخير يا عصام باشا.

رددت التحية دون أن أستدير، ثم بدأت الكعوب تطرق على الأرض اقترابًا وانتشرت رائحة العطر في أرجاء المكان مثل سرب جراد جائع، فتحَت الباب ودخلَت شقتي لكن خطوتها كانت سباقة كالعادة، وسرعان ما حال جسدها المترجرج الذي كان يتخفى تحت عباءة سوداء رقيقة بيني وبين مقبض الباب الذي بقي في حيرة من أمره بين فتح وإغلاق، قبل أن أستقر على إبقائه في مكانه بين وبين.

- كيف حالك يا باشا؟

تراجعتُ خطوتين إلى الوراء لأخفف من سطوة الرائحة التي دخلت لتحتل تجويف أنفي وتطرد الهواء منه.

- أنا بخير، أهلًا يا سيدة هيفاء.

تأملتني بجرأة وقالت: «ما شاء الله عليك يا باشا، تبدو متألقًا ووجهك مشرق».

ثم اقتربت مني قليلًا، واستنشقت.

- حتى رائحتك طيبة، يبدو أن الشمس لا تملك تأثيرًا عليك يا حضرة الضابط.

قلت قاطعًا كل الطرق سواء إلى روما أو غيرها: «أي خدمة يا سيدة هيفاء؟».

سألتْ على حين غرة وعيناها تسبحان في أرجاء الصالة: «أين الست جيهان؟ ما زالت تجالس والدتها المريضة؟».

اتسعت عيناي تعجبًا قبل أن أتذكر أن هذه كانت الكذبة التي نسجتُها لأبرِّر وحدتي.

- صحيح، والدتها مريضة جدًّا وعلى وشك أن تموت إن شاء الله، جيهان لن تعود في أي وقت قريب.

لم تكن لديها مشكلة في ذلك، ولو كانت تشك في أني انفصلت عن زوجتي فإنها الآن باتت متأكدة، قالت وهي ترمقني بنظرة ذات مغزى لا يخفى على بالغ عاقل: «جئت لأطمئن عليك فقط، ولأكرر لك عبارات الشكر والامتنان لأنك خلَّصتنا من ذلك السفاح الذي أرَّق مضاجعنا لسنوات».

- لا داعي للشكر، السفاح كان يكتفي بقتل العاهرات فقط، أنت ستكونين في أمان من شرِّه على أي حال.

فاجأتني بأن صدرت عنها ضحكة أقل ما يمكن وصفها بأنها خليعة وجعلتني أشك فيما قلته لها عن سبب كونها آمنة، قالت بعد أن أنهت ضحكتها: «لكنه يظل مجرمًا وأنت خلَّصتنا من شرِّه، البلد كله يمدحك يا باشا، يقولون

إنك فعلت الصواب حين قتلتَه، لأنك أدركت أن والده كان سيستخدم نفوذه لينقذ ابنه من حبل المشنقة، أنت بطل شعبي».

قتله كان وليد اللحظة وليس مخططًا له، لكن أحدًا لم يكن سيصدق ذلك بأي حال، لذا قررت أن أستمتع باللحظة الراهنة، وقلت بنبرة شخص فخور بإنجازه: «هذا واجبي يا ست هيفاء».

غمغمت بعينيها ونبرتها معًا: «ومن واجب كل شخص في البلد أن يشكرك شخصيًّا على ذلك».

تجاهلت المجاملة هذه المرة خوفًا من التمادي فيما لا أرغب في التمادي فيه، قلت: «الوقت متأخر، والسيد جابر على وشك أن يصل إلى البيت».

كررت الضحكة ذاتها التي جعلتني أكرر شعوري بالندم على قتل سفاح العاهرات، وسقط القليل من عباءتها كاشفًا عن جزء من ذراع ممتلئة وطرية وناصعة البياض وصالحة للاستهلاك البشري.

- جابر خرج ليسهر مع أصدقائه ولن يعود قبل الفجر كالعادة، يصل إلى البيت سكران ومنهَكًا ومهدودًا، وما إن يصل إلى الفراش حتى يغط في النوم.

تجاهلت تلميحاتها المرئية وغير المرئية، وقلت بنبرة قصدت بها أن أكون حازمًا: «المعذرة يا سيدة هيفاء، عليَّ أن أذهب إلى الفراش».

- ما زال الوقت مبكرًا يا حضرة الضابط، الساعة لم تتعدَّ العاشرة بعد.
- عليَّ أن أستيقظ باكرًا.
- لماذا لا تستيقظ على مهلك؟ أنت تستحق أن ترتاح، أكيد أن المديرية لا يمكنها أن تستغني عنك طبعًا، لكن بإمكان الشكاوى أن تنتظر.

هذا شخص آخر لا يعرف بعد أن النسر على وشك أن يطير ليذهب خلف الشمس.

- يا ست هيفاء، أنا لا أنام جيدًا في آخر فترة، قلة النوم تتسبب في ارتفاع مستوى الكورتيزول وتزيد من التوتر.

اقتربت حتى صارت على بعد خطوة أو أقل، وقالت بليونة: «المسكين، أنت بحاجة إلى تدليك».

أخفيت تنهيدة كانت على وشك أن تقلع من فمي، أنا لم أكن قديسًا، لكني لست على هذا القدر من الدناءة حتى أقع فريسة غواية حليلة جاري، لست متفقهًا في الدين ومع ذلك أعلم أن هناك مكانًا في جهنم الآخرة مخصصًا لمن يفعل ذلك حصرًا، كما أنها لم تكن من النوع الذي يستهويني من النساء، أنا أميل أكثر للنحيفات ذوات الأجساد الملفوفة والبطون الضامرة، ويا حبذا لو كن ممن عكفن على ممارسة تمارين الكورديو بانتظام مثل زوجتي السابقة، بينما هذه الهيفاء لم يكن لها من اسمها نصيب سوى هيافة دماغها، لذا فقد قلت معتذرًا عما خمنت أنه دعوة مفتوحة تحمل جميع الاحتمالات: «لا أحب المساج، جسدي يقشعر منه».

قالت وهي تتقدم مع كل خطوة أتأخرها: «هل أنت متأكد؟ الأمر لن يستغرق الكثير من الوقت وأنا يدي خفيفة».

كنت أشك في ذلك كثيرًا، سواء من حيث قلة الوقت أو خفة اليد، قلت ممعنًا في الرفض: «أنا متأكد، من الأفضل أن تعودي إلى بيتك قبل أن يرجع زوجك».

أطلقت صوتًا خافتًا يدل على اللامبالاة التي لم تكن لها وجهة محددة، ولملمت القليل الذي تبعثر من عباءتها.

- لا بأس، سأدعك لترتاح.

أدارت لي ظهرها ومشيت مختالة إلى الخارج دون أن تنظر إلى الوراء مثل لبؤة تعلم أن فريستها لن تذهب إلى أي مكان أبعد من حدود هذه المحمية الصغيرة، هرعتُ لأغلق الباب وراءها بالمفتاح ثم أطفأتُ النور الخارجي قبل أن يستدرجني الشيطان باتجاه العين السحرية لأتابع وصلة النظر إلى حيث لا أشتهي، بإمكان الشيطان أن يجردك من كل مبادئك ويفعل بك الأعاجيب في حال غفلتَ عن وسوسته للحظة، حقيقة لا تتبدل بتغير الزمان والمكان.

مشيت مختالًا بدوري في أرجاء الصالة الواسعة، متخطيًا طاولة وشاشة تلفاز وطقم كنب كلاسيكي باتجاه رواق صغير ينتهي بغرفة النوم الكبيرة التي تحمل صفة الماستر، بطلائها الأزرق المزين بورود وطيور بيضاء

وسريرها اللين الذي يصلح للغوص وخزانة الملابس العريضة التي أُفرغت من جل أزيائها، لا تزال هناك بقايا للمسة أنثوية من زمن غابر على شكل شمعة معطرة فوق المنضدة وأحمر شفاه سقط تحت التسريحة ورواية رومانسية فوق رف الجدار العلوي، تجاهلتُ كل تلك المظاهر مثلما صرت أفعل كل ليلة ووقفت أمام المرآة الكبيرة متأملًا بنرجسية تقاطيع وجهي الذي كان لا يزال وسيمًا مثلما تركتُه في آخر مرة، كنت أحث الخطى في الجزء الناضج من ثلاثينياتي، ومع ذلك كانت لي هيئة شاب في العشرين من عمره، وجه مليح وجسد رشيق وعينان بنيتان ساطعتان وشعر كثيف لا أثر فيه لأي صلع، تلك الهيفاء وفتيات أخريات من معارفي أعدن لي ثقة كانت تتأرجح مثل بندول ساعة، أعزب مرغوب محبوب من قِبل معشر النساء ولا عزاء لجيهان طبعًا، ومثار حسد وتبجيل واحترام بين أقرانه من الرجال.

حينها تدخَّل السؤال المعلَّق في الهواء ليصفع خلايا عقلي بكف عريضة، هل يُعقل أن يكون اللواء صادقًا في كلامه وأني دون النسر لا أساوي وزن ريشة؟

لدي ليلة بطولها لأفكر في إجابة.

«يتساءل الآباء لماذا الجداول
طعمها مرٌّ، فيما كانوا هم
أنفسهم من صبَّ السم
في الينبوع»!

- جون لوك، فيلسوف بريطاني

اليوم الثاني

محقِّق بالأجرة

٦

تخطيت نقطتَي حراسة لأدلف إلى داخل أسوار المدينة الجديدة، مررت بسيارتي القبيحة فوق طريق أنظف من سجاد شقتي بعد غسلها حتى وصلت إلى بوابة تعلوها قبة من قرميد أحمر بين عمودين بطابع الرومان القدامى، استوقفني رجل أمن يرتدي ثيابًا شبيهة بثياب الشرطة دون نياشين، ويحمل بيده جهاز كاشف المعادن بدلًا من المسدس الميري، ويناديني بالأستاذ، ربما لأن شكلي كان يوحي بذلك في هذه اللحظة، إذ بدوت مثل مدرس البيانو أو اللغة الفرنسية، ببذلة رمادية قديمة وواسعة وفيها جيوب كثيرة معظمها فارغة.

مرر الرجل جهازه فوق هيكل السيارة تحسسًا ثم سمح لي بالمرور، وإن كنت أشك في أن الجهاز قد تعطل بسبب كثرة القاذورات التي التصقت بسيارتي مثل طفيليات وجدت مسكنًا دائمًا لها، الله يخرب بيتك يا سمير الكلب، جعلتني أدخل بيوت الناس الأكابر بسيارة قذرة مثل حيوان أجرب. مرت العجلات التي تصدَّع مطاطها من القِدم فوق قرميد مرصوص، لحسن الحظ لم يكن هناك زائر غيري، ركنت القذارة التي تمشي على عجلات في أبعد مكان ممكن خلف نخلة قصيرة تبدو مثل قزم يرتدي زي رجل بالغ.

ما إن خطوت إلى الداخل حتى تبدل شكل العالم وتحول الجو من منتهى الحرارة إلى معتدل البرودة، دفقات هواء تأتي من فتحات في السقف ومن الجدران ومن الأرض، تشعرك بلذة البرودة دون أن تكون عرضة للإصابة

بالتهاب ذات الرئة، وفوق الباب مقياس حرارة ضُبط على 19 درجة مئوية، إلى جوار تمثال حجري كبير على هيئة حيوان غريب الشكل يشبه الأسد ولا يشبهه، أما الردهة فقد كانت واسعة بما يكفي لإقامة سباق في الماراثون، من السقف تتدلى ثلاث ثريات أشبه بكواكب اكتُشفت حديثًا، ومن حولها لمبات كريستالية تبدو مثل نجوم صغيرة لامعة.

سقطت عيني عمدًا على الكثير من الأثريات والتحف وأشياء أخرى قديمة، ومنها ذلك الرجل الذي كان يجلس في نهاية الصالة فوق مقعد مسنده على شكل قبة وسيقانه مطلية بالذهب، البياض ملأ شعره والتجاعيد زاحمت صفاء وجهه، لو كان فقيرًا لخمنت أنه تعدى الخمسين، لكن لأنه غني فهو في السبعين وربما يقارب على الثمانين، وجهه يشتعل بياضًا وعيناه زرقاوان ضيقتان، فكرت في أنهما كانتا أوسع وأجمل في زمن آخر مضى واندثر، كان يرتدي بذلة بيضاء تنتمي إلى جيل قديم من البشر وإن كانت تنحدر من ظهر ماركة أجنبية، ولولا أنه لم يكن يضع طربوشًا على رأسه لقلت إنه سلطان فر من مقبرة عثمانية.

لكن هرم عينيه لم يفقِدهما لمعة الحدة والثبات. تفحَّصني مثلما يتفحص إقطاعي عبدًا ينوي ابتياعه.

- هل أنت الضابط الذي أرسله هشام؟

نبرة صوته تتراوح ما بين القوة والضعف، هادئة وفيها صدى خافت، ولا يحمل أي أثر لنيكوتين تراكم على جدار الحلق، لا منفضة بجانبه ولا غلايين، وحينها بدأت أتساءل عن سر هذا الوهن الذي منحه فوق عمره سنوات هو بغنى عنها، شخص يعيش في بلد داخل بلد لا يهرم بهذه السرعة، إذ لا يوجد ما ينغِّص عليه حياته، حرفيًّا، باستثناء حادثة انتحار ابنه التي مضى عليها شهور الآن، لكن هو لديه أولاد آخرون، كل ما هنالك هو أن وريثًا قد خرج من المعادلة.

- أيها السيد، من حضرتك؟

آه، سرحت مجددًا على ما يبدو، يفترض أن أكون متنبهًا، أنا جئت إلى هنا لأبدي انتباهًا أصلًا.

- الرائد عصام عبد الستار، من البحث الجنائي بمديرية أمن الجيزة.

- جيد، لقد كنت في انتظارك، هشام مدحك كثيرًا.

تجاهلت الإطراء دون أن أرقص طربًا بصعوبة، أردت أن أضيف إلى كلام هذا الثري العجوز الذي خرج من بطن رواية تاريخية أن الواقف أمامه هو حضرة المحقق الفذ واللامع وصاحب السجل المميَّز وبقية الألقاب الأخرى التي أطلقتها على نفسي أو اكتسبتها بحكم الخبرة أو العِشرة، لكني عدلت عن ذلك، إذ إن الرجل الذي أمامي نطق اسم سيادة اللواء مدير البحث الجنائي في المديرية مجردًا من أي ألقاب، وإنجازاتي التافهة لن تجدي نفعًا مع أمثاله.

- هل قتلت حقًّا ابن صفوت؟

- قتلت من؟

- ابن صفوت، صفوت العربي.

آه، يقصد وزير الداخلية الأسبق.

قلت بنبرة رسمية، مفتعَلة ولكنها مقنِعة: «أنت تقصد المجرم المتهَم بقتل سبع فتيات، صحيح، أنا أطلقت النار عليه».

- قتلت ابن صفوت العربي ومع ذلك أبقوك في الخدمة؟!

معضلة كل يوم، هل عليَّ أن أكذب أم أقول الحقيقة؟ ليس من الصعب على المرء أن يتخذ القرار الصحيح، من الأفضل قول الحقيقة دائمًا.

قلت متقنًا الكذب حد الإقناع: «طبعًا، وعلى وشك أن أنال ترقية».

- حقًّا؟

- ترفيع استثنائي مع العلاوات وإجازة طويلة استثنائية مدفوعة الأجر، لكني مللت من قضاء العطلة متنقِّلًا بين المصايف وطلبت من اللواء هشام أن يوافق على قطع الإجازة ويعيدني إلى العمل، فاقترح عليَّ أن أقوم بهذا التحقيق غير الرسمي، لذا وافقت من باب التغيير.

- أجل، تغيير، من الجيد أن تقوم ببعض الأعمال الجانبية من الحين إلى الآخر.

دس يده داخل الصديري الفضي، وأخرج مغلفًا أنيقًا بلون سيجار كوبي ومده نحوي.

- هذه دفعة على الحساب.

مفاجأة غير متوقَّعة بكل المقاييس، ربما أن اللواء يعتبرني مثل ابنه فعلًا، وأنا الذي كنت على وشك أن أرفض هذا العمل وأرفض أبوة اللواء شخصيًّا بحجة أنه لم يربِّني على قِدم المساواة مع بقية أولاده الستة! ابتلعت ريقي بصمت وتلقفت المغلف دون أن أسأل عن ماهية المبلغ الذي كان موجودًا فيه، كان ممتلئًا مثل قطة مدللة، وناعم الملمس مثل جلد الفتاة اللاتينية التي لفَّت السيجار الكوبي الذي سلخ جلده لاحقًا ليصنع منه المغلف، تمالكت نفسي بالكاد من أن أقرِّبه إلى أنفي لأشمه، بإمكاني أن أتابع الغزل لساعات، وأن أتخيل وجه بطاطا ضاحكة تُدعى السيد نبيه بينما يعد نقود إيجار كاد ضلعه أن يُكسر، لكن الآن ليس وقته، أودعت المغلف أحد جيوبي الداخلية وأنا أتصنع الرزانة.

- إذًا يا بيك، هل يمكن أن تطلِعني على القضية؟

- اجلس أولًا.

تنبهت أخيرًا إلى أني ما زلت أقف على قدمي مع أن المقاعد كانت كثيرة وتغري بالجلوس، شكرته واخترت الكنبة الأكبر حجمًا، شعرت برغبة في أن أمد ذراعي بكلا الجانبين لكن دونما سبب محدد.

داس العجوز بإبهامه على زر قريب منه وعم الرنين في أرجاء المكان، تخيلت جيشًا من الخدم يركض في أرجاء الصالة لكن لم يظهر سوى واحد، شاب يرتدي بذلة شبيهة بتلك التي يرتديها العجوز إنما دون صديري، كان طويلًا وكتفاه عريضتان، لكنه لم يكن داكن البشرة مثلما تخيلت، وبشرته لا تقل بياضًا عن مخدومه، ملامحه تشير إلى أنه ابن ناس وليس مولودًا للخدمة. العجوز قال موضِّحًا كأنه يرغب في فك الالتباس: «هذا نديم، مدير القصر».

أومأ لي الشاب بترحاب متحفِّظ، لكن ما بدأ بسؤال عن نوع الشراب الذي أرغب فيه امتد إلى سلسلة من الأسئلة الأخرى، كنت أرغب في فنجان قهوة، لكن مظاهر الأبهة والبذخ دفعتني لأطلب شيئًا أكثر تعقيدًا، وانتهيت

باسبريسو ماكياتو بنكهة البندق وبكمية قليلة من الحليب وسكر مضبوط وقليل من شيء آخر لا أذكر اسمه، وقد بدا نديم مثل محامٍ يلقِّن شاهدًا في المحكمة، قبل أن ينصرف ويتركني وحيدًا في حضرة كبير القضاة، الذي خاطبني بنبرة رسمية: «أخمن أن لديك فكرة جيدة عن القضية التي كُلفتَ بها».

لا توجد قضية ولا يحزنون، لكن ليس بإمكاني أن أقولها في وجهه وأغامر بإعادة النقود التي ما زال لا يعلم عدد أرقامها إلا الله وهذا العبد الذي يجلس مترفعًا أمامي، لكني سآخذ الأمر بروية وأوصِل إليه الفكرة على دفعات قد تمتد إلى يومين أو ثلاثة.

- حسبما فهمت من سيادة اللواء، أنت تتلقى رسائل تهديد دورية.
- سبع رسائل، كلها مكتوبة بالخط نفسه، وبنوع الورق نفسه.
- وأنت تشك أن شخصًا يقلِّد خط أحد أولادك.
- لا، أنت أسأت الفهم، لا يوجد مقلِّد، هذه الرسائل أرسلها أحد أولادي فعلًا.

دارت أفكاري داخل خلاط، قلت: «لا يا بيك، أنت أسأت الفهم على ما يبدو، لو أنك تريد مني أن أقتل أحد أولادك مثلما قتلت ابن وزير الداخلية، باعتبار أن سمعتي كقاتل أولاد الذوات صارت تسبق مهنتي، فأنت مخطئ، إذا كنت تريد أن أقتل فعليك أن...».

قاطعني بنبرة سريعة: «لا أريد منك أن تقتل أحدًا».

غير أني كنت قد أكملت عبارتي التي بترها قبل قليل: «أن تزيد المبلغ قليلًا».

- ماذا؟

شعرت بالحرج، وحتى الابتسامة التي رسمتها على وجهي كانت تشعر بالحرج مني، قلت مستدركًا: «أقصد... أعتذر، لقد أسأت الفهم، لكن بما أنك تعرف أن أحد أولادك هو الذي يكتب لك الرسائل، فما هو سبب وجودي هنا؟ هل تريد أن أقبض عليه متلبسًا مثلًا؟».

كشر العجوز عن أنيابه لأدرك أنه قد عيلَ صبره، لكن على الرغم من التغير الذي طرأ على وجهه فإن نبرة صوته لم تتأثر بذلك.

- ابني الذي كتب الرسائل ليس موجودًا هنا.

نعتُّ نفسي بالغباء، وبالتسرع، لكن لم يسعفني الوقت لأبحث عن أوصاف أخرى، قلت وأنا أبتسم بفم مفتوح هذه المرة: «أجل، فهمت الآن، تريد مني أن أعثر على ابنك».

- تمامًا.

أخيرًا، حان الوقت لألعب دور المحقق فعلًا لا قولًا، أخرجت من جيبي مفكرة ورقية وقلم حبر سائل أهدتني إياه جيهان في أحد أعياد زواجنا القليلة، ولم تتح لي الفرصة لاستخدامه قط. سألت متصنعًا الاهتمام: «ما هو اسم ابنك؟ أين ومتى آخر مرة شوهد فيها؟».

- فؤاد، الابن الثالث في الترتيب، آخر مرة شاهدته فيها قبل سنة، في مدافن العائلة في مدينة نصر.

- آه، لا بد أني أسأت الفهم، ظننت أن ابنك فؤاد متوفًّى.

- صحيح، فؤاد توفي منذ سنة، وآخر مرة رأيته فيها يوم دفنه.

ضاقت عيناي وأنا أنظر إلى وجه العجوز المخبول، الذي تابع كلامه بالوتيرة نفسها، دون أن يظهِر أي بوادر خبل أو خلل: «أظن أن شبح فؤاد قرر أن ينتقم مني، لهذا السبب كتب كل هذه الرسائل المؤذية».

بإمكاني أن أتخيل شكل وجهي وأنا أنظر إليه هذه المرة، فم مفتوح من أحد الجانبين ومن فوقه خد ارتفع عن مكانه، نظرة قريبة عزباء تستنكر تقبيل العريس عروسه ليلة الفرح، كان هذا هو مظهري حين أبدو في حالة استهجان.

- تعتقد أن ابنك الميت هو الذي يكتب رسائل التهديد ويرسلها إليك؟

ترك العجوز العنان لرأسه لكي يعلو ويهبط، ثم قال: «أعلم أن الأمر يصعب تصديقه، لهذا السبب طلبت من هشام أن يرسل إليَّ أفضل رجل شرطة عنده، لأن المسألة أكثر تعقيدًا مما تبدو عليه.

تعقيدًا؟ يا سيدي الفاضل قل تخريفًا، جنونًا، خزعبلاتًا، لكني احتفظت برأيي لنفسي بالطبع واكتفيت بالقول: «يبدو الأمر معقَّدًا فعلًا».

- أظن أنك تقول في نفسك هذا العجوز مصاب بالخرف، قد لا أتمكن من إقناعك بأسبابي، لكني أظن أن هناك خطرًا حقيقيًّا يهدد عائلتي، ومصدر هذا الخطر هو ابني المتوفَّى.

- مع كل الاحترام يا سيدي، لكن يبدو الأمر غير قابل للتصديق، المرسِل هو شخص آخر بكل تأكيد، هناك الكثير من الأشخاص بإمكانهم تزوير خط شخص آخر بطريقة لا يمكنك معها أن تميز الفرق.

لكن العجوز لم يكن في المزاج المناسب ليخوض جدالًا فوق حلبة طينية، لذا نطق بكلمة الفصل أخيرًا: «المرحوم فؤاد هو من كتب الرسائل، مهمتك هي أن تتأكد من ذلك بطرقك الخاصة، أما إذا كنت ترغب في الانسحاب من هذه القضية، يمكنك أن تغادر بعد أن تتناول قهوتك».

الحقيقة هي أنه لم تكن هناك قضية من الأساس، ثم أن هذا الكوب الذي وضعه كبير الخدم أمامي قبل دقيقة ليس قهوة أصلًا، ورئيس الخدم لا يُفترض به أن يتسلل ويضع الكوب ثم يغادر دون أن أشعر به تقريبًا حتى لو بدا عليه أنه ابن ناس، لذا فكرت في أن هناك الكثير من المغالطات التي ظهرت في الدقائق القليلة الماضية.

هرشت مؤخرة رأسي، فوق العظم القذالي تحديدًا، كدلالة على حيرة، لكن دون حيرة فعلًا، كنت بحاجة إلى أن أقنع نفسي، ثم أقنع العجوز نفسه بما قاله لي للتو، رسائل تهديد من ابن ميت لوالده الحي، تساءلت عن حكم عقوق الوالدين في هذه الحالة، بعد أن يكون جلد الابن العاق قد تفسخ عن عظمه.

- هاه، ماذا قلت؟

قال رسمي وهو يضع يده على المقبض العاجي لعصاه التي كانت مطلية بماء الذهب كأنه يستعد لأن يهشني بها بعيدًا، في الوقت الذي توصلت فيه إلى حقيقة غير قابلة للنقض، وهي أني قررت أن أحتفظ بالمغلف الحبيب قريبًا من القلب، لذا قلت بعد أن انتهيت من الهرش والتردد معًا: «لا بد أن لديك من

الأسباب ما يدفعك لتفكر بهذه الطريقة، وأنا لست في مكانك ولا أرى الأمور من منظورك، لكني سأحاول أن أنظر من الزاوية نفسها».

لكن العجوز سأل، زيادة في التوكيد: «إذًا فقد قررت أن تتحقق من الأمر».

إذا جاء المرمى بشباكه وعارضاته ليقف أمام كرتك ومع ذلك سددتها بعيدًا، فأنت إذًا لاعب أرعن أهوج لا تستحق عقدًا باهظ الثمن مع فريق له تاريخ عريق مثل بيراميدز.

قلت بعد برهة صامتة: «قبلت القضية».

أفتر الثغر المحاط بالتجاعيد عن تجعيدة أخرى على هيئة نصف ابتسامة، ضغط جرسه مجددًا ليظهر نديم بعدها بثوانٍ، كأن مهمته في الحياة هو أن يتنصت على مخدومه من خلف الباب.

- أحضر لي الرسائل.

اختفى نديم بخفة بهلوان ولم يترك خلفه أثرًا، ثم رجع بعد دقيقة، يحمل مغلفًا آخر أبيض اللون ووضعه على الطاولة أمامي، بجانب كوب الميكاتو الذي لم تتح لي الفرصة لأسبر أغوار مذاقه بعد، الرغوة ما زالت في انتظار لساني ليغطس فيها.

سمعت صوت هدير محرك يخترق مسامات الرياح الساكنة، لامبورجيني مع عدد من الأحصنة يكفي لخوض حرب ضروس في مسلسل تاريخي، إحدى السيارات القليلة المتبقية التي لا تزال تعتمد بشكل كامل على الوقود الأحفوري الذي يوشك على الانقراض دون تدخل من مصادر الطاقة البديلة، آه، تنهدت في نفسي بحسرة، أنثى حصان جامح تركن الآن في مكان قريب من سيارتي التي كان الغبار يغطيها من كل الجهات لدرجة أن لونها لم يعد معروفًا حتى بالنسبة إليَّ.

آه يا سمير يا ابن ##

انتظر العجوز حتى استعاد العالم هدوءه الطبيعي بحيث لم يعد هناك سوى صوت تيارات الهواء الباردة التي ما زلت لا أعرف لها مصدرًا، قال بعدها: «داخل المغلف، ستجد سبع رسائل، ومفكرة جانبية عليها أبيات شعر كُتبت بخط المرحوم، يمكنك أن تقارن بينها».

- سأفعل.

- جيد، كما أريد منك أن تلتقي بقية أفراد العائلة، أريد أن تكون في أشد حالاتك انتباهًا.

- لماذا تريد مني أن ألتقي عائلتك ما دمت متأكدًا من أن المرحوم فؤاد هو المسؤول عن هذه الرسائل؟

- لكي تحاول أن تعرف هوية الضحية التي سيختارها.

هذه المرة ازددت انتباهًا، هناك شيء ما في نبرة صوته بإمكانه أن يدفعك إلى أن تأخذ كلامه بعين الاعتبار مهما بدا لك مخبولًا. تركت الرسائل وشأنها، فقد كنت مثل أي شخص عاقل، مهتمًّا بالأحياء أكثر. قلت لأبدو مثل محقق محترف ويبدي الكثير من الاهتمام: «متى يمكن أن ألتقي بقية أفراد العائلة؟».

- قريبًا جدًّا.

رائحة عطر نفاذة فاحت في الأجواء لتؤمِّن على كلامه، لم أميِّزها ولكن أنفي لم يخطئها، صاحبة اللامبورجيني حضرت لتعلن عن نفسها على ما يبدو، انتظرتُ سماع قرقعة كعب عالٍ فخدعني حذاؤها الخفيف من ماركة ذات أصول عريقة شأنها شأن التيشرت والجينز، انسابت إلى المكان مثل نسمة ربيعية، إحساس دون صوت، قطعة من شمس أوروبية قهرت شتاء روسيا، شعر أشقر منسدل وعينان زرقاوان ونحافة رشيقة، نطقت بـ «هاي» كأنها تلحِّنها، بينما اكتفيتُ بـ «أهلًا» ذات الجمود الأسطوري ولزمت الصمت احترامًا لقدسية المشهد، بدوت مثل مراهق لم يذق طعم النساء قط وقد اختفى الرجل الذي جرب كل أشكال الارتباط العاطفي على وسائل التواصل، من مخطوب ومتزوج ومطلق وفي علاقة معقدة.

تولى العجوز اللطيف مهمة تنبيهها إلى أن هناك ضابط شرطة في المكان، انتفشتُ مجددًا، حتى وإن خلت كلمة ضابط من الإضافات الأخرى، لكنها رمقتني بنظرة عادية تمامًا، نظرة اعتياد وجود ضيوف مهمين على شاكلتي، واكتفت بقول: «أهلًا بحضرتك».

- أهلًا بك يا آنسة بسمة.

سألت مستهجنة: «كيف عرفت اسمي؟!».

- لقد تشرفت مسبقًا بمعرفة أسماء الجميع، أنا من سيحقق في قضية الرسائل التي يتلقاها والدك.

حالة اندهاشها الثانية كانت مفتعَلة وتختلف تمامًا عن حالة اندهاشها الأولى، لأن الحاجب الأيمن ارتفع أكثر مما يجب وبقي على هذه الحال لفترة أطول من اللازم، وفي النهاية فأنا لم أكن حشرة ضخمة نبت لها رأس ثور، لكني حضرة المحقق الفذ واللامع وصاحب السجل المميَّز، الذي سيعثر على شبح ميت يكتب رسائل تهديد، لذا، أجل، ربما كنت سأندهش بالطريقة نفسها لو كنت في مكانها.

الحاجب بقي في حالة رفع، لكنه انتقل من وجهي إلى وجه والدها: «هل نحن بحاجة إلى ضابط شرطة لأجل موضوع تافه مثل هذا؟».

لكنه كان مصرًّا، قال مستخدمًا النبرة ذاتها التي لا تتبدل: «ماذا لو قرر فؤاد أن ينفِّذ تهديده؟».

- أخي الميت؟ بابا، لقد سبق وتكلمنا عن الأمر، هناك شخص يعبث معنا.

ثم نظرت إليَّ وقالت منبِّهة: «حضرة الضابط، لا تتعب نفسك، أراهن على أن رامي هو المسؤول عن كل هذه الفوضى».

حاولت أن أتذكر الاسم، لكنها تبرعت مشكورة بالتوضيح: «رامي هو ابن شقيقي كمال، على أعتاب العشرين لكن له دماغ طفل في الخامسة، يعشق المقالب حتى النخاع، إن أردت رأيي، هو المسؤول عن هذه الرسائل، إذ بالمنطق، كيف يمكن للمرحوم فؤاد أن يكتب رسائل تهديد وهو ميت منذ سنة؟».

هذه المرة خرجت علامة الاستفهام من رأسي شخصيًّا وطارت إلى الأعلى مثل بالون، لو كان سؤالها على هيئة منشور لعلَّقتُ بكلمة مهتم مع كثير من النقاط أسفل منها، لكن العجوز أجاب ببساطة: «هذا لا يعني أن التهديد غير جاد».

الفتاة الجميلة أطلقت زفرة أشبه بصوت قطار بخاري، قالت باستسلام مخيِّب: «كما تشاء يا والدي، لندع الرجل الغريب الذي لا نعرف عنه أي شيء وعما إذا كان محتالًا أو فاشلًا في مهنته يدس أنفه في شؤوننا إذًا».

أزعجتني الطريقة التي نطقت بها كلمة الرجل في عبارتها الأخيرة، لذا فقد كنت مضطرًّا إلى أن أتدخل قبل أن تتبعثر المزيد من كرامتي فوق الأرضية الرخامية التي كانت أنظف من السرير الذي أنام عليه: «أنا الرائد عصام عبد الستار، من إدارة البحث الجنائي في مديرية الأمن».

- لم أقصد الإساءة لك يا حضرة الضابط، كلامي لا يتعلق بك شخصيًّا، أنا أحاول أن أتحدث مع أبي بالمنطق، لكن من الواضح أنه اتخذ قراره ولن يرجع فيه، مثل كل مرة.

قال العجوز دون أن تتغير تعابير وجهه: «أنا أفعل ما فيه مصلحتكم جميعًا، لطالما كنت أفعل ذلك».

الفتاة أشاحت بوجهها باتجاه الباب البعيد كأنها تبحث عن حجة لتعود من حيث أتت، ومثل كل متنمر في عالم لا يعلم الرحمة، فقد قررت أن تنسحب من عراكها مع الأقوى لتهاجم الأضعف. سألتني: «هل هذه سيارتك التي تركن في الخارج؟».

أومأت موافقًا، تويوتا الهجينة ذات الموديل القديم، التي كانت أكبر سنًّا من رامي ابن شقيقها، أتبعت إيماءتي بتنهيدة لم تسمعها سوى نفسي، خدعوك في الأفلام منذ عشرات السنين وقالوا إن هذه سيارة المشاهير، ضابط جنائي يلاحق قتلة راكبًا بريوس، وفوق ذلك، تعلوها الغبرة مثل قشرة رأس.

- سيارة لطيفة.

قالتها بنبرة عادية دون أن تسخر منها ومن صاحبها ومن الذي اخترعها، وحتى نظرتها وهي تخرج علبة سجائرها الأنيقة لم تكن تحمل أي مخالفات أو ظنون، ربما تكون كتمت سخريتها في قلبها بأضعف الإيمان، هدنة أم انسحاب؟ ما زلت لا أملك فكرة، لكني تخليت عن دفاعاتي بالمقابل، بمعنى أني عدلت طريقة جلوسي ولم أعد منفوش شعر الصدر، مدت لي من مكانها البعيد ذراعًا ناصعة البياض تنتهي بسيجارة على وشك أن تشتعل من تلقاء نفسها وهي تقول: «هل ترغب في واحدة؟».

تأملت لفافة التبغ التي بين أصابعها ولعنت جيوبًا أنفية حساسة وأمراض صدر قررت زيارتي قبل أن أصاب بالهرم، فاستأنست وتملكت المطرح

ودفعتني لاعتزال التدخين بأشكاله كافة. قلت معتذرًا: «شكرًا، أنا أقلعت عن التدخين منذ أكثر من شهر».

ثم أضفت وأنا أرفع سبابة مستقيمة: «التدخين ضار بالصحة».

رمقتني باستغراب، اتسعت عيناها حتى كدت أغرق، ثم ضحكت حتى كدت أموت من الرجفة.

- شكرًا على النصيحة.

كنت على وشك أن أسترسل لولا أن العجوز الشرير قاطعني بنبرته الآمرة التي لا تحتمل أن يشاركها أحد في الكلام: «لقد طلبت من نديم أن يجهِّز لك غرفة في جناح الضيوف، سأدعك لكي تستريح وتقرأ الرسائل، وستلتقي بقية العائلة على الغداء، أريد أن أعرف انطباعك الأوَّلي عن كل شيء، لكن سيكون عليك أن تغادر في وقت لاحق، إذ يتعين علينا الذهاب لحضور حفل زفاف عائلي».

تأملت العجوز الغريب ثم تأملت موقفي بحيرة، لكن المغلف الذي أشعل النار في الجيب القريب من قلبي صرف عني كل بادرة اعتراض، الأمر لصاحب الأمر، الفتاة وضعت رجلًا فوق رجل، رمقتني بكلتا العينين وهي تنفث دخانًا من فمها ومنخريها، لكنه كان دخانًا حقيقيًّا هذه المرة وليس من وحي خيالي الطفولي.

2

دخلت الغرفة بخطوات سائح في فندق خمس نجوم، خلعت حذائي رميًا ثم قفزت على السرير، نحَّيت الرسائل جانبًا وأخرجت المغلف الآخر الذي لن أفرِّط في ورقه أبدًا، فضضت ختمه بشغف وعددت النقود، خضراء مثلما حلمت وتخيلت، تكفي لسداد أجرة الشهر المكسور لوجه البطاطا نبيه وإغلاق دفتر الديون الذي افتُتح على شرفي في السوبر ماركت أمام البيت، وملء بطن الثلاجة حتى التخمة.

هرشت مقدمة رأسي مستخدمًا الخنصر اليمنى وأنا أفكر في أن المبلغ كبير، أتساءل عما يريده رسمي عناكب فعلًا، الأمر يتعدى مجرد رسالة تهديد من مجهول، لكنها قناعته الخاصة وأنا مضطر إلى أن أسايره، إذا كان كاتب الرسائل شبحًا ميتًا فعلًا، سأذهب إلى عالم الأموات بنفسي وأحضره من رقبته، إلا أن الحقيقة هي أن صاحب هذه الدعابة السخيفة التي تحولت في نظر الطاعن في السن إلى قضية، هو حي يُرزق.

أعدت النقود إلى مكانها الطبيعي داخل جيبي، ثم تناولت المغلف الأكبر حجمًا ودفعته إلى أن يتقيأ كل ما في جوفه من حروف خُطت فوق أوراق من نوع مميَّز، ورق أنيق ومسطَّر بحجم 21ب14 مقصومة الرأس، جميع الأوراق مصدرها واحد، مفكرة كبيرة أو دفتر مذكرات أو كشكول مدرسي من النوع غالي الثمن ويصعب تحديد حداثته من قِدمه، صفحات تخلو من تجاعيد الطي والالتواء، والسطور مرتبة ومعتنى بها، كاتبها أخذ كامل وقته

في تزيينها وزخرفتها، وجميعها مقطوعة من الأعلى بحيث لا يظهر لها تاريخ مطبوع. تناولت المفكرة التي استخدمها العجوز للمضاهاة والاستكتاب، التي كان ابنه الميت يستخدمها ليقوم بخربشات شعرية ونثرية في أوقات فراغه، لم يعنِني المضمون بقدر ما كنت مهتمًّا بالشكل، فردت ورقة من هنا وورقة من هناك وفهمت سبب إصرار العجوز على رأيه، بإمكاني أن أجزم أن المفكرة والرسائل قد خطتها الأصابع نفسها، باستثناء أن الرسائل كانت أكثر غموضًا وتنظيمًا وسوداوية.

لم تعد الخنصر كافية للهرش، لذا فقد نقلت المهمة إلى السبابة، نحَّيت المفكرة جانبًا، وبدأت في التهام الرسائل السبع مثل شطائر سريعة التحضير، جميعها كانت تبدأ بعبارة واحدة...

إلى والدي العزيز...

ثم يخوض في سرد هو أبعد ما يكون عن عبارة العنوان، كما لو أنه يرى في والده أشياء كثيرة، أو أن كلمة والدي ترمز إلى أمور أخرى في عقله، تكلم عن الظلم وانعدام العدالة، وعن التحيز وعن التمييز وسوء المعاملة، وكانت هناك العديد من الاقتباسات التي بدت مألوفة لعين عقلي وإن لم أدرك كنهها ولا مصدرها بعد، وسأكون بحاجة إلى إجراء القليل من البحث، أخرجت هاتفي الجوال الذي لم يكن قد نطق منذ الصباح ورحبت بشبكة الواي فاي المجانية من الجيل السابع، وبدأت أنتقي عبارات عشوائية وأخضِعها لتفتيش جسدي كامل، عرفت فيها بعضًا من كتابات أشخاص مثل كافكا ودستويفسكي وأورويل وأدجار آلان بو، لكن العبارات الأكثر صراحة في التعبير، قد كانت من بنات أفكار كاتبها الخاصة ولا شك في ذلك، أشياء مثل حان وقت القصاص، قريبًا سأنتقم، لن تعيش طويلًا، وعبارات أخرى ترقى لمستوى تهديد محتمَل.

بدأت شجارًا مفتعَلًا ما بين خلايا عقلي وكلمات الرسالة الأخيرة، حروف خُطت بقلم حبر جاف تركت مكانها على الصفحة وبدأت تدور حول رأسي مثل أقمار تدور حول كوكب، الرسالة رقم 7، التي بدأ يستغني فيها عن الاقتباسات لصالح المزيد من التوضيح.

والدي العزيز... البداية نفسها شأنها شأن بقية أخواتها، لكن الأخوات كن ألطف لسانًا، لأن العبارة التالية كانت:

«أحيانًا يخطر لي أن أشوي قلبك على نار هادئة... ظالم مثلك لا يستحق مكانًا بين الأحياء، لكن الموت فيه راحة لك، فما عساي أن أفعل إذًا؟ أقتلك؟ أم أقتل نفسي؟ لكن أنا ميت أصلًا، مخلوق بلا روح، ماذا عساي أفعل؟ إخوتي الذين ينتظرون موتك بفارغ الصبر ليرثوا منك وأنت ميت ما لم ولن يحصلوا عليه وأنت على قيد الحياة، ما فائدة حياتك إذًا؟ هل أقتلك؟ أم يجدر بي أن أقتل أحد أولادك؟ أتدري يا أبي؟ بينما أفكر الآن في الأمر، ربما كان هذا هو أفضل حل، أن يموت أحد أولادك، ولتطِب لك الحياة بعدها إن شئت. افتح عينيك جيدًا، وراقبني وأنا أنزع الروح من جسد أحد أولادك».

قوطعتُ بحفيف خافت، رسالة أخرى ظهرت من تحت الباب مثل صراف آلي يخرِج ورقة نقدية، تركت السرير الوثير ومشيت على أطراف أصابعي حتى وصلت إلى الباب، فتحته بهدوء لص ثم رميت بصري بأرجاء الممر يمنة ويسرة، لا أثر لأي كائن كان، حيًّا أم شبحًا.

الورقة كانت مطوية على الأرض، حملتها بحرص عالم آثار تعثر في مخطوطة هيروغليفية، لكني لم أكن بحاجة إلى عدسة مكبرة أو معجم، رسالة مكتوبة بالخط نفسه الذي كُتبت به بقية الرسائل، نوع الورق نفسه بل وأكاد أجزم أنه الحبر ذاته، في الوقت الذي كنت أفكر فيه في ميت يسعى إلى انتقام مجهول كان هناك حي يتسلل من تحت ثقب الباب دون أن أراه.

تصفحت الرسالة سريعًا، بضعة أسطر فيها عتاب، وفيها ألم، وتنتهي بتهديد آخر بالقتل.

إذًا من هو الشبح الذي ترك لي الرسالة؟ هو شخص يعلم بوجودي سلفًا ولا أعلم بوجوده.

تركت الرسائل وشأنها بعد أن ملَّت عيني من تأمل حروفها، لا شيء مميز بين السطور، عتاب تهديدي قد يصدق أو يخيب، وغالبًا ما سيخيب. استلقيت على السرير بكل ثقلي دون أن تزعق زمبركاته، فكرت كم أن الهدوء نعمة تثير حسد من التصقت الضوضاء بأذنه، هدوء لم يكن يعتادني ولا كنت أعتاده،

لهذا سرحت أكثر من مرة، وفي النهاية شغَّلت شاشة مايكرو ليد بحجم 80 إنشًا تلتصق بالجدار مثل نافذة، لوحت بأصابعي في الأثير مقلِّبًا القنوات حتى استقر رأيي على مسلسل عرض في رمضان الفائت يظهر فيه ممثل عجوز طاعن في السن يُدعى يوسف الشريف يحارب مخلوقات فضائية فوق سطح المريخ، فكرت أن قليلًا من الدراما الإضافية لن تضر أحدًا، لذا رفعت الصوت، ولكني تركت الممثلين يتشاجرون فيما بينهم باستخدام أشعة الليزر وبدأت أبدي انتباهًا أكثر لعالم يدور من حولي منفقًا هباته ببذخ دون أن أكون طرفًا فيها، لم أكن لأتذوق طعم الأرق لو كنت أعيش في مكان مثل هذا، تساءلت عما يشعر به من يغمض عينيه تحت هذا السقف، ثم بدأ الكسل يستوعب الفكرة وتسلل سريعًا ليعطِّل سير أفكاري حتى حين.

سأريح عيني قليلًا إذًا، عشر دقائق لن تقتل أحدًا...

- حضرة الضابط.

فتحت عيني سريعًا وقمت من مكاني فزعًا مثل موظف ضبطه مديره نائمًا فوق طاولة مكتبه، قلت نافيًا التهمة التي تعلقت بي مثل توءمين متلاصقين: «لقد كنت أريح عيني فقط».

- لست مهتمًّا بذلك؛ أنا لست رب عملك.

أطلقت زفيرًا استعنت به لأستعيد هيبة خطفتها غفوة، سألت بنبرة صارمة: «ماذا تريد؟».

قال بملامح جامدة وبعدم اكتراث في آنٍ واحد: «السيد طلب مني أن أخبرك بأن الغداء سيكون جاهزًا بعد ربع ساعة، وينتظر وجودك على المائدة لتلتقي بقية أفراد العائلة».

ثم أراني عرض أكتافه، لكني استوقفته باسمه الأول، فعاود النظر إليَّ.

- هل سيكون جميع أفراد العائلة موجودين على الغداء؟

- أجل، جميعهم هنا الآن.

- ومن منهم يعلم بوجودي؟

- السيد ذكر أنه سيستعين بمحقق خاص ليتحقق من أمر الرسائل، لذا أظن أن الجميع يعرف بأمرك.
- هل رأيت أي شخص يسير في ممر الضيوف؟
- لقد كنت منشغلًا في إعداد الغداء في المطبخ، إذا كان هناك من دخل إلى الغرف الخاصة بالضيوف فإني لم أرَه بالتأكيد. هل من خدمة أخرى؟

كان وجهه جامدًا طوال الوقت، يقف باستقامة ويداه خلف ظهره، تساءلت عما إذا سبق له أن عمل حارسًا أمام قصر باكنجهام، لهذا بدا الزي الذي يرتديه غير لائق تمامًا.

- أخبرني يا نديم، ما رأيك فيما يحدث؟
- رأيي في ماذا بالضبط؟
- الرسائل التي يتلقاها السيد الكبير، من تظن أنه المسؤول وراء ذلك؟
- لا أعرف، غالبًا هي مزحة.
- لكن السيد رسمي ينظر إلى الأمر بعين الجد.
- السيد يثق بحدسه جدًّا، كما أن كثرة الثرثرة والتهويل زادت من شكوكه، هل ترغب في شيء آخر؟

تركته يذهب إلى حال سبيله هذه المرة وأنا أفكر فيما إذا كنت أمام رجل بارد بالفطرة أم أنه يتظاهر بما لا يبدو عليه، لكن ثباته الانفعالي كان مثيرًا للإعجاب شأنه شأن مخدومه، تساءلت عما ستكون عليه الحال مع بقية أفراد العائلة.

تسحبت باتجاه الجاكيت وتأكدت من أن المغلف العزيز بأوراقه الخضراء ما زال في مكانه.

هاتفي يخلو من أي مكالمات فائتة، لا أحد يفتقد الضابط الذي أثار ضجة لفترة من الزمن ثم تلاشى عن الوجود، لكن الشيء الذي كان مثيرًا للاندهاش أكثر، هو أن الساعة كانت تحث الخطى نحو الخامسة.

الخامسة! وأنا في هذه الغرفة منذ ساعتين قضيت جلَّها نائمًا.

قمت من مكاني ودخلت الحمام المرفق بالغرفة، توضأت وصليت عصرًا حان ميعاده، لبست الجاكيت، حملت الرسالة والمغلف وغادرت الغرفة، مشيت فوق بلاط من رخام أملس تنعكس عليه الصور مثل مرايا صغيرة، وبينما كنت أستعد لأخطو إلى الردهة ظهرت الفتاة أمامي فجأة، وقفت مشدوهة في مكانها كأنها فوجئت برؤية شبح.

قلت بعفوية: «مساء الخير».

أومأَت ولم ترد، كانت سمراء وعيناها سوداوان واسعتان وشعرها قصير ويصل بالكاد إلى أعلى رقبتها، قدَّرت أنها في الرابعة عشرة من عمرها أو أقل، وحين تغلبتْ على ارتباكها سألتني: «هل أنت المحقق الذي استأجره جدي؟».

- لست محققًا خاصًّا، أنا رائد في المباحث الجنائية، وقد حضرت لكي أؤدي خدمة لجدك.

- آه، ظننت أنه سيدفع لك نقودًا لكي تحقق في أمر الرسائل.

حسنًا، حين ذكرَت الأمر بهذه الطريقة، هو دفع لي فعلًا، لكن أنا لم أكن على علم مسبق بذلك، كما أن الأمر يختلف تمامًا، فهو دفع لي لكنه لم يستأجرني، لكني تخليت عن محاولة إقناعها بالأمر حين لاحظتُ أن توضيح الفارق بين محقق خاص وبين ضابط مباحث يحقق في مسألة خاصة ويتلقى نقودًا مقابل ذلك سيكون صعبًا على عقل فتاة صغيرة مثلها، مع أن الفارق واضح جدًّا، عليَّ فقط أن أبحث عنه حين أختلي بنفسي لاحقًا.

قلت مغيِّرًا الموضوع: «هل أنت ابنة المرحوم فؤاد؟».

أومأت موافقة وقالت: «اسمي روبي».

- اسم جميل.

حل الصمت بعدها لثوانٍ، قبل أن أدرك أنها كانت تنتظر أن أعرِّف بنفسي. قلت مستدركًا: «اسمي عصام».

- أهلًا يا حضرة الضابط عصام، أنت أيضًا لديك اسم جميل.

- شكرًا لك. أخبريني، هل خرجتِ من المنزل هذا اليوم؟

- لا، بقيت في غرفتي معظم الوقت أتمرن على العزف، نحن الآن في العطلة الصيفية كما تعلم.

- آه، أنت موسيقية؟

- أحاول أن أكون.

أشارت إلى صف من السلالم الجانبية القريبة من الباب، التي تختلف عن السلالم الرئيسية في قلب الردهة الواسعة.

- غرفتي هناك في الأعلى، ولدي نافذة تطل على البوابة الخارجية، لقد رأيتك حين وصلت. سيارتك...

قاطعتها بغيظ مكتوم: «أعرف، سيارتي القديمة والقذرة التي يعلوها الغبار».

قالت وهي تخفي ضحكة: «كنت سأقول إن سيارتك لطيفة، ليست فارهة ولكنها عملية».

- آه، شكرًا على الإطراء. لدي سؤال لك.

- ستبدأ التحقيق معي، تفضل.

- لا، ليس كذلك، لدي سؤال واحد فقط، هل لديك فكرة عن الأشخاص الذين كانوا موجودين في الفيلا ولم يغادروا منذ الصباح؟

وضعت يدها الصغيرة على ذقنها متفكرة.

- لست متأكدة تمامًا، يمكن أن أقول إن جدي لم يخرج قط، بسمة خرجت منذ الصباح الباكر، عادت لدقائق ثم غادرت مجددًا، سامية زوجة عمي كمال وطفلاها الصغيران ذهبوا إلى نادي السباحة وعادوا قبل بضع ساعات، عمي علاء قضى ليلته في الخارج وعاد قبل ساعة وذهب إلى غرفته فورًا، عمي كمال وابنه الأكبر رامي كانا في الشركة وقد رجعا للتو، وتعرف طبعًا أن عمي بهجت هو الوحيد الذي لا يسكن معنا هنا.

لم أكن أعرف ذلك، سألت: «لماذا؟».

- لقد تشاجر مع جدي وغادر القصر منذ وقت طويل، عمي بهجت أحب زميلته في الجامعة وتزوجها، لكن جدي لم يكن راضيًا عن هذا الزواج،

رامي أخبرني أن جدي هدده بأن يحرمه من الميراث ما لم يطلق رنا، وعمي بهجت رفض ذلك، وقد قاطعه جدي لسنوات، ولم تتحسن علاقتهما إلا بعد وفاة والدي، دائمًا ما يظهر في القصر ويستجدي المال من أعمامي.

- ماذا عن والدك؟ لا بد أن رحيله كان خبرًا مفجعًا بالنسبة إليك.

قالت ببساطة: «الله يرحمه، بابا عانى كثيرًا في حياته أيضًا مثل عمي بهجت وعمي علاء، لكنه اختار هذه النهاية لنفسه على أي حال».

تنبهت حواسي كأن منبهًا دق في عقلي للتو.

- ماذا تقصدين؟!

- أقصد أنه اختار أن يموت بهذه الطريقة.

- بنوبة قلبية؟

- لا، بابا لم يمت جرَّاء نوبة قلبية، جدي هو من طلب من الضابط المسؤول أن يبقي هذه المعلومة سرًّا، الحقيقة هي أن والدي قد انتحر.

- انتحر؟

قوطع كلانا بصوت جاء من خلف ظهري، حيث كان نديم يقف منتصبًا.

- المائدة جاهزة يا سيدي، السيد الكبير في انتظارك.

نظرت باتجاه الرجل الذي يملك مهارة في التسلل الصامت بما يعادل ثلاثة أنواع من المفترسات معًا.

- شكرًا لك، سأحضر حالًا.

نديم تركنا ومضى باتجاه المطبخ، بينما مشيت باتجاه الصالة برفقة روبي دون أن يتكلم أيٌّ منا، فكرت في أن انتحار والدها يمكن أن يفسِّر الكثير من الأشياء مثلما يمكن أن يزيدها تعقيدًا، هل كانت الرسائل تلوم العجوز على موته؟ هل رفض رسمي زواج فؤاد مثلما رفض زواج بهجت؟ ولماذا ذكرت لي الفتاة أن عمها علاء يعاني مثلما عانى والدها؟

أسئلة كثيرة تنهمر في خلايا رأسي مثل مطر فوق أدغال استوائية، فكرة ترتمي في أحضان فكرة. قاطعت روبي شرودي قائلة بصوت هامس: «العائلة كلها هنا، لقد حرص جدي على أن يكون الجميع موجودين».

من أجل مجموعة رسائل قد لا تعني أي شيء، ما زلت أعتقد جديًّا أن العجوز قد بالغ كثيرًا.

- ماذا عنك؟ ما رأيك فيما يحدث؟

- أرى أن هناك من قرر إقحام والدي في أمر لا علاقة له به، ربما كان والدي يحمل ضغينة حيال جدي، لكنه غير مسؤول عن ذلك.

توقفت عن المشي، البنت كانت أعقل بكثير مما تبدو.

- من الذي سيفعل ذلك؟ ولماذا؟

لكنها هزت كتفيها النحيفتين عجزًا وقالت: «لو كنت أعلم لما كنا بحاجة إلى خدمات محقق خاص».

فكرت في أنها محقة، فعلًا، تخاريف قوم عند قوم فوائد.

3

كانوا متحلقين حول الطاولة المستطيلة، وفوق رؤوسهم سحابة تمطر علامات استفهام وتعجب، البنت تركتني وذهبت لتجلس على مقعد في المنتصف بجانب بسمة التي رمقتني بابتسامة ترحيب أثلجت صدري، جلست على الجانب المقابل للعجوز، بعيدًا عنه بمسافة لا تقل عن أربعة أمتار، بينما بدت بقية المقاعد مثل أذرع الحريشة.

قال العجوز معرِّفًا: «الرائد عصام عبد الستار، ضابط المباحث الذي حدثتكم عنه».

لم يتكلم أيٌّ منهم، لكني تلقيت ابتسامتين من الفتاتين اللتين سبق والتقيتهما، تولى رسمي مهمة التعريف. فتحت عيني انتباهًا وأنا أرسم أشكالًا في ذهني. كمال يملك عينين شبيهتين بعينَي والده وبشرة ملساء تجعله أصغر بعشر سنوات على الأقل، نحافة علاء تتناقض مع استدارة كرشه، وعيناه تشعان احمرارًا كأن شعيراته الدموية قررت أن تترك بقية جسده وتتجمع في مقلتيه. رامي ابن كمال قوامه رشيق ولديه لحية مثل مثلث مقلوب تناسب وجهه المستطيل. أخواه الأصغر سنًّا مشروع جشع ما زال في طور النمو. زوجة بهجت تبدو أكثر ثقة من زوجها الذي كان يتلفت في حيرة وعلى وجهه ارتسمت علامات غباء ظهر جليًّا رغم أنف شهادته العلمية ونظارته الطبية الكلاسيكية التي قصد منها أن يظهر بهيئة شخص مثقف. سامية

زوجة كمال تبدو عليها سمات البساطة ملامحَ والأناقة لباسًا، زيها ينتمي إلى عصر إقطاعي وترتدي قفازين التصقا بيديها.

علاء تكفَّل بقطع حبل أفكاري الرفيع بلسان مثل مقص حاد. قال بنبرة جافة: «ما الذي يدور في رأس كبير العائلة الكريمة؟ تحضر شخصًا غريبًا لكي يجلس بيننا، وعلاوة على ذلك، رجل شرطة».

ردت عليه بسمة باستهجان مبهج: «وما المشكلة في أن يجلس معنا رجل شرطة؟».

إلا أنها كسرت ما جبَّرته في العبارة نفسها حين أردفت: «رجال الشرطة بشر مثلنا».

كنت على وشك أن أصفع نفسي، وأنا الذي توسمت فيها الذكاء، لكن علاء واصل احتجاجه وقد علا صوته أكثر: «بسمة، هل نسيتِ أني تعرضت للحبس مرتين من قبل؟».

أطلقتُ صفيرًا عاليًا، قلت بتعاطف مفتعَل، بينما أراقب حبل مشنقة وهميًّا يحيط برقبته: «الشرطة ألقتك في الحبس مرتين فقط؟».

قال مدافعًا عن نفسه: «زورًا وبهتانًا، السُّكر مباح ولا يُعاقب عليه القانون، وإلا فلماذا لا تغلق الحكومة البارات ونوادي الليل؟».

تدخلت بسمة مجددًا: «الشرطة أوقفتك بسبب القيادة المتهورة، كان يمكن أن تتسبب في إيذاء أشخاص أبرياء».

حضر نديم برفقة ثلاث خادمات آسيويات هادئات مثله، ولكن أكثرهن طولًا لا تصل إلى ارتفاع كتفه، وبدأن في توزيع أطباق الطعام على المائدة بخفة بهلوانات. ليس من التسرع أن أقول إني لم أتعرف على عدد من هذه الأصناف، بينما بسمة وعلاء مستمران في الجدال والبقية يكتفون بالمراقبة، كما لو كان هذا حدثًا عاديًّا قُتل تكرارًا، تعابير وجه العجوز بقيت هادئة وجامدة، كمال كان من تدخل لينهي الجدال، لكنه كان حريصًا أكثر على ألا يتسببوا في فضيحة مجلجلة أمام الرجل الغريب الذي نسيهم ونسي أجدادهم وأجداد أجدادهم بمجرد أن وضعت الخادمة طبق طعام أمامه.

لم أكن على لحم بطني فعليًّا، فقد سبق أن أشغلت أمعائي صباحًا بقطعة كرواسون يتيمة، لكنني كنت جائعًا، لذا فقد سميت بالله وأكلت بنهم وبكلتا يدي ضاربًا بقواعد الإتيكيت عرض الحائط الذي كان على مسافة بعيدة منا، حرصت على أن أتذوق كل ما كان على المائدة، وبعد عشر دقائق، اكتشفت أني الشخص الوحيد الذي كان لا يزال يأكل إلى جانب الولدين الشرهين، همبتي ودمبتي، فوجئت أن بينهما سنتين كاملتين، إذ بدوَا لي مثل توءمين.

تحركت أقدام إلى المغسلة وعادت، واشتعلت سجائر وصُبت أقداح قهوة وكؤوس عصائر، وبدأ العجوز يكلم أولاده عن أهمية وجودي ويجدد قناعته السابقة عن مدى خطورة التهديد، كرر علاء احتجاجه بأن وجودي ليس له أي داعٍ، وأصرت بسمة على العكس تشفيًا، رمقتها بطرف عين بينما كان نصف القريدس داخل فمي والنصف الآخر خارجه، لم يلهني الطعام عن رؤية الحقائق، لقد كانت منزعجة من وجودي هنا بقدرهم جميعًا، لكنها كانت تستمتع جدًّا بإغاظة أخيها الأكبر الذي كان الحنق قد بلغ منه مداه، تخيلت وجهه وهو ينتفخ مثل بالون، ثم وهو ينفجر وقد تناثرت دماؤه على ملابس الجميع الفارهة.

رنا زوجة بهجت رمقت حماها باستياء، اعتقدتُ أن وجودي هو السبب، ثم أدركتُ أني كنت مخطئًا حين قال بهجت لوالده مبتلعًا تردده: «أنا خائب الظن جدًّا، لقد ظننت أنك أردت رؤيتنا أنا ورنا لتعوِّضنا عن القطيعة...».

قاطعه علاء بازدراء: «لو كنتَ تهتم حقًّا لما ركضتَ لتتزوج أول فتاة تصادفها في طريقك لمجرد إغاظة والدك».

سمعت شهقتين، وضحكة خافتة تغطيها كف يد، تكلمت رنا لأول مرة وخاطبت زوجها غاضبة: «لماذا أحضرتني إلى هنا؟».

ساد هرج ومرج، بطريقة ما تمكن بهجت وبسمة من إقناع رنا بعدم المغادرة، اعتذر علاء، لكنه أكد على أن الاعتذار موجَّه لرنا حصرًا وليس لبهجت، والأخير تجاهل شقيقه الأكبر وحوَّل بوصلة استيائه نحو والده الذي اكتفى بالمراقبة مثل أبي الهول بين مجموعة من الأهرامات المتناطحة، حتى الطفلان كانا يتعاركان على ورك طائر من نوع ما، روبي راقبت المشهد

باستمتاع كأنها تشاهد مسرحية، وأنا انشغلت بالأكل وبالنظر إلى رؤوس فارت منها براكين وأخرى خرجت منها رعود وصواعق. رامي ابن كمال الأكبر كان هو الأقرب لي، وشعر بأن عليه أن يوضِّح للشرطي الغريب أنه في منزلة أرفع مما يحدث، قال لي بطريقة لا مبالية: «هذا الشجار يتكرر دائمًا كلما اجتمعوا على مائدة واحدة، لكن جدي لا يتعلم أبدًا».

سألت ماضغًا طعامًا وكلامًا: «ما السبب في رأيك؟».

أجاب بلهجة الراوي العليم: «المال، كلهم يسعون وراء أموال جدي، جميعهم بلا استثناء».

أمَّنتُ على كلامه بإيماءة، فتش عن المال دائمًا. راقبت والده وهو يقول مستخدمًا كلام العقل للمرة الثانية: «هل يمكن أن نهدأ قليلًا ونتناقش بطريقة متحضرة؟».

قال علاء وهو يغادر مقعده: «لن أضيِّع المزيد من الوقت هنا».

قال العجوز: «لن يغادر أحد المكان حتى أسمح له بذلك».

الخادمة انتهت من جمع الأطباق بما فيها طبق الولدين الصغيرين، دفعت عربتها بجانبي ثم وقفت تنتظر، لكن هذا لم يتسبب في إحباطي ولو بقدر يسير، تناولتُ قطعة القريدس التالية وبدأتُ في قضمها من جهة الرأس، مقرمشة ومطهوَّة بشكل جيد، ودهنها يذوب في الحلق سريعًا، هناك ما يجيد نديم القيام به إلى جانب التسلل من خلف ظهور الناس.

بقي اللغط قائمًا وقد تجددت مواضيعه وتنوعت، والعجوز كأنه في خبر كان، وأنا كنت قد بدأت أشعر بالشبع لكني عجزت عن إيقاف أسناني، كنت جائعًا كما لو أني انتهيت من عبور المحيط الأطلسي للتو، ثم وفي لمحة بصر، قرر الكبير أخيرًا أن ينهي المهزلة، خبط على الطاولة بعصاه المذهبة وتكلم بنبرة حازمة، صارمة، لا تقبل أي جدل.

- لن أسمع المزيد من الكلام حول هذا الموضوع، لن أنتظر حتى ينفِّذ شبح فؤاد تهديده، ستجلسون جميعًا هنا، وستتظاهرون بأنكم تصدِّقون العجوز المخرف وستسايرونه.

قال كمال: «لا يا أبي، نحن لا نشكّك في قدراتك العقلية مطلقًا، المسألة مجرد سوء فهم، هناك من يحاول إزعاجك...».

قاطعه العجوز: «قلتُ إني لن أقبل المزيد من الكلام حول هذا الأمر، بالإضافة إلى أني لم أحضر لكم أي ضابط شرطة، هذا الرجل هو الذي قتل الولد السفاح، ابن صفوت العربي».

ابتلعتُ آخر لقمة سريعًا كما لو كنت أداري على فضيحتي تزامنًا مع توجه أنظار الجميع إليَّ، لحظة صمت تخللتها نظرات بأحجام وأشكال مختلفة. سألت بسمة: «أنت الضابط الذي قتل ابن وزير الداخلية؟».

انتفش شعر صدري تلقائيًّا دون أن أطلب ذلك، وأومأتُ بالإيجاب.

قال علاء وهو ينخر مثل حيوان بري يجرب الضحك لأول مرة: «أنت، صاحب السيارة القذرة التي في الخارج، قتلت ابن وزير الداخلية؟».

هذه المرة لم أشتم سمير سرًّا ولا علنًا لأني لم أفهم تمامًا الرابط بين الأمرين. قلت بنبرة متحدية: «نعم، هذه هي سيارتي، وأنا أرديت قاتلًا متسلسلًا، بغض النظر عن هويته أو منصب والده، يبدو لي أن الجميع ينسون هذا الأمر».

قالت بسمة بنبرة عفوية تقريبًا: «لقد طلبت من الخادمة أن تغسلها».

- هذا لطف منك.

قلتها وأنا سعيد لأن هذا الكابوس على وشك أن ينتهي.

قال كمال أخيرًا: «حسنًا يا أبي، كما تشاء، سنقوم بالأمر على طريقتك».

ثم تنقل ببصره ما بين علاء وبهجت ورنا وبسمة وروبي، الذين كانوا جميعهم جالسين في الصف المقابل من الطاولة، وقال: «المسؤول عن هذه الرسائل الغبية، أيًّا كانت هويته، أتمنى أن يتوقف عن ذلك».

قال علاء متهكمًا: «لماذا؟ دعنا نتسلى قليلًا، لا يحظى المرء بمثل هذه الإثارة كثيرًا في هذا البيت الميت، شريطة ألا يُعطى الأمر أكبر من حجمه».

سكت الجميع مجددًا حين عاود العجوز كلامه: «أنا كبير هذا البيت، لكن من الواضح أنكم نسيتم ذلك، ربما أني لم أحسن تربيتكم، وقد فات الأوان

الآن عليَّ إصلاح ذلك، ميراثكم ليس مضمونًا بعد، كل هذا الثراء الذي تنعمون به، يمكن أن يزول بكبسة زر واحدة، يمكنني أن أفكر في مئات الأماكن التي تحتاج إلى تبرعات، ولن أضطر إلى مغادرة هذا البيت حتى لأفعل ذلك، وكبداية، فقد قررت أن أزيد مبلغ التبرع الذي كنت قد أوصيت به مسبقًا، من عشرة إلى خمسين مليون دولار».

سمعتُ شهقة واحدة على الأقل، وثلاث تفاحات آدم تنتفخ وتعود إلى حجمها الطبيعي.

قال علاء أخيرًا وقد بدا أنه استعاد وعيًا كان غائبًا عنه: «هذه أموالك يا والدي وأنت حر في كيفية التصرف فيها».

أمَّنوا جميعًا بالموافقة، بدا كما لو كان المشهد قادمًا من عالم موازٍ، العائلة التي كانت غارقة في الفوضى قبل لحظات فقط استعادت نظامها، توقفت النيازك عن السقوط ونجت الديناصورات.

رامي التفت إليَّ مجددًا وقال: «ألم أقل لك؟ النقود ولا شيء غير ذلك».

قال العجوز بنبرة آمرة: «حضرة الضابط لديه مطلق الحرية والتصرف، أنتظر من الجميع أن يتعاونوا معه، هل هذا مفهوم؟».

أومأ الجميع موافقين، بما فيهم الولدان الصغيران، باستثناء رنا التي وقفت وهي تحمل حقيبتها كأن الوقت قد حان لكي تعلن عن نفسها.

- يمكنك أن تحكم أولادك وأحفادك كما تشاء، لكن هذا الكلام لا ينطبق عليَّ.

هذه المرة فشل بهجت في إيقافها، لكنه تبعها إلى الباب، شيَّعها العجوز بالقليل من الاكتراث، ثم قال، موجِّهًا كلامه لي هذه المرة: «هل اطلعتَ على الرسائل؟».

- بالتأكيد، هل تظن أني كنت نائمًا؟ لقد أمضيت كامل الوقت في مراجعتها حرفًا حرفًا.

التقت عيناي عينَي نديم الذي كان لا يزال يقف بالجوار مثل تمثال شمع، أشحت ببصري بعيدًا عنه، أخرجت مغلف الرسائل ووضعته على الطاولة التي

استعادت بريقها سريعًا كأنها لم تكن تحمل على ظهرها أطباقًا للتو، فكرت في أن وقت العمل قد حان الآن.

انتظرت حتى رجع بهجت دون زوجته وجلس على مقعده، ثم وقفت، وطرحت السؤال بأسلوب أستاذ في فصل جامعي: «باستثناء رسمي بيك، ونديم رئيس الخدم، من هنا يعتقد أيضًا أن هذه الرسائل قد أُرسلت من قِبل المرحوم فؤاد؟».

قالت سامية: «روح فؤاد غاضبة، بإمكاني أن أشعر بوجودها في أرجاء البيت».

قال كمال: «سامية، هذا ليس وقت الأفكار الغريبة».

- هناك طاقة غريبة تسري في البيت، أنتم فقط تنكرون الأمر لأنكم لا ترغبون في تصديقه، روح فؤاد موجودة هنا بيننا.

تردد بهجت قليلًا، قبل أن يرفع يده. قلت: «سيد بهجت، نحن لسنا في فصل دراسي، يمكنك أن تتكلم من غير أن ترفع يدك».

- آه، حسنًا...

أنزل يده، ثم قال وهو ينظر إلى والده بطرف عين: «أنا أيضًا أظن أن فؤاد هو من يرسل الرسائل».

قال علاء وقد تفجرت معالم وجهه اندهاشًا: «هل أنت جاد؟ كلام مثل هذا يصدر من دكتور جامعي؟».

تجنب بهجت النظر باتجاه شقيقه الأكبر وقال بمنطق بسيط: «لديك مسألة نصفها غير منطقي، لكن نصفها الآخر منطقي تمامًا، لا يمكنك أن تنكر ذلك، الرسائل مكتوبة بخط يد المرحوم، هذا لا يقبل الشك، يمكن أن نمنح المسألة قدرًا متساويًا من الشك».

بالواسطة، فكرت بيني وبين نفسي، لا بد أنه حصل على شهادته العليا بالواسطة.

تدخلت روبي في المحادثة، قالت وهي تنظر إليَّ: «سيدي المحقق، لقد غيرتُ رأيي، أظن أن المرحوم والدي هو الذي يرسل الرسائل فعلًا، لكني غير قادرة على أن أشعر بوجوده في البيت».

قالت سامية: «أنتم بحاجة إلى أن تكونوا أكثر انفتاحًا على الأمر، طاقته الأثيرية تنتشر في أرجاء المكان، يمكنني أن أستشعر ذلك».

قال علاء بتهكم كالعادة: «هل يمكن أن نحصل على جوائز إذا صرحنا بذلك؟ هاه؟ لو قلت إن شبح فؤاد يحوم بيننا، هل سأصبح مقربًا أكثر من عائل الأسرة؟».

ثم وقف وقال لوالده: «لقد مللت من هذا الأمر برمته، دعوني خارج هذه المسألة».

استوقفتُه قبل أن يغادر: «سيد علاء».

نظر إليَّ بعينَي ذئب يشعر بالنعاس.

- متى وصلت إلى الفيلا اليوم؟
- ماذا؟ هل أنا مشتبه به أو شيء من هذا القبيل؟
- ما دمتَ لا تؤمن أن المرحوم فؤاد هو الذي يرسل الرسائل، إذًا فإنه وفقًا لاعتقادك، يوجد شخص آخر هو المسؤول عن ذلك، وهذا الشخص سيكون آدميًّا طبعًا، وهذا المرسِل واحد منكم، إذ يستحيل أن يتمكن شخص من الوصول إلى مكتب والدك ويترك الرسالة ثم يغادر دون أن يراه أحد، ما لم يكن شخصًا يسكن في البيت سلفًا، أو أن يكون شبحًا.

فكَّر قليلًا، ثم قال بنبرة جف ريقها غضبًا: «عدت في الثالثة والنصف، ثم ذهبت إلى غرفتي وبقيت فيها حتى موعد الغداء».

- ولم تقترب من غرف الضيوف مطلقًا؟
- بالتأكيد لا، لمَ كل هذه الأسئلة؟
- لأني ببساطة تلقيت الرسالة التالية.

عادوا ليحدقوا إليَّ، وقد اتسعت أعينهم حتى أصبحت أكبر حجمًا من رؤوسهم.

- بينما كنت منشغلًا في مراجعة الرسائل الأولى، دسَّ شخص مجهول الرسالة الجديدة أسفل الباب ولاذ بالفرار قبل أن أتمكن من رؤيته، الخط نفسه ونوع الورق نفسه.

قال العجوز متلهفًا: «ما الذي كُتب فيها؟».

تناولتُ الرسالة بينما كان علاء يعاود الجلوس على مقعده، وقرأتُ مقتطفات منها لا تعني أحدًا، قبل أن أختم بعبارة: «ربما كان هذا هو الحل الوحيد لأشفي غليل شخص تسببت في ضياعه، أن أحرق قلبك على أحد أولادك، حريق في مقابل حريق، قريبًا يشتعل الفتيل وتشعر بالفاجعة...».

أزحت الرسالة عن وجهي سريعًا كأني لم أعد أطيق النظر إليها وقلت: «لنفترض أن المرحوم فؤاد هو الذي كتب هذه الرسالة أيضًا، ما الذي يُفترض أن يعنيه بذلك؟».

هذه المرة كان كمال هو من تكلم، قال وهو يترك مقعده: «ربما يجب أن توجه هذا السؤال إلى والدي».

لكن العجوز كان سارحًا في بلاد العجائب، خمنت أنه غادر إلى هناك وهو لا يزال في منتصف الرسالة، سأل كمال: «في أي ساعة تلقيت الرسالة؟».

لم تكن لدي فكرة، ازدردت لعابي وقفز الارتباك ليجلس على أكتافي، لكن وزنه كان خفيفًا لحسن الحظ، لأني تداركت الأمر.

- في وقت ما بين الثالثة والنصف والرابعة.

- أنا ورامي ذهبنا إلى الشركة قبل وصولك، وقد رجعنا إلى البيت في الساعة الرابعة والنصف، لم أصل إلى غرفتي ولم أبدِّل ثيابي حتى، لهذا يمكنك أن تستبعدنا من قائمتك.

قال بهجت سريعًا: «يمكنك أن تستبعدني أنا أيضًا، أنا لم أكن أعلم بوجودك قبل وقت الغداء، أنا ورنا بقينا جالسين في الصالة طوال الوقت».

قالت بسمة: «وأنا تلقيت اتصالًا هاتفيًّا وغادرت إلى وكالتي مجددًا لأستلم دفعة أقمشة تأخر موعدها، وعدت قبل دقائق فقط».

قالت سامية بعد أن لاحظت أن الأعين انتهت عندها تلقائيًّا: «أنا عدت مع الولدين في الواحدة والنصف ظهرًا، ذهبت بعدها إلى الغرفة لأستريح ولم أغادر إلا الآن».

قالت روبي وهي تخفي ضحكة بكف يد رقيقة وصغيرة: «أظن أني الوحيدة التي لا تمتلك حجة غياب جيدة».

لكني فكرت في أن أيًّا منهم لا يملك حجة غياب جيدة بغض النظر عما يعتقدونه، بالإضافة إلى أن هناك شبحًا في دائرة المشتبَه بهم، والأشباح لا تحتاج إلى حجة غياب.

العجوز خاطبني قائلًا: «هل يمكن أن أراك في مكتبي للحظة؟».

كانت هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها واقفًا على قدميه، أسد هرم ولكنه ما زال يتمتع بالمهابة، سار أمامي بخطوات ثابتة، وبدا في صحة بدنية جيدة ولا يحتاج إلى عكاز، اللهم إلا في حال كان بحاجة إلى أن يحطم رأس أحد معارضيه، انتظر حتى دلفت إلى الداخل ثم أغلق الباب بنفسه وقال: «أرني هذه الرسالة الأخيرة».

قرأ الرسالة بصمت، عيناه حل فيهما لمعان رطب مثل سراب في صحراء، الدموع بعيدة وقريبة في آن واحد، طوى الرسالة ثم قال: «لماذا وصلت هذه الرسالة إليك وليست إليَّ؟».

قلت مستنتجًا: «لأن مرسلها، أيًّا كان، عرف أني أصبحت جزءًا من هذا الأمر، هذه طريقته ليخبرني أن وجودي لا يقلقه البتة، وأنه لا يزال المسيطر، أو ربما أن الأمر لا يتعدى أن يكون مجرد لعبة بالنسبة إليه».

- أتمنى لو أن الأمر مجرد لعبة، لكن حدسي نادرًا ما يخطئ للأسف.
- هل كان الجميع على علم بأني سأحضر إلى الفيلا اليوم؟

أومأ موافقًا، جلس خلف طاولة مكتب كبيرة حجمًا تليق برجل كبير مقامًا ودعاني للجلوس على كرسي من خشب الأبانوس له مسند شبيه بمزهرية تتوهم أن فيها ورودًا، ومن فوقنا ثريا بقطر نصف متر يشع منها نور أبيض سقط على وجهه كشلال كاشفًا ما خفي من تجاعيده الدقيقة.

- أظن أنك تتساءل، كيف لشخص مثلي أن يصدق أن شبح ابنه الميت عاد إلى الحياة مهدِّدًا بالانتقام؟

- فقط في حال أردت أن تخبرني بالأمر من تلقاء نفسك.

رسم على وجهه شبه ابتسامة، ظهرت التجاعيد من أحد الجانبين واختفت من الجانب الآخر.

- حسنًا، إليك الحقيقة، أنا لا أومن بذلك البتة، لكن هناك شخصًا يريد مني أن أصدق ذلك، شخصًا يريد أن أفقد عقلي، المشكلة هي أني أرغب في تصديق ذلك بشدة، مع أن الأمر يخالف كل معتقداتي، فأنا لا أومن بالروحانيات مطلقًا، والأشخاص الذين فقدتهم في حياتي ظلوا موتى ولم يظهروا مجددًا قط.

- هل لديك أي شكوك محددة؟

- لا، لكن من جهة أخرى، حدسي يقول لي إن فؤاد سينفِّذ انتقامه لا محالة، لكن بيد شخص آخر، هذا الهاجس لا يفارقني أبدًا، شخص من أفراد أسرتي قرر أن يرتدي عباءة ابني الميت، وفي حال صدقت شكوكي، حينها سيكون لزامًا عليَّ أن أتصرف لأنقذ ما يمكن إنقاذه، لأقلل من خسائري بالأحرى مثلما اعتدت أن أفعل دومًا فيما يتعلق بشؤون أسرتي، الأمر يتعلق بالتوازن، حماية الأشخاص الذين أرغب في حمايتهم من جهة، وتجنب معاقبة الأشخاص الذين لا أرغب في أن يعاقَبوا من جهة أخرى، هل تفهم ما أرمي إليه؟

لم أكن أفهم تمامًا ولكني كنت ماهرًا في ادعاء الفهم، بينما تابع كلامه: «قد أبدو قاسيًا على أبنائي ولا أتسامح مع من يعصي أوامري منهم، لكني أهتم لأمرهم كثيرًا، لدرجة أني على استعداد لأن أفعل أي شيء في سبيل إبعاد الأذى عنهم، سواء الصالح منهم أو الطالح، هل تفهم ما أقول؟».

- أظن ذلك، أجل.

تنهد بارتياح وأمال رأسه إلى الوراء قليلًا حتى اعتقدت أنه على وشك أن يستسلم للنوم أو للموت، أيهما أقرب، لكنه سأل على حين غفلة مني: «ما رأيك الآن بعد أن قابلت أفراد عائلتي؟».

عائلته الكريمة بدت مثل أفراد قبيلة بدائية يؤدون رقصة حول كومة حطب محترقة، لكن السيد الكبير كان يملك كلمة السر، قلت متجنبًا إبداء رأي صريح: «ما زلت بحاجة إلى أن أتكلم معهم أكثر حتى أحدد هوية المرسِل».

- لا، دعك من هذا الآن، هناك ما هو أهم، قل لي، من منهم يصلح لأن يكون قاتلًا؟ ومن يصلح لأن يكون ضحية؟ ومن منهم يسعى ليدفعني إلى الجنون؟

سؤال تحتاج إجابته إلى الكثير من الهرش، لكني قلت: «في هذه اللحظة، جميعهم متساوون بالنسبة إليَّ، كل فرد منهم يمكن أن يكون قاتلًا بالقدر نفسه الذي يمكن أن يكون فيه ضحية».

- هل يمكن أن توضح لي أكثر؟

- علاء، أكبر أولادك، ليس من الصعب أن أدرك أنه يدمن الحبوب المخدِّرة ولديه نزعة عدوانية ويميل إلى الغضب، الغضب والمخدرات يمكن أن يشكلا خليطًا مناسبًا لشخص يسعى لارتكاب جريمة قتل حتى وإن لم يكن يقصد ذلك في عقله الواعي، ثم لديك كمال، ابنك الأوسط، يملك على الأقل صفتين من صفات الشخص السايكوباثي، يبدو شخصًا هادئًا ومتوازنًا للوهلة الأولى، لكن المشكلة هي أنه أهدأ بكثير مما يجب، والسبب هو أنه يتصنع ذلك بينما يأكله الحقد والغيظ من الداخل، شخص ذكي وصبور، من السهل أن تلاحظ شرود ذهنه معظم الوقت، وذلك لأنه يخطط لخطوته التالية باستمرار، ما يميزه عن البقية هو أن بإمكانه أن يجعل حياة المحققين صعبة للغاية وسيكون من الصعب كشف ملابسات جريمته، يليه بهجت، ابنك الأصغر، قد يبدو شخصًا مسالمًا ولكنه في حقيقة الأمر شخص مهزوز ولا يتكيف جيدًا مع التغيير ويحاول أن يتجنب تحمل المسؤولية، آفته الكبرى هي حاجته الماسة إلى النقود، وهذه الحاجة تضعه تحت وطأة ضغط شديد قد يتعذر عليه احتماله، ربما يلجأ إلى ارتكاب جريمة لكي يتحرر من هذا الضغط، ثم هناك بسمة، قد تكون أقلهم اشتباهًا لكنها لا تزال قادرة على ارتكاب جريمة قتل، إذ قد تبدو فتاة طبيعية في الظاهر، لكنها

في داخلها تشعر بشيء من عدم الأمان، وهذا الشعور يجعلها متأهبة للدفاع عن نفسها أمام أي خطر يمكنها أن تتخيل وجوده، بالإضافة إلى أنها تشعر في داخلها بالغيرة من بقية أشقائها لسبب لا أفهمه حقًّا، مع أنها تخفي ذلك بمهارة.

هز العجوز رأسه دون أن يبدي الكثير من الرضا، كأني خيبت ظنه بكل طريقة ممكنة. قال: «ما زالت هذه مجرد تخمينات نظرية، أنا بحاجة إلى ما هو أكثر من ذلك».

- وهناك أنت أيضًا يا سيدي.

قال متعجبًا: «هل ترى أني قادر على القتل؟!».

رجل يفتقد للتعاطف ومصاب بجنون العظمة وحب السيطرة ويتعامل مع أولاده كإله وليس كأب، كما لو كانوا قوالب يسعى لتشكيلها بما يرضي رغباته، مرشح مثالي لارتكاب جريمة قتل، لكني لم أقل أيًّا من هذه الأشياء بالطبع، من الأسلم أن يحفظ المرء لسانه في بعض المواقف خوفًا من أن تطير المصلحة من يده وتذهب إلى يد محظوظ غيره، اكتفيت فقط بذكر الشق الآمن من العبارة: «بالطبع لن تقدِم على ارتكاب جريمة بيدك، لكنك بكل بساطة ستأمر نديم بذلك، وهو لن يتوانى عن القيام بأي شيء تطلبه منه».

وضع يده على ذقنه مطرقًا، ثم قال: «ما زال كلامك لا يغني ولا يسمن، على أي حال، هوية القاتل لن تكون مهمة إذا تمكنا من منع الجريمة، فكرت في أن إحضارك إلى هنا قد يخيفه ويتسبب في ردعه».

- تبدو متأكدًا جدًّا من حدوث جريمة يا سيدي، مع أن هذا احتمال بعيد المنال، الرسائل قد لا تعني أي شيء.

- فؤاد قال في رسالته إنه سيقتل أحد إخوته، وأنا أصدِّقه.

كلام غير مقنع بتاتًا، لكن من أنا لأتدخل بين العجوز وتخاريف دماغه التي علقت في مكان ما بين التصديق والتكذيب؟ وفي النهاية فإن من لديه قرش يحيِّره يشتري حمامًا ويطيِّره، وقد صادف أن تكون جيوبي أحد الأعشاش التي استقر بها ذلك الحمام.

4

كان علاء في طريقه باتجاه السلالم ووقف حين رآني، رمقني بنظرة تحدٍّ لاقت مني قبولًا، مشيت باتجاهه مثل أسد متوج على عرش الذكورة وألقيت تحية رئيس يجامل شعبًا، لكنه تجاهل كل ذلك وقال متهكمًا: «أرى أنك مرتاح كما لو كنت في بيتك!».

تذكرت شقتي وقلت مداريًا حسرتي: «من السهل أن أشعر بأني في بيتي بعد ما لقيته من كرم ضيافة...».

قاطعني وقد ازداد مستوى الشراسة الذي يطل من عينه: «هل سبق ونصبت على أشخاص آخرين من قبل؟».

المفاجأة ألجمت ردودي العدائية واكتفيت برد بسيط لا يرقى لمستوى الحدث: «أنا لست نصابًا».

- ماذا تسمي وجودك هنا إذًا يا حضرة الضابط؟ تجاري العجوز في أوهامه بوجود خطر يهدد العائلة!

لم أرد عليه، ليس الأمر كما لو أن كرامتي كانت تندلق على الأرض للمرة الأولى هذا اليوم، سيارتي القذرة أدت الواجب وزيادة، بينما اقترب علاء مني وخاطبني بفم تفوح منه رائحة مركبات عضوية مؤكسدة: «نصيحة مني، ارضَ بما حصلت عليه وغادر المكان، لن تحصل من العجوز على مليم إضافي».

استعادت أفكاري هيبتها أخيرًا وسألت: «ربما يمكنك أن تساعدني لأغادر أسرع، أخبرني بهوية المرسِل المجهول ودعني أثبت للعجوز أن مخاوفه لا أساس لها من الصحة».

أطلق ضحكة عالية تسببت في جفاف صوته حين قال تاليًا: «ألم يخطر ببالك أن العجوز يتلاعب بك؟ أراهن على أنه يعرف هوية المرسِل جيدًا، ما لم يترك هو الرسائل لنفسه».

- لمَ عساه يفعل ذلك؟
- لكي يجد حجة يحضر بها شخصًا مثلك إلى هنا إمعانًا في إذلالنا، من يمكنه أن يحزر ما الذي يفكر فيه رسمي عناكب جل قدره؟
- وهل والدك هو من تسلل إلى جناح الضيوف وترك لي الرسالة الأخيرة؟
- لا، لكنك تعرف جيدًا من بإمكانه أن يفعل ذلك بسهولة.
- تقصد نديم؟

ازداد لمعان عينيه من خلف خيوط العنكبوت الحمراء التي غلفت جدارهما.

- والدك أجزل له العطاء.
- لن أستبعد أن يترك له جزءًا من ثروته، بل لا أستبعد أن يرسل لفؤاد نصيبه في الآخرة بينما يحرمنا نحن الأحياء منه، ولا أستبعد أن يتبرع بكامل ثروته لجمعيات الرفق بالحيوان، مهما فعلت لوالدي فإنه لا يكتفي أبدًا.

كنت على وشك أن أطرح عليه سؤالًا آخر، لولا أنه فقد اهتمامه بي فجأة، ومنحني ظهره كرد بليغ دون أن يتفوه بكلمة إضافية، راقبته يمضي في طريقه باتجاه السلالم المقوسة مثل ظهر أحدب، صعدها متعثرًا في خطواته بينما كنت أفكر في خطوتي التالية، التي مشت بي في ممر ظهر بين السلالم مثل نفق مرسوم بالألوان الطبيعية، انتهى بي المطاف إلى حيث يوجد مطبخ يسرح فيه الخيَّال، وبداخله كان نديم يقف وحيدًا مكتفيًا بذاته، بيده سكين لا يخفى لمعان نصلها على أحد وأمامه مكعب ثلج أمعن فيه طعنًا وتنكيلًا، وقفت صامتًا أترقب حتى توقف من تلقاء نفسه ونظر باتجاهي.

- هل أنت بحاجة إلى أي شيء؟
- لدي بعض الأسئلة فقط، هل تعمل في المطبخ وحدك؟
- بالتأكيد، السيد لا يثق بأن يطبخ أحد آخر طعامه.

تذكرت القريدسات التسعة التي كانت تُطحن داخل معدتي.

- أنت طباخ ماهر بالفعل، كيف اكتسبت هذه المهارة؟
- الطبخ بالنسبة إليَّ هواية أمارسها منذ الصغر، لقد درست فنون الطبخ بشكل احترافي ولدي شهادات من مراكز مرموقة ومنها معاهد أجنبية.

آه، إذا عُرف السبب بطل العجب، أخفيت اندهاشي تحت ستار من الانبهار.

- لا بد أن يدفع لك راتبًا محترمًا.

شعرت بالرثاء لجيوبي الفارغة بينما كنت أنطق بعبارتي الأخيرة، حتى لو كنتَ فذًّا ولامعًا وصاحب سجل مميَّز فأنت قابل للاستغناء عن خدماتك، بينما لا شيء ينافس طبقًا شهيًّا يترك أثرًا لذيذًا لا يُمحى من ذاكرة المعدة.

ترك نديم مكعب الثلج الذي كان حجمه أكبر من حجم الفريزر في ثلاجتي ومشى باتجاه الغاز الذي كان لهيبه منشغلًا بصفع مؤخرة غلاية فضية اللون بدأ ماؤها يبقبق معبرًا عن انزعاجه، كان هذا هو المظهر الوحيد تقريبًا الذي لمحت فيه شبهًا مما يحدث في مطبخي منذ أن دخلت إلى الفيلا، مهما تقدمت التكنولوجيا فإنه لا توجد طريقتان لصنع كوب قهوة جيد.

قال نديم بنبرته الخالية من أي تعابير يمكن التنبؤ بها: «أنا أتقاضى راتبًا عاليًا هنا نظير إخلاصي، لذا لست بحاجة إلى أن أبحث عن أي عمل آخر في الوقت الحالي».

أفهم الآن سبب هذه الثقة التي كان رسمي عناكب يوليها لطباخه الخاص، الذي كان ولاؤه للسيد الكبير أشبه بولاء حيوان الكسلان لسريره، لكن علاقة مثل هذه لا يُكتب لها أن تدوم، يمكن أن يكون رسمي عناكب سخيًّا مثل غيمة في يناير، لكن بإمكانه أيضًا أن يوقِف عطاياه في لمحة بصر، وحينها تختلف النيات بظهور دوافع جديدة.

رائحة القهوة داعبت أنفي، قهوة حقيقية، بن قادم من قلب أمريكا الجنوبية ليُطحن في مطبخ عناكب بواسطة ماكينة مستوردة ومكسوة بالكروم والستانلس، كنت على وشك أن أسأله عن ثمن اقتناء واحدة مثلها لكني خشيت من الصدمة، راقبت نديم وهو يفرغ محتويات الماكينة داخل علبة من الكريستال، بينما على النار بدأ ماء الغلاية يعبِّر عن امتعاضه مبقبقًا، وبجانبه كوب خزفي تملؤه القبلات وقلوب الحب الحمراء، جال بصري سريعًا في أرجاء المطبخ ليقف عند آلة لصنع الثلج، ذلك الاختراع الذي كان مهمَلًا لفترة طويلة قبل أن يتدخل خبراء التسويق لممارسة ألاعيبهم، ما بين ظاهرة احتباس حراري قررت أن تحجز حرياتنا قسرًا تحت أجهزة التكييف، وشمس تسعى لقياس درجة غليان الدماغ البشري قبل أن يصل إلى مرحلة التفجير الذاتي، لهذا فإن وجود ماكينة تصنع الثلج في بيتك ستكون أداة لا غنى عنها لحماية مخك من التفتت.

- لماذا تضطر إلى تقطيع مكعب الثلج بنفسك ما دامت لديك آلة لصنع الثلج؟

- مسننات التقطيع تلفت منذ فترة، لهذا أضطر إلى تقطيعها يدويًّا.

آه، إذًا هذه لم تكن حجة واهية للإمساك بسكين أصلية يمكنها أن تفرق جمجمة رجل إلى نصفين، سكين كهذه في يد شخص قوي مثله، الاحتمالات لا حصر لها.

- بالمناسبة، رائحة البن شهية جدًّا، هل هذا النوع المستخرَج من روث الأفيال؟

- روث الأفيال؟ لا يا سيدي، هذا بن خاص، من النوع الذي تفضِّله السيدة بسمة.

فهمت الآن سر وجود كوب يمتلئ بالقلوب، بينما سألني أخيرًا، بعدما كاد حلقي أن يجف مللًا: «هل ترغب في أن أعد لك كوبًا مثله؟».

قلت مفتعلًا تلقائية لا أملكها: «لا بأس، ما دمتَ مصرًّا، سأشرب واحدًا. أين هي الآنسة بسمة الآن؟».

- تجلس بالقرب من البركة.

- سأذهب لأوجه لها بعض الأسئلة، أحضر لي القهوة هناك.

- هل ترغب في أن أضيف لها...

قاطعته، وبغضب هذه المرة: «مثلما تشربها الآنسة بسمة تمامًا».

المطبخ في الطابق الأرضي، يمكن الوصول إليه من ممر في نهاية الردهة الرئيسية، لكن أيضًا يمكن الوصول إليه من ممر خلفي متصل بسلالم جانبية تصل إلى الطابق الثاني، ممر يطل على الحديقة الخلفية، باب أبيض صغير ومفتوح تنفذ منه الشمس وروائح ياسمين وزنبق وليلك ومتفرقات عطرية أخرى، وبجانبه سلالم جانبية صغيرة تذهب إلى الغرف العلوية، يمكن لفيل أن يأتي من الخارج أو ينزل من السلالم ويدلف إلى المطبخ دون أن يشعر به أحد شريطة أن يمشي بخفة نملة.

خطوت على ممر مرصوف بالحصى، وعبرت مساحة فيها عشب ندي وأزهار ملونة، فاحت رائحة الكلور مع نسمة باهتة، وخاب ظني حين لمحت بسمة بالملابس نفسها التي كانت ترتديها على الغداء دون نقصان، اختفت ابتسامتها تحت أشعة حمراء ساطعة أطلقتها الشمس كتحية وداع لهذا اليوم الغريب، رحبت بي على غير ما توقعت وقالت: «هل أعجبتك وصلة الغداء المسلية؟».

قلت وأنا أستلقي على الكرسي المجاور لها مثل صديق قديم: «كل العائلات تعاني مشكلات، سبق أن شهدت ما هو أسوأ، على الأقل ليس لديكم قاتل متسلسل في العائلة».

ضحكت وقالت: «أنت محق، نسيت أنك قتلت ابن وزير السنة الفائتة».

كررت موضحًا للمرة الألف في حياتي البائسة: «قتلت سفاحًا، رجل يمتهن قتل النساء، لست فخورًا بذلك حقًا ولكنه عمل مبرَّر».

مالت باتجاهي جِذعًا ووجهًا، ابتعدتْ عنها بقايا الشمس لتشرق أخرى غيرها، قالت وعيناها تبرقان فضولًا: «هل كنت أنت المحقق المسؤول عن قضية سفاح العاهرات؟».

- لم أكن المحقق الرئيسي، كنت أحد أفراد فريق التحقيق.

- لكنك تمكنت من العثور عليه وحدك؟

كل ما في الأمر هو أن المحقق الرئيسي أخفى الأدلة طمعًا في مساومة، لكني فتشت مكتبه وعثرت على تقرير الحمض النووي المطابق ثم تصرفت وحدي طمعًا في ترقية حُرمت منها لسوء التقدير والسلوك، لكني تغاضيت عن ذلك وقلت بدلًا منه: «صحيح، لقد عثرت عليه وحدي، راقبته حتى استدرج ضحيته التالية، ثم اقتحمت الشقة وأطلقت عليه النار لأنقذ حياة الفتاة».

- ولماذا ذهبت لتقبض عليه وحدك ولم تنتظر الدعم؟

سؤال جيد، فقد ذهبت إلى شقته التي تقع على قمة برج يعانق السحاب متسلحًا بالعنترية، كل هذا لمجرد أن أقول بعدها عبارة ما الذي تريده الشهرة مني، وها أنا الآن أدفع الثمن.

كذبت قائلًا: «لقد طلبت الدعم فعلًا، لكنهم تأخروا في الوصول».

- تبدو لي شخصًا لطيفًا، لا أستطيع أن أتخيل، أن بإمكانك أن تطلق النار على أحد.

أثلجت صدري مجددًا، بطلة موقعة الغداء العائلي، والتي تصدت بلسانها لتدافع عني أمام الهجمات التي شنها علاء على محقق الشرطة الأعزل، وإن كان دافعها الأول هو إغاظته وليس الدفاع عني. شردت في أحلامي قليلًا، فكرت في أنه، لمَ لا؟ طلقتُ بالأمس واليوم أنا متاح وليس عليَّ قضاء عدة، والثانية أثبت وأقوم، قلت بنبرة حالمة تقريبًا، وواقعية في عالم موازٍ يعيش فيه أشباه لنا: «هل يمكن أن أطرح عليك سؤالًا شخصيًّا؟».

لكنها اختصرت كل الأسئلة المؤدية إلى كل الأماكن الشخصية وغير الشخصية حين قالت: «أنا مرتبطة».

بنت اللعيبة، قطعت عليَّ الطريق قبل أن أبدأ حتى، لكن كيف عرفتْ؟ تساءلتُ إن كان سؤالي مكتوبًا على جبيني إلى جانب موعد وفاتي، تظاهرت بصدمة أقل بكثير مما شعرت بها، جالت عيني ما بين بنصر وبنصر بحثًا عن أي أثر لخاتم ولم أجد شيئًا، إذًا، ربما كان ارتباطًا غير رسمي أو وسيلة تهرُّب تقليدية، ليست مشكلة، هي ليست من النوع المفضل لي بأي حال، مجرد فتاة

ذات شعر أشقر ناعم وعينين زرقاوين وبشرة برونزية ملساء وشفتين بلون الفراولة وأنف بدقة...

- ماذا عنك؟

أفقت من شرودي وقلت: «ماذا عني؟».

- هل توجد السيدة عبد الستار؟

أنا استلمت صك التحرر من العبودية بالأمس فقط، لكني لم أستخدم هذا اللفظ، إذ ربما أكون جالسًا في حضرة فيمنست عريقة وتفح في وجهي بصفتي عنصريًّا رجعيًّا، قلت بعد أن أسقطت كل كلماتي المسيئة سهوًا من العبارة: «أنا وزوجتي منفصلان رسميًّا».

لم تشهق ولم تضع يدها على فمها مثلما تخيلت، ولم تقل من المجنونة التي يمكن أن تتخلى عن زوج مثلك ولا أيًّا من هذه الأشياء مثلما تخيلت في سري، بقيت تعابير وجهها عادية جدًّا كأن خبر طلاقي لا يهم العالم في شيء. سألتني ببساطة: «ما سبب هذا الانفصال؟».

- كنا معجبين ببعضنا ثم لم نعد كذلك.

- هل كانت جميلة؟

قلت بنبرة صادقة وإن بدت مفتعَلة: «زوجتي السابقة بكل مكياجها لا تقارَن بنصف جمالك الطبيعي».

ضاقت عيناها قليلًا لكن لم يخفت نورهما.

- هل تتحرش بي؟

لعنت المتحرشين الذين تسببوا في تلطيخ سمعة أصحاب الغزل الرقيق من أمثالي حتى تسببوا في نوع جديد من أنواع الفوبيات. قلت: «معاذ الله، المتحرش هو إنسان لم يكتمل نموه العقلي بعد، فبقي فيه شيء من الصفات الحيوانية بحيث لا يملك القدرة على أن يسيطر على غرائزه، هذا مجرد غزل بريء لا أقصد من ورائه سوى الإطراء والمديح».

- اممم، دعك من ذلك، لقد كنت أمازحك فقط، قل لي، ما الذي دفعك لأن تنتقل من مطاردة المجرمين والقتلة إلى البحث عن شخص يترك رسائل، غالبًا من باب التسلية؟

- لقد جئت إلى هنا بناء على طلب شخصي من مديري في العمل.

- المسألة لا تحتاج إلى تعيين محقق خاص.

- والدك لديه إحساس داخلي يقض مضجعه، يعتقد أن المسألة على قدر كبير من الأهمية، وتقدير ذلك مسألة نسبية تختلف من شخص إلى آخر.

- ربما، لكن الأمر خرج عن الحد، شبح ميت يكتب رسائل تهديد، هذا أمر غير عقلاني بالمرة، أنت قرأت الرسائل بنفسك، مجرد كلام فلسفي واقتباسات لكُتاب مشاهير، آخر ما يمكن أن أفكر فيه هو أن يكون في الأمر أي تهديد حقيقي.

أخرجتْ علبة السجائر والولاعة الفضية ذات الشكل الكلاسيكي، لم تعرض عليَّ سيجارة هذه المرة مع أني لم أكن سأرفضها.

- أتفق معك في هذا الأمر، لكن الرسالة الأخيرة التي عثر عليها والدك لم تكن فيها الكثير من الاقتباسات، والرسالة التي تُركت في غرفتي كذلك، هذا تهديد صريح بالقتل.

قالت بعد أن أشعلت السيجارة من المحاولة الثانية: «هل عرفت حكاية المرحوم فؤاد؟».

- ليس تمامًا، والدك لم يرغب في الحديث عن ذلك، كل ما أعرفه هو أنه مات بنوبة قلبية قبل سنة.

أطلقتْ تنهيدة، ونفثت دخانها باتجاه البركة الراكدة، ثم قالت بنبرة بدت غريبة: «لطالما كان والدي شخصًا متسلطًا، ظن أنه يتقن استخدام أسلوب الجزرة والعصا مع أولاده، لكن المبالغة أحيانًا تؤدي إلى نتائج سيئة، لقد رأيت بنفسك ما الذي أصبحنا عليه، أنت تنظر إلى هذا البيت الكبير، والسيارات الحديثة التي تصطف أمام الباب، العقارات والأرصدة البنكية وعدد

من الشركات، تظن أننا نعيش في عالم نُحسد عليه، لكن الحقيقة هي غير ذلك تمامًا، لقد عانينا كثيرًا بسبب سياسة والدي».

جاءت خادمة فلبينية ووضعت أمامنا كوبين من القهوة ثم انصرفت من حيث أتت، بينما كنت أقول: «مع أني أرى أنك تسيِّرين أمورك بشكل جيد».

أخذتْ سحبة أخرى أكبر من سابقتها ثم قالت: «حين كنت طالبة جامعية، أراد زميل لي أن يتقدم لخطبتي وأنا وافقت، لكن والدي دفع له نقودًا لكي ينفصل عني، ثم جعلني أرى ذلك بنفسي».

- ربما أراد أن يكشف لك حقيقته.
- لقد فعلها ثلاث مرات.
- آه.
- في كل مرة يتقدم لي خطيب، فإنه يفعل الشيء نفسه، وكلما أراد إجباري على الزواج بأشخاص يختارهم لي هو، بقيت أصر على الرفض.

شردت بأفكاري بعيدًا، تخيلت أن أكون أنا حبيبها القادم، ووالدها يعرض عليَّ مبلغًا مقابل أن أتخلى عنها، تساءلت عن ماهية المبلغ الذي يمكن أن أظفر به، ربما أحصل على شقة تمليك في أحد أبراجهم الجديدة، أنا وضيع وسيدفع العجوز أي مبلغ ليتخلص مني، الرجل الذي يخاطب وزير الداخلية ومدير المباحث الجنائية باسمه الأول مجردًا من أي ألقاب.

أفقت من شرودي حين قالت: «أخبرني إذًا، ما الذي توصلت إليه في تحرياتك؟».

ابتسمت مثل حيوان الكوكا، اضطجعت على المقعد بخيلاء وأنا أتناول كوب القهوة لأرتشف منه قبل أن يبرد، ثم قلت مستنتجًا: «هل لدى المرحوم فؤاد حكاية مشابهة لحكايتك؟».

- تقريبًا، باستثناء أني ما زلت على قيد الحياة وهو ميت.

أطلقتْ سراح تنهيدة ارتعشت لها رموشها وأردفت: «فؤاد هو الثالث في الترتيب بعد علاء وكمال، كان شخصًا هادئًا ولطيفًا، لكن هدوءه أخفى في

طياته تمردًا جارفًا، بدأت أولى بوادره حين عارض والدي الذي أراد منه أن يدرس في كلية الأعمال وفضَّل هو أن يدرس الآداب، لكن عصيانه الأكبر كان حين عارض والدي وآثر أن يتزوج بإسراء زميلته في الدراسة، والدي هدد وتوعد كالعادة بطرده من الجنة، لكن فؤاد لم يعبأ بذلك، تزوج رغمًا عن والدي وأقام حفل زفاف صغيرًا مع أهل زوجته، ثم سافر معها إلى الخليج حيث عمل كلاهما في التدريس وأنجبا طفلتهما الجميلة، كان قادرًا على تدبر أمره بعيدًا عن أعين وأذرع والدي، لكن سعادته هذه لم يُكتب لها أن تكتمل، إسراء أُصيبت بسرطان البنكرياس، أحد أنواع السرطانات التي لم يُعثر له على علاج بعد، فؤاد لم يستسلم مع ذلك وعرضها على أفضل المستشفيات المتخصصة في الخليج والوطن العربي، لكن محاولات علاجها استنفدت كل قدراته المادية، حينها نصحه أحد الأطباء بأن يأخذها إلى الولايات المتحدة حيث توجد بوادر لتجارب ناجحة جدًّا باستخدام تقنية أكثر تطورًا لتحفيز الخلايا التائية المعدَّلة وراثيًّا، لكن السفر وتكاليف العلاج قد أصبحت الآن فوق قدرته، عاد بإسراء وروبي إلى مصر وطلب نقودًا من والدي الذي لم يتأثر بتوسلاته، بل إنه حظر على كمال أن يمد له يد العون، كان لدى والدي طلب بسيط فقط، طلق زوجتك طلاقًا بائنًا لا رجعة فيه وستحصل على كل النقود التي ترغب فيها، وحين أسقط بيد فؤاد أخيرًا وهو يراقب إسراء تذوي تدريجيًّا أمام عينيه فإنه أذعن لرغبة والدي وطلَّقها وأجبره والدي على تسجيل الطلاق قبل أن يمنحه النقود التي يريدها، حينها فقط منحه كل ما يريده، فؤاد أرسل النقود لأهل إسراء لتغطية نفقات العلاج، لكن الأوان كان قد فات وتوفيت إسراء بعد فترة قصيرة، طلاقها من فؤاد جعلها في حالة نفسية سيئة جدًّا ومعها تدهورت حالتها الصحية بسرعة كما لو أنها لم تعد ترغب في البقاء على قيد الحياة».

- لهذا السبب قتل نفسه؟

استطالت العينان الزرقاوان حتى تحولتا إلى محيط هادئ.

- كيف عرفت؟ هل أخبرك والدي بذلك؟

لم يكن من الصعب أن أخمن أن هذا كان سرًّا عائليًّا انكشف في غير أوانه، ألصقت تهمة الوشاية على طائر لا ذنب له.

- العصفورة أخبرتني بذلك.

لكنها لم تبدِ اهتمامًا البتة بمصدر الخبر الحصري وقالت: «فؤاد كان يعشق زوجته بشكل يتعذر وصفه، لم يتمكن من التغلب على فقدانها وفي الوقت نفسه لم يتمكن من أن يسامح والدي قط، كان يمجِّد الحب حتى أنهى حياته إكرامًا له، لكن الغريب هو أنه لم يترك وراءه أي رسالة تبرِّر أسباب انتحاره مع أنه كان يحب كتابة الأشعار، لكن يبدو أنه أدرك متأخرًا أن كلماته الرقيقة لم تكن تجدي نفعًا مع عائلة على شاكلتنا، ربما لهذا السبب لجأ إلى التهديد والوعيد بعد موته».

- أخمن أن علاء عانى الأمر نفسه.

- تقريبًا، علاء درس الهندسة في ألمانيا، التقى هناك فتاة ذات أصول سورية وأحبها، لكن والدي رفض زواجه بها وطلب من علاء أن يختار ما بين البقاء أو الطرد، وبقي علاء مترددًا ما بين حياة البذخ التي يعشقها أو الفتاة التي يحبها، لكن عشيقته وفرت عليه عناء الاختيار وتزوجت بقريب لها هناك، لأنها فسرت تردده على أنه تهرُّب، لكن علاء رفض أن يتزوج منذ ذلك اليوم، ما زال أعزب وقد تخطى الخامسة والأربعين، وكل ما يعرفه من الحياة هو السهر والرحلات والنوادي الليلية وفتيات الليل، كمال أصغر من علاء بسنتين، هو الوحيد الذي لم يخرج عن طوع والدي قيد أنملة، درس في كلية الأعمال وتزوج في سن صغيرة بفتاة ذات حسب ونسب اختارها له والدي بنفسه، لكن كمال بدا أشبه برجل آلي منه بإنسان لديه مشاعر، يضع مصلحة العمل فوق كل شيء وينفذ أوامر والدي دون نقاش، أما بهجت، أصغر إخوتي الذكور، فقد سار على درب فؤاد وإن كان لا يشبهه في أي شيء، تزوج بمعيدة معه في الجامعة وعاش مطرودًا من جنة والدي، لكن بهجت أدرك خطأه متأخرًا بعد أن جرب صعوبة الحياة الزوجية ومصاريف الأولاد وهو الذي اعتاد البذخ في طفولته وجزء من شبابه، بطولته الرومانسية فاقت قدرته

على الاحتمال، لذا فقد عاد ليحاول التقرب من والدي يائسًا ليستجدي المساعدة، بالطبع منحه والدي الخيار الذي منحه لإخوتي الآخرين، بهجت لديه طفلان الآن ولا يزال يحب رنا ويصعب عليه التخلي عن عائلته، مع ذلك لا أستبعد أن يفعلها في يوم من الأيام في حال بقي الوضع على حاله، لكن يبدو أن والدي لان قليلًا بعد حادثة فؤاد، على الأقل لم يعد يطرده كلما جاء إلى القصر، لكنه ما زال يرفض أن يمنحه أي نقود وما زال بهجت مهدَّدًا بالحرمان من الميراث.

- وماذا عنك؟ هل ستبقين متمردة على خيارات والدك إلى الأبد؟

أجابتني بجرأة لمستها من جحوظ عينيها المفاجئ: «ليس بعد، سأنتظر حتى يموت والدي وأتزوج بشخص يختاره قلبي».

كنت على وشك أن أسألها عما إذا كان والدها يوافق على أن تتزوج بضابط شرطة فذ ولامع وصاحب سجل مميَّز، أو ربما يمكنها أن تترك القصر لنعيش معًا قصتنا الرومانسية الخاصة بنا، لكن صوت الانفجار دوى في أذني وأحدث لي ارتجاجًا في طبلة الأذن، قفزت من مكاني هلعًا وعيني تدور باتجاه عقارب الساعة بحثًا عن أي أثر لأشلاء تتطاير، كان الصوت قادمًا من جهة الحديقة، ثم رأيت إحدى الخادمات وهي تركض مفزوعة كأن حريقًا دب في تلابيبها، وفي الوقت الذي كنت أغرق به في حيرتي إلى حد الثمالة فإن الفتاة التي تجلس قريبًا مني لم تحرك ساكنًا ولم ترمش لها عين، كأنها جاءت للتو من قلب الحرب العالمية الثانية وكل دوي بات معتادًا لديها حتى ولو كان قصفًا بقنابل ذرية.

- لا داعي للقلق، هذه قنبلة صوت.

- ماذا تعنين؟

- أحد مقالب رامي ابن شقيقي كمال، يحب إثارة ذعر الخادمات، رامي مهووس بهذا الأمر، لديه كل أنواع صناديق المفرقعات في غرفة الألعاب الخاصة به.

قلت حانقًا: «يبدو أن ابن شقيقك لديه قصور في قشرة المخ أو خلل في موجاته الكهربائية، كم يبلغ من العمر؟».

- تسع عشرة سنة، رامي طالب في السنة الثانية في كلية التجارة، يرافق والده إلى العمل في الإجازة الصيفية، لكن وجوده هناك يشكِّل كابوسًا للموظفين.

قلت مستمرًّا في الحنق: «رامي هذا لديه فص جبهي بدائي، شاب يملك دماغ مراهق لا يقدِّر العواقب».

لكنها كانت أكثر واقعية من أي رأي علمي، قالت: «أو أنه لا يهتم أصلًا للعواقب ما دام بإمكانه أن ينجو منها».

كانت محقة تمامًا، لأن من أمن العقوبة أساء الأدب.

وقفت بسمة أخيرًا وقالت: «أستأذنك يا حضرة المحقق، لدينا زفاف علينا حضوره».

كانت هذه كإشارة لي بالمغادرة، قلت وأنا أنظر باتجاه الطفلين اللذين اختفت والدتهما وحلت الخادمة محلها: «أنا سأغادر أيضًا، شكرًا على وقتك، لقد كنت مفيدة جدًّا للتحقيق».

- أي تحقيق؟

عدت إلى المطبخ لكن نديم لم يكن هناك، تابعت سيري إلى الردهة لكنه ظهر أمامي فجأة وقد خرج من غرفته للتو، هالني التحول في مظهره، كان يرتدي بذلة رسمية كشفت عن أناقة يصعب التنبؤ بها، تصفيفة شعره تبدلت من حال إلى حال، وعطره الثقيل فح في أنفي ليملأ فراغيها، وحذاؤه يلمع كمرآة متنقلة، نبرة صوته فقط بقيت على حالها لم تتبدل مثل صاحبها، سألته عن مكان وجود السيد الكبير وأجاب بأنه في المكتبة.

في الردهة التقيت روبي مصادفة مرة أخرى عند السلالم وبيدها كوب كبير عليه رسم لشخصيات مانغا يابانية، لكن الرغوة التي علت سطح الكوب كانت مألوفة.

- كابتشينو.

لقد كنت على سابق معرفة بهذا المشروب.

- لماذا لم تطلبي من نديم أو إحدى الخادمات أن تعده لك؟

- لا، أفضِّل إعداده بنفسي، لا أثق في أي أحد آخر ليقوم بذلك.

- سأذهب لرؤية جدك، ربما نلتقي في وقت لاحق.

- إلى اللقاء...

ثم تابعت مستدركة: «بالمناسبة، هل تعلم أن هناك شخصًا كذب عليك؟».

- ماذا تعنين؟

- اليوم عند الغداء، عندما سألتَهم عن أماكن وجودهم اليوم، هناك شخص كذب.

- من هو؟

- ليس بإمكاني أن أطلعك على ذلك، سيكون عليك أن تكتشف ذلك بنفسك، ألست أنت المحقق الخاص الذي استأجره جدي؟

- أنا لست...

هرشت مقدمة رأسي بسبابتي، ثم قلت: «أنت على حق، أنا المحقق الذي استأجره جدك، وعليَّ أن أقوم بالأمر بنفسي».

- لنرَ إذًا إن كنت ماهرًا مثلما تدَّعي.

- أنا لم أدعِ أي شيء.

لكنها كانت قد أعطتني ظهرها وسارت باتجاه السلالم، استوقفتُها مع ذلك وقلت: «لمَ لا تستخدمين السلالم الخلفية؟ أليست أقرب إلى المطبخ؟».

- صحيح، لكن بهذه الطريقة لن يكون بإمكاني رؤية ما يحدث في البهو، أنت لا تعرف موعد الشيء المثير التالي.

قلت مستنتجًا: «أظن أنه سيكون حفل الزفاف الذي ستذهبون إليه الليلة؟».

- لا، قطعًا، أكره حفلات الزفاف، لا يوجد ما هو أكثر مللًا من رؤية كبار في السن يتصرفون كمراهقين، لكني مضطرة إلى الذهاب حتى لا تغضب سامية مني، إلى اللقاء حضرة المحقق.

تخطيت الردهة الواسعة، والصالة، وطاولة السفرة الكبيرة، وغرفة المكتب، وممرًّا داخليًّا حتى وصلت إلى المكتبة، كان الباب نصف موارب،

وكنت على وشك أن أطرقه حين سمعت بهجت يقول لوالده إنه لن يتمكن من إحضار أولاده إلى الفيلا في حال بقي والده يفكر بهذه الطريقة.

تمهلت قليلًا قبل أن أطرق الباب، سمعت صوت الرجل الكبير يقول: «أنا لم أسئ إلى زوجتك، أمرها لا يعنيني في شيء، هي غضبت من تلقاء نفسها وغادرت اجتماعنا العائلي، أظن أن هذا هو جزائي لأني دعوتها إلى هنا من الأساس».

- أبي، لمَ يصعب عليك أن تفهم؟ رنا لن تخضع لقوانينك أبدًا.

- وأنت أيضًا رفضت الخضوع لقوانيني حين ركضت لتتزوج بابنة طبيب في مستشفى حكومي.

أصدرتُ نخيرًا خافتًا وأنا أتساءل، متى أصبحت مهنة الطب معيبة؟ لكني طرقت على الباب قبل أن ينكشف أمر الرجل المتلصص ودلفت إلى الداخل قبل أن يؤذن لي بذلك، الباب لم يكن مغلقًا على أي حال، وما عرفته عن العائلة منذ الصباح يفوق بكثير ما يحاولون إخفاءه عن الشرطي الغريب، مع ذلك فإن هذه العائلة لا تزال تخفي أسوأ أسرارها جيدًا مثل غدد بوبارية، سيكون من الصعب اكتشافها في غياب العمة العجوز العانس التي تعرف خفايا الجميع.

رحب بي العجوز بابتسامة أقرب إلى تكشيرة أو تكشيرة أقرب إلى ابتسامة.

- أهلًا يا عصام، ادخل.

عناكب كان يجلس خلف طاولة كبيرة، ومن خلفه رفوف من الكتب، وأمامه أحد أجزاء رواية الإخوة كارمازوف لدستويفسكي مقلوبة على ظهرها، وبهجت كان واقفًا بانصياع على الرغم من وجود ثلاثة مقاعد أخرى بلا أي شاغر.

قلت بطريقة عفوية: «عذرًا على المقاطعة».

- لا مشكلة، هي ليست محادثة سرية، ابني فقط يحاول أن يبتزني برؤية أحفادي.

ازدرد بهجت لعابه بصوت مسموع مثل قطرة ماء تسقط في بئر، عدَّل من وضع نظارته فوق أرنبة أنفه بسبابته بحركة تهدف إلى التخفيف من حدة توتر اجتاح كيانه مسقِطًا كل أقنعته، قال متلعثمًا: «هذا ليس صحيحًا يا أبي، لماذا تقول ذلك؟».

تجاهله العجوز وقال لي: «هل هناك ما ترغب في أن تقوله؟».

- جئت لكي أستأذن بالمغادرة.

رمقني بنظرة رادارية، ثم أشار لابنه لكي يخرج، أطاع الأخير دون أي بادرة اعتراض مادي أو معنوي وإن بدا حانقًا قليلًا، غادر الغرفة وأغلق الباب خلفه بروية.

سألني العجوز بنبرة بدت جادة: «قل لي إذًا، لو أردتَ انتحال صفة شبح يسعى للانتقام مني، من ستختار منهم لتقتله؟».

على أحد أن يتدخل ليضع حدًّا لأفكار العجوز، لكني لم أكن هذا الشخص. قلت: «يعتمد على أسلوب تفكير القاتل المحتمَل، لو كنت أفكر في إلحاق أذى رمزي لقتلت أكبر أولادك، لكن لو كنت أرغب في إلحاق أكبر أذى حقيقي، فإني سأختار كمال، فهو الابن الوحيد الذي يبدو أنه يسير على نهجك، رجل ناجح في إدارة أملاكك، وزوجته امرأة من الطبقة الثرية وهو الوحيد تقريبًا الذي فضَّل عدم اتباع قلبه على مخالفة أوامرك، لذا سأفترض أنه الابن المفضل لك».

- ليست لدي أي تفضيلات، جميعهم سيان بالنسبة إليَّ، بما في ذلك بسمة.

- ولو أردت اختيار الحل الأسهل، سأختار بهجت لأنه يسكن خارج القصر ويمكن أن أصطاده في أي وقت.

كنت أكثر اقتناعًا بأن السيد عناكب يمارس لعبة ما بغرض التسلية على خلق الله من أمثالي، لكن هذا لا يمنع من أن أشارك بكل طاقتي، لذا حافظت على مظهر الضابط المحنك قائلًا: «هناك أمر آخر لم تأخذه بعد في الحسبان، وهو أن يكون هناك قاتل يسعى لتحدٍّ حقيقي، ارتكاب جريمة دقيقة وماكرة داخل القصر ودون أن يترك أي أثر خلفه».

- من كنت ستختار في هذه الحالة؟

- حينها كنت سأختار علاء دون أي تردد، شخص يدمن الكحول والمواد المخدرة يسهل استدراجه والإجهاز عليه بسهولة، سيكون على القاتل أن يختار التوقيت المناسب فقط.

العجوز أخذ كلامي على محمل الجد، بدا ذلك جليًّا على صفحة وجهه التي اشتد عودها، قال وهو يزفر غيظًا: «هذه هي المشكلة، أن علاء لن يصدق أبدًا وجود أي خطر، ماذا بخصوص الرسائل؟».

قلت بابتسامة واثقة: «غدًا أمنحك الإجابة، عليَّ أن أحلِّل تحليلًا إضافيًّا، فقط لكي أكون متأكدًا».

قال لي بنبرة آمرة، لا تختلف أبدًا عن نبرة اللواء لكن مع غياب أي ادعاء لأبوة معنوية: «سأنتظر حضورك في الغد».

- بإذن الله، أتمنى لكم قضاء وقت ممتع في حفل الزفاف.

ابتسم بطريقة صادقة لأول مرة منذ فجر التاريخ، قال: «شكرًا لك، هذا حفل شقيق سامية زوجة ابني، شاب ذكي ترك العمل بشركات والده وقرر أن ينشئ معمله الخاص لتصنيع الأدوية، يذكِّرني بحفيدي رامي باستثناء أنه ليس مصابًا بلوثة في دماغه، على أي حال، سامية ستغضب جدًّا إن لم نحضر جميعًا، وهي بمنزلة ابنة أخرى لي».

بالتأكيد، زوجة كمال هي الكنة الوحيدة التي نالت رضا كبير عائلة عناكب.

- أتمنى لكم قضاء وقت طيب.

telegram @yasmeenbook

5

استغرق مني بعض الوقت لأتمكن من التعرف على سيارتي، لا تزال في مكانها خلف شجرة قصيرة لا تستر من هيكلها شيئًا، وبدا طلاؤها يلمع حقًّا كما لو أن الحياة دبت في ألوانه مجددًا، صار مزاجي أفضل وتراجعت عن فكرة قتل سمير، وما رفع من سقف معنوياتي أكثر تلك الميتسوبيشي التي كانت تنافس سيارتي في القدم، خمنت أنها سيارة المسكين بهجت، المطرود من جنة عناكب حتى إشعار آخر، يبدو أن زوجته هي من غادر بسيارة أجرة، لكن مرأى سيارة تمر بظروف أسوأ من سيارتي جلب لي الكثير من الرضا.

لم أعد إلى الشقة مباشرة، اتصلت بمصطفى الذي يعمل فني مختبرات في مصلحة الطب الشرعي، الذي صادف أن يكون صديقًا مقربًا لي، طلبت منه أن يلتقيني هناك حالًا، لكنه لم يكن قد عاد إلى البيت أصلًا، خبير جنائي مهووس بالعمل. وصلت إلى المكان بعد نصف ساعة بسيارتي النظيفة التي لا تستهلك الكثير من الوقود، استقبلني بكوب قهوة لا بهرجة فيه.

سألني بعد أن أدى واجب الضيافة: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

قلت بصراحة: «أريد أن أجري تحليلًا إلكترونيًّا للخطوط، بالإضافة إلى كشف عن البصمات».

تبدلت قسمات وجهه من الود إلى القلق في أعشار من الثانية، لكني تابعت مستلطفًا: «ستكون خدمة مدفوعة الأجر».

- مدفوعة الأجر؟

- بالدولار، العملة التي لا تزال تثبت وجودها رغم مرور السنوات.

لم يماطل ولم يجادل ولم يراوغ، إذ إن هذه لم تكن المرة الأولى، كانت عملية تسير بسلاسة متناهية مثل شرب كوب ماء، هو يقوم بالعمل الإضافي وأنا أضع القليل من النقود في جيبه، مصطفى، على العكس مني، لديه أولاد في عمر الزهور ومرتبه لا يكفيه ثمن روبوتات راقصة لهم، الدمى الصغيرة التي أثارت جنون البلد مؤخرًا.

تناول مني الرسالة وعينة المقارنة ثم مرَّر كلتا الورقتين فوق ماسح الجهاز، وبدأ الذكاء الاصطناعي في التعرف على أشكال الخطوط ليقارن بينها، قال مصطفى: «العملية ستستغرق أقل من ساعة».

- لا بأس، يمكنني الانتظار.

- هل يمكن أن أعرف السبب على الأقل؟

- رجل ثري يُدعى رسمي عناكب استأجر خدماتي للتحقيق في مسألة خاصة.

توقفت يده التي تحمل الفنجان في منتصف الطريق كأنها أصيبت بعطل طارئ، لكن سحنتي كانت جادة وغير قابلة للمزاح.

- هل صرت محققًا خاصًّا الآن؟ هل هذا الشيء قانوني؟

- أعلم فقط أنه ليس مخالفًا للقانون.

أمضيت الوقت أعبث بهاتفي من الجيل السادس القابل للطي، ليست لدى البشر فكرة عن الآفات التي يمكن إضاعتها على الهاتف دون أي طائل، بينما أشغل مصطفى نفسه بالنظر إلى كريات حمراء وبيضاء عبر مجهر معقد بحثًا عن آثار جريمة أخرى لست معنيًّا بها، مع ذلك كان مصرًّا على أن يتشارك معي إنجازاته.

- يظن الناس أن هناك بعض العقاقير التي قد لا تظهر في الاختبارات، لكن ما لا يعرفه الناس هو أن المعمل الجنائي مجهَّز بتقنيات من أحدث

طراز واختبارات حديثة يمكن أن تكشف عن مئات الأنواع من العقاقير والسموم.

قلت متهكمًا: «فعلًا، الناس لا يعلمون ذلك».

- هذه الأداة التي أعمل عليها حاليًّا على سبيل المثال، مجهر إلكتروني وليس ضوئيًّا، يعتمد على ازدواجية الإلكترونات بأطوال موجية مثالية ومضاف إليه معالج متطور. خلاصة الكلام، يمكنني أن أجعلك تأخذ صورة سيلفي مع نواة إحدى كرياتك البيضاء المفضلة، بالمناسبة، كيف هو حال دمك؟ هل ترغب في أن ألقي نظرة على تعداد كرياتك البيضاء لأتأكد مما إذا كنت لا تزال تعاني اضطرابات في التنفس في أثناء النوم؟

قلت بملل: «لا، لكن يبدو أني سأعاني اضطرابات أخرى في أثناء اليقظة، ماذا عن المضاهاة؟ يُفترض أن النتائج صارت جاهزة».

- لحظة واحدة.

جلس أمام شاشته متحفزًا، وقال لي بعد دقيقة: «هناك تطابق بنسبة 100%».

لم يثِر الأمر اندهاشي ولو بمقدار رفع نصف حاجب، فقد كان لدي تفسير معقول جدًّا، أفضل بكثير من وجود شبح يسعى للانتقام من والده.

- بالنسبة إلى الورق والحبر...

قاطعته: «أعرف، يمكنني أن أحزر ذلك بالعين المجردة دون الحاجة إلى عدستك».

من ترك الرسائل ليس شبحًا قطعًا، هو فقط استعار خط يده.

telegram @
yasmeenbook

«على المرء أن يدرك بعض
الإشارات في أوانها، وليس
عندما يموت».

- أنتونيو تابوتشي، روائي إيطالي

اليوم الثالث

أكبر منك سنًّا،
أقوى منك حدسًا

٦

دق جرس المنبه للمرة الثالثة وفتحت عينيَّ ذاهلًا من السرعة التي حل بها الصباح، الاندهاش نفسه يتكرر في كل مرة، أمام على الجدار كان هناك عقرب كبير يقف عند الثامنة، مضى ردح من الزمن منذ أن استيقظت قبل وصول الشمس إلى كبد السماء، لكن الأمر يستحق، فقد وعدت العجوز أن أمنحه رأيًا مهنيًّا نتاج خبرات محقق فذ ولامع وصاحب سجل مميَّز، أحصل على بقية المكافأة إن وُجدت، وأمضي في حال سبيلي بفخر، مثل أي رجل شريف يكسب رزقه بعرق جبينه.

خلعت عني ثيابي رميًا ودخلت الدش لأخلع ما تبقى من بقايا النعاس، صليت فرضًا فاتني في آخر لحظة بعد أن هاجمتني جحافل النوم قبيل لحظات الفجر الأولى، تناولت إفطارًا خفيفًا من بقايا الأمس وارتديت بذلة جديدة بعد أن تأكدت من نفض غبارها وأعددت قهوتي تيك أواي وغادرت، لم أجد سمير واقفًا عند الباب فمضيت في طريقي دون شتائم.

قصدت البنك القريب لأجبر كسر القسط المستحق من ثمن البيت إلى حساب وجه البطاطا نبيه مضافًا إليه قسط الشهر الجاري، وأصررت على أن أحصل على إيصال دفع ورقي واضح المعالم بدلًا من طرق الدفع الإلكترونية الاعتيادية، حجة اللواء هشام كانت تثبت حضورها في كل خطوة أخطوها، لولا منصبي الذي ما زال الناس يتوهمون وجوده لأفلت عليَّ نبيه لسانه ولسان محاميه ولربما صارت الشقة في خبر كان، تنهدت مستنشقًا هواءً

تلوث أوكسجينه، وانطلقت أحث الخطى فوق دواسة البريوس باتجاه مديرية الشرطة، تجاهلت الطوابق العليا ومضيت باتجاه الأرشيف حيث يتكدس الغبار فوق ملفات قضايا ومحاضر عفى عليها الزمن، حكاية فؤاد المنتحر كمدًا أيقظت بي الفضول، لكن وجه موظف الأرشيف الكئيب كان كفيلًا بإطفاء حماستي، عجوز متجهم ولا يحفظ من الكلام سوى عبارة واحدة: نظام الأرشفة الإلكتروني معطل.

خضت جدالًا قصيرًا انتهى بتهديد لا أملكه ولكنه صدقه، قبل أن يختار الحلول اليدوية ويسمح لي بالولوج إلى قاعة تتفجر برفوفها وملفاتها الورقية، النظام الرتيب ذاته منذ عشرات السنين يقف عصيًّا في وجه كل تكنولوجيا مهما علا شأنها، قضيت ساعة أدور حول الخزائن مثل نحلة في حقل حتى عثرت على ضالتي أو تعثرت بها.

أمضيت ساعة أخرى في قراءة ممعنة التفاصيل، انتحار لا شبهة فيه، فؤاد ابتلع خليطًا من عقاقير وأدوية اعتاد أن يتعاطاها فرادى، مع ذلك فإن التقرير استبدل بالتسمم نوبة قلبية، لا فرق اصطلاحًا في غياب أي شبهة جنائية، روبي ابنته أول من كشف وجود الجثة، كانت تنتظر استيقاظه ليأخذها إلى بيت جدَّيها من أمها لكنه لم يغادر إلا نائمًا على محفة، وبالطبع فإن المحاضر أغفلت كل ذكر لرسالة انتحار كنت أشك في وجودها.

لا مزيد من السُّحب الرمادية، الأمر بات مفهومًا ومخاوف عناكب باتت في خبر كان، لدي وقت لأحتفل بالنصر المؤزر لجيوبي قبل حلول الظهيرة.

حارس البوابة تعرف على وجهي وإن لم يميِّز السيارة بعد غسلها، أفسح لي الطريق دون أن يختم على مروري بكاشف المعادن، ركنت سيارتي بالقرب من أشقاء لها في المعدن ولكن هيهات، رويزرايس كولينان ومرسيدس مايباخ ورينج روفر، آه... هنا سنشهد آخر هطول للبنزين المحتضر.

سرت في الردهة بخطوات أكثر ثباتًا مما كانت عليه بالأمس ومغلف الرسائل عالق بين ذراعي والخصر، كان العجوز جالسًا في مكتبه برفقة أهدأ أبنائه، الذي كان منشغلًا بتصفح شاشة ذات إطار شفاف وبيكسلات كثيرة لكن دون أن ينشغل كثيرًا بما ظهر فيها، أما العجوز فقد رحَّب بي بطريقة

هادئة، قال دون أن ينظر إلى ساعته المصنوعة من ذهب خالص: «جئت أبكر من الموعد».

أخذت الأمور بروية طمعًا في إضفاء المزيد من الأهمية على مهمة تبدو في ظاهرها أسهل من شرب كوب ماء على نفَس واحد، عليَّ أن أثبت أني أستحق كل قرش حصلت عليه.

- أمضيت الليلة بطولها وأنا أدرس الرسائل مجددًا وقد استعنت بخبير جنائي، خلاصة الأمر هي التالي، الرسائل كُتبت بخط المرحوم، النتائج حول هذا الأمر حاسمة، وبصماته لا تزال مطبوعة عليها، الورق والخطوط قد تبدو حديثة للوهلة الأولى لكن ذلك عائد إلى جودة خامتها وحفظها بشكل جيد، بينما هي في حقيقة الأمر خطابات قديمة.

قال كمال مستنتجًا ما بدا الآن بدَهيًّا: «تقصد أن المرحوم فؤاد كتبها قبل وفاته؟».

- بالضبط، هذا هو التخمين المنطقي، لكن هناك من عثر عليها وقرر أن يستخدمها الآن، ربما وجد الأمر مسليًا، أو أراد إزعاج رب الأسرة بطريقة غير مباشرة لأنه عجز عن أن يفعل ذلك بطريقة مباشرة.

ضاقت عينا العجوز امتعاضًا.

- التهديد بقتل أولادي أمر مسلٍّ؟

- بإمكاني أن أؤكد لك أن هذا كله عبارة عن تهديد أجوف، يمكنك أن تقول إنها مجرد... فضفضة، سوف أخبركما بالشخص المسؤول عن تدبير هذا كله، ويمكن أن نستدعيه إلى هنا حتى، حينها ستتأكد من أن الأمر لا يتعدى كونه مجرد مزحة، وسيلة مبتكرة للتعبير عن الرأي لا أكثر، سنضحك كلنا على ذلك ثم يعود كل واحد منا إلى أشغاله.

نظرت إلى العجوز، وقلت بنبرة هادئة واثقة: «رسمي بيك، لن يتعرض أي من أولادك للقتل أبدًا، لك مني وعد بذلك».

ألقيت عبارتي الأخيرة بطريقة مسرحية، لكني لم أهنأ بتصفيق الحضور، إذ إن الصرخة التي شقت الأبواب والجدران جعلتني أتجمد في مكاني مثل

شخص فوجئ بزوجته وهي تقلب في محتويات هاتفه الجوال، أنا والعجوز سألنا بصوت واحد تقريبًا: «ما هذا الصوت؟».

تساءلت إن كان مقلبًا آخر من مقالب الابن الساذج لكمال الذي لم يصدر أي تعابير قلقة باستثناء أنه أزاح شاشته بعيدًا عن مسار وجهه، لكن الصرخة الأولى تبعتها المزيد من الصرخات حتى تحول الأمر إلى أوركيسترا لأشخاص يجيدون كل شيء إلا الموسيقى، ركضت إلى الخارج وكمال من خلفي، صعدت السلالم ثلاثًا ثلاثًا إلى الطابق العلوي، عاونت أذناي بصري حتى وصلت إلى مصدر هذه النوتات المزعجة، إحدى الخادمات تقف أمام باب غرفة مفتوح، وبالقرب منها تمثال شاحب لروبي بالحجم الطبيعي، وعلى مقربة منهما كانت سامية تولول مرددة بأنها كانت متأكدة، وأن قلبها كان حاسسًا وأن فؤاد قرر أن ينفذ انتقامه وأشياء أخرى ضاعت بين زحام الضجة، روبي لم تعد تنظر إلى الداخل ونظرت باتجاهي، لكن وجهها بقي على صفحة واحدة لا تتبدل.

خطوت إلى الغرفة، حيث توجد ثريا أخرى في بيت يكاد يغص بها، الحبل امتد من الحامل المعدني المثبت بالسقف الذي كان على وشك الإفلات لولا شجاعة برغي واحد، وطرفه الآخر ينتهي على رقبة الجثة التي كانت تتدلى مثل لعبة بنياتا مهملة، رأس مائل إلى الأسفل وبصر شاخص وفم يتدلى منه لسان لا ذوق له، نديم كان يقف أمام الجثة وقد بدا في حيرة من أمره عما يجب أن يقوم به تاليًا بعد أن صار في حكم المؤكد أن علاء قد فارق الحياة.

يا للغرابة! متى تحولت إلى مُنجم؟

- لا! ما الذي فعلته أيها الغبي؟

استغرق مني الأمر بعض الوقت لأدرك أن كمال لم يكن يوجِّه كلامه لي وإنما لجثة شقيقه الميت، اقترب وحاول رفعه إلى الأعلى طالبًا مني أن أساعده، لكني لم أفعل، قلت وأنا أضع يدًا لا معنى لها على كتفه: «سيد كمال، لا فائدة، لقد رحل منذ وقت طويل».

- لا أفهم، ما من معنى لما قام به.

تساءلت عما إذا كان كما يعتقد حقًّا أن شقيقه الأكبر قد علَّق نفسه على مشنقة منزلية، لأن هذا لم يكن صحيحًا، ولست بحاجة إلى إحدى عدسات مصطفى لكي ألاحظ ذلك.

قلت متخذًا صفة آمر ناهٍ: «اتصل بالشرطة، هذا مسرح جريمة قتل».

- جريمة قتل؟

ظننت أن الأمر كان واضحًا مثل نقطة سوداء على جدار ناصع البياض.

- لا توجد أي مقاعد أو طاولات أو أي وسيلة أخرى ليتمكن بها علاء من الوصول إلى عقد الحبل ليضعها حول عنقه، ما لم يكن لديه القدرة على تعطيل الجاذبية لفترة ريثما ينتهي من وضع العقدة حول رقبته.

أدرك الآن ما أرمي إليه على الرغم من عدم اقتناعه، لا توجد أي كراسي أو طاولات في أي مكان قريب من متناول قدميه اللتين لم تبعدا عن الأرض سوى بمسافة لا تزيد على قدم بالمقاييس العالمية، ثلاثون سنتيمترًا فقط هي كل ما احتاجت إليه الجاذبية لإنهاء حياته اختناقًا. رفعت عيني متأملًا الجسد الذي ما زال لم يبح بكامل أسراره بعد، عرض صامت وكئيب بانتظار الترجمة.

على الأرض أسفل منه كان هناك أثر لبقعة جافة نتاج لترات من السوائل التي تحررت من أمعائه الغليظة لتسقي أنسجة السجادة، مع ذلك فقد فكرت في أنه لا بد قد شرب الكثير ليفرغ هذه الكمية، من حوله تناثرت زجاجات كحول فارغة كتأكيد على صحة أفكاري، قربت أنفي مما تبقى من أثر للمياه الجافة وشممتها كإجراء روتيني فرضته العادة، لكن خلايا الشم كانت محظوظة حين خرجت من هذا الاختبار بصفر رائحة، لا بد من أن الأمونيا وأخواتها قد تبخرت في فضاء الغرفة منذ ردح من الزمن.

حبات عرق تشكلت على صدغي لتنبهني إلى أن جو الغرفة كان مشتعلًا كأن الصيف هجر العالم وحط رحاله فيها، قبل أن أتنبه إلى أن جهاز التكييف كان يعمل بأقصى طاقته إنما في الاتجاه المعاكس، عداد حرارة الغرفة كان يتعدى 40 درجة مئوية، نقرت على شاشة تحكم مثبَّتة بجانب الباب لأحول تيارات الهواء القادمة من قلب الصحاري إلى نسمات سيبيرية،

بعدها أخذتني عيناي في جولة في أرجاء الغرفة التي كانت تصلح لتكون شقة صغيرة مستقلة بذاتها، بار كبير بخزائنه وكؤوسه ومشروباته وخلاطه وبقية النثريات، ومن خلفه باب زجاجي غير عاكس يخفي وراءه حمامًا بحجم غرفة نوم، ماكينة لصنع القهوة، شخص آخر لا يعتمد على مهارات نديم في المطبخ، ثلاجة ذكية على استعداد لأن تكشف لك محتوياتها بلمسة على سطح شاشتها الإلكترونية دون أن تضطر إلى فتح بابها، كما كانت لديه آلته الخاصة لصنع الثلج، أكبر حجمًا وأحدث ماركةً من نظيرتها التالفة في المطبخ مع موصل ماء وصندوق تجميد من الحجم الكبير، شاشة تلفاز على الجدار وأخرى على السقف فوق سرير مائي بسعة أربعة أشخاص بالغين، ورفوف تملؤها عطور من كل بقاع العالم، لن أفكر في الاقتراب من خزانة الملابس حتى مخافة أن أضل طريقي في الداخل.

علاء سليل عائلة عناكب، أول جثة أتشرف بلقائها منذ أن أسقطتُ سفاح العاهرات صريعًا قبل شهور توقفت عن احتساب أيامها، هل أُلام في حال اعتقدتُ أن هبة السماء لي تجسدت على شكل جثة معلقة على حبل تدلى من ثريا شبيهة بشجرة زينة نبتت من حلق السقف؟ لكني لم أقف كثيرًا لأقرر فيما إذا كانت تلك نعمة أم نقمة، فكرت في أن أشرع في العمل دون إبطاء وإلا فقدت كل فرصة لي مع ولوج أول زي نظامي إلى مسرح الحدث، لذا سأفسِد الأمر أولًا ثم أفكر في الاعتذار لاحقًا، أو ربما أتظاهر بأني كنت أحاول منح الميت إنعاشًا رئويًّا لا يغني من روح.

قلت لنديم وأنا أجر ورائي كرسيًّا: «ساعدني على إنزاله».

تغلب على وجله وأطاع بلا تردد، طلبت منه أن يقطع الحبل المتدلي طرفه من الثريا ثم يخرج بعدها من الغرفة ولا يلمس أي شيء آخر، لست بحاجة إلى أن ينثر آثار حمضه النووي في المكان لتلصق به اتهامًا ما زالت ملامحه غير واضحة المعالم. طوقت الجثة بكلتا ذراعيَّ ثم مددتها فوق السجادة، عقلي الباطن استعاد ذاكرته سريعًا وبدأت القراءات تتوالى على شكل نتائج واستنتاجات، الدماء احتشدت والجثة بدأت تغيِّر جلدها إلى الازرقاق، وأعضاؤه كانت تتيبس على استحياء، نظرت إلى ساعتي لأجد عقاربها تشير إلى الثانية والربع ظهرًا، لكن حرارة الغرفة يمكن أن تمنح وقتًا ماكرًا مثل

ثعلب، لقد فارقت الروح جسده في وقت أقرب مما تبدو عليه حالته الظاهرية، لكنها لا تتعدى بضع ساعات لا أكثر، علاء توفي في وقت ما هذا الصباح، اعتصرتُ كامل خبرتي في علوم ما بعد الموت وتوصلت إلى استنتاج مفاده أن الوفاة حصلت في وقت ما بين التاسعة والعاشرة صباح هذا اليوم، لكن أحدًا لم يهتم لأمر الابن الضال فتأجل اكتشافها لما يقرب من خمس ساعات بدقائقها وثوانيها.

على رقبته كان أثر الحبل ظاهرًا ومعبرًا عن نفسه بقوة وجموح بعد عناق امتد لساعات، علامة الأثر ذات سياق منتظم كأن روحه رحبت بمغادرة الجسد دون أن تحثه على المقاومة، كان متجمدًا كتمثال نُكل به، لكن ما لفت انتباهي أكثر هي علامات أخرى أقل وطأة، كأن الضغط على رقبته كان يتبدل أو يتناوب على الشنق على الرغم من أن وضعيته كانت معلَّقة بثبات دون اختلال، ملاحظة أخرى وضعتها في الحسبان، لا أثر لخدوش أو جروح ولا دليل على وجود مقاومة، ولا يسعني التفكير سوى في أمر واحد فقط، علاء كان غائبًا عن الوعي سلفًا قبل أن يؤرجَح على حبل المشنقة.

عاودت الوقوف على قدمي لأجد العجوز عند باب الغرفة مشدوهًا ويده ترتعش على عكازه، علامات وجهه شاحبة ولكنها ثابتة، أعلنت له أن الرجل قد قُتل ليفاجئني بقوله: «هل فؤاد هو من فعل ذلك؟».

استنتاج مستحيل بالطبع لأن الموتى لا يعودون إلى الحياة والانتقام هو آخر همهم، هل يتعين عليَّ الآن أن أثبت ذلك حقًّا لشخص حي؟ أم أني كنت مخطئًا منذ البداية؟

العجوز استعار أسلوبي الساخر قائلًا: «ماذا عن الوعد الذي قطعتَه لي للتو بأن أحدًا من أولادي لن يتعرض للقتل أبدًا؟ هل ما زلت عند رأيك بأن هذا مجرد تهديد أجوف؟».

بالطبع لا، لقد كنت مخطئًا للغاية ولا أشعر بأي حرج من الاعتراف بذلك، لكني لن أرتكب خطأ آخر.

هناك قاتل في قصر رسمي عناكب، وعليَّ أن أعثر عليه.

2

بالتأكيد، إذا كان هناك ما يمكن أن ينغص عليَّ يومي أكثر من إبداء حدس خاطئ أو رؤية جثة تتدلى من السقف، سيكون شوقي العطار، الرجل الذي كان زميلًا لي قبل وقت ليس ببعيد، وربما يصبح رئيسي المستقبلي في حال كُتب لي عمر جديد مع هذه المهنة حين أجرَّد من رُتب مستحَقة، ما لم تخضع لجنة التحقيق للضغوطات وتقرر أني ارتكبت خطأ بقتل قاتل وأنه كان من المفروض أن أضع مسدسي جانبًا وأدعوه لشرب الشاي ريثما ينحر عنق ضحيته.

قابلني بتهكم بائن بينونة كبرى: «ظننت أنك لا تزال موقوفًا عن العمل؟ أم أني مخطئ؟».

قلت كاتمًا الغيظ: «أنا في عمل خاص بناء على رغبة صاحب البيت».

كتم ضحكة كانت على وشك أن تجلجل احترامًا لمشهد الميت الذي مر به المسعفون محمولًا على النقالة.

- كم هو أمر غير اعتيادي، أن تكون موجودًا في المكان، في الوقت الذي يقرر فيه الرجل أن ينتحر.

بإمكاني أن أرى كم كان يحاول جاهدًا ألا ينفجر، أوداجه كانت منتفخة وبدنه يرتعش مثل مؤشر ميزان وقف عليه شخص مفرط في السمنة، لم أكن أنوي أن أسهِّل عليه الأمر بأي حال.

- ماذا يمكن أن تقول؟ أنا شخص سيئ الحظ. على أي حال، يجب ألا تتسرع في الحكم، لقد التقيت الرجل بالأمس، لم يظهِر أي بوادر انتحارية...

قاطعني بحزم: «وتظن أنك أفضل من يحكم على الشخصية، الضابط الموقوف عن العمل بسبب مخالفة مسلكية جسيمة».

تجاهلت مداخلته المستفزة وتابعت: «لم يكن هناك أي أثاث بالقرب منه يمكن أن يصعد عليه ليصل إلى عقدة الحبل».

فح في وجهي قائلًا: «تعتقد أني لم ألحظ ذلك؟ هذه أساسًا أحد الأسباب التي تدفعني إلى الاعتقاد بأنها حالة انتحار، لكن شخصًا فضوليًّا تدخَّل ليغيِّر من الحقيقة لغرض ما في نفسه، ما أدراني أنك لم تعبث في موقع الجريمة؟ ربما تكون أنت من أبعد الكرسي الذي صعد عليه؟».

- لمَ عساي أفعل ذلك؟

قال وهو يحدق إليَّ محتدًّا: «أتعلم أن بإمكاني أن أعتقلك الآن بتهمة إفساد مسرح الجريمة؟».

- كنت أحاول إنعاشه، لم أدرك أنه ميت إلا متأخرًا.

رمقني بنظرة متشككة وقال: «أنت محظوظ فقط لأن رسمي بيك أكَّد أقوالك، وإلا لكان لي معك كلام آخر».

رفعت كتفيَّ شزرًا ولم أعقِّب، بينما يتأملني باحتقار غرير عسل يتأمل نحلة.

- كن صريحًا معي، ما الذي تفعله هنا حقًّا؟

- أنا هنا بناء على طلب رسمي بيك شخصيًّا.

- هل صرت محققًا خاصًّا الآن؟ هل هذا ما كنت تحلم به حين تكبر؟ أن تزعج الشرطة في أثناء القيام بعملهم؟

- حضرة المقدم، نحن أمام جريمة قتل، عليك أن تباشر بالبحث عن مشتبَه به.

- لا، لا، لقد انتهى العهد الذي كانت الشرطة تستنتج فيه استنتاجات متسرعة بخروجك من اللعبة، المختبر الجنائي هو الذي سيحدد ذلك، علينا أن ننتظر بضع ساعات فقط.
- المسألة لا تحتمل الانتظار، هناك قاتل داخل أسوار البيت، إذا لم يكن مسرح الجريمة كافيًا لإقناعك فإن رسائل التهديد ذات دلالة واضحة.

بدا شيء من الاهتمام على ملامحه، ولم يعد يبدو مثل مهرج يعاني لإضحاك جمهور مكون من شخص واحد، وأدركت أنه لا يملك فكرة عن ذلك بعد.

- هل تلقَّى الميت رسالة تهديد؟
- لا، ليس هو، بل والده.
- رسمي بيك تلقَّى رسالة تهديد؟
- هذا هو سبب وجودي هنا، لقد طلب مني اللواء هشام أن أحقق في الأمر.

نظر إليَّ متمعنًا بعينين منكمشتين، قال وقد تغيرت نبرة صوته ليصبح هدوؤها تلقائيًّا وليس مفتعلًا: «أخبرني بالتفاصيل».

- أحد أبناء رسمي عناكب، كان يواظب على إرسال رسائل إلى والده، في البداية بدت الرسائل عادية جدًّا ولا يوجد فيها ما يريب، ثم بدأت لهجتها تحتد شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى تهديد رسمي بيك بقتل أحد أولاده.

أومأ برأسه وقال: «وهل عرفت من الذي كتب هذه الرسائل؟».

- ابنه فؤاد.
- وأين هو الآن؟
- في مقبرة العائلة بمدينة نصر.
- ماذا يفعل هناك؟

حينها أدركت أنه لم يفهم، قلت موضِّحًا: «أقصد فؤاد ميت ومدفون في مقبرة العائلة هناك».

ارتخى فكه وكاد لسانه يتدلى من فمه لولا أنه تدخل لإرجاعه مجددًا، بدا مثل حرباء تلقت صدمة.

- قلت لي إنه ميت.

- صحيح، منذ سنة تقريبًا.

قال، رغبة في الاستيضاح: «مع ذلك، هو من كتب رسالة التهديد التي تتكلم عنها».

- بالضبط، لقد تأكدت من ذلك بنفسي.

لم يشتمني لسانه، لكني كنت على يقين أن عقله كان منشغلًا بإكالة الكثير منها، ليست مشكلة، ربنا يسامحه، قلت متجاهلًا ما يدور برأسه: «حضرة المقدم، أنا أتكلم بجدية، المرحوم فؤاد هو الذي كتب الرسائل، لكن هناك شخص آخر تبنى ما جاء فيها، سأوضح لك الأمر...».

عاد ليقاطعني تعصبًا مثل الأيام الخوالي: «لن أسمع المزيد من هذه التفاهات، وفر كلامك لشخص يمكنك خداعه».

- أنا لا أمزح...

هذه المرة ارتفعت حدة صوته وتحولت عيناه إلى جمرتين مشتعلتين.

- اسمعني جيدًا، لن أسمح لك بإفساد الأمر عليَّ مجددًا مثلما فعلت في قضية ابن وزير الداخلية، هل تفهمني جيدًا؟ حينها لن يشفع لك اللواء ولا غيره، سأضعك في السجن بنفسي.

لا أقول إني تفاجأت بأسلوبه في الكلام، لا يزال غاضبًا بالطبع لأني سرقت الأدلة التي كان يخفيها في مكتبه وذهبت إلى شقة سفاح العاهرات لأتصرف معه وحدي، لكن لم تتح لي الفرصة لأرد عليه باتهام صريح، لأن عينيه لم تعودا تنظران إليَّ بعد الآن وقد تحول جمرهما إلى رماد، انجذب إلى بسمة مثل ذبابة جذبتها نبتة آكلة للحشرات، كانت تجلس على إحدى الأرائك الكثيرة التي تتناثر في أرجاء الردهة، تدخن صامتة وتحدق إلى رخام الأرضية البلوري، لم ترفع رأسها إلا حين علا صوت المقدم، الذي صار الآن مبتهجًا

مثل لاعب كرة سلة أحرز ثلاثية في الثواني الأخيرة، استعاد نبرته الاعتيادية وهو يقول معلنًا: «الآن، أفسح الطريق ودع الخبراء يعملون».

لم ينتظر لأتحرك جانبًا، دفعني ومشى باتجاه بسمة، ثم جلس على الأريكة المجاورة وقد ارتسمت عليه معالم متعاطفة يمكن أن تكفي ثلاثة وجوه معًا، أنكرتُ الغيرة التي كانت على وشك أن تشتعل بصدري، لترى ردة فعله حين تخبره بأنها مرتبطة، أو حين يخطئ مثل كل مرة ويبدأ بالحديث عن آخر دعابات أولاده، أو ربما يتمادى ويتلقى صفعة يرن صداها في أرجاء المكان مثل صافرة إنذار لكل شخص يفكر في التقرب من فتاة تقود سيارة رياضية وتعاني عقدة تسلط أبوي غير مبرَّر، الخاطر الأخير أنعش صدري وأعاد الحياة إلى مشاعر كانت تتلاطم في بحر هائج، بقيت أراقب منتظرًا الصفعة التي ستحطم كبرياءه إلى أشلاء، لكن رؤية أسنان تطير من فم شوقي لم يحدث إلا في مخيلتي لأن بسمة كانت تبتسم، وبعد دقائق قليلة فقط، صدرت عنها ضحكة، صحيح أنها كانت على تردد منخفض لكنها تظل ضحكة، اللعين، لقد تمكن من مواساتها بمهارة، بينما لم أحظَ منها قبل ساعة سوى بسيل من الدموع بينما أردد باستمرار أن البقاء لله مثل ببغاء يملكه حانوتي، آه، فعلًا، يا بخت من كان عصام عبد الستار عدوه اللدود، مددت يدي إلى جيبي لأبحث عن علبة السجائر، ثم تذكرت أني لم أعد أدخن أصلًا، سمعت همسًا من ورائي فاستدرت لأجد مصطفى واقفًا بالقرب من عمود أبيض مزخرف بنقوش مائلة، قلت: «هل تريد سيجارة أنت أيضًا؟».

- سيجارة؟ لا، لا، لقد انتهينا هنا، لا يوجد الكثير لنقوم به، أردت أن ألقي عليك التحية قبل أن أغادر، وأردت أن أسألك أيضًا، ما الذي حصل هنا بالضبط؟

- ماذا تعني؟

اقترب مني أكثر حتى فاحت منه رائحة المينثول.

- هل لموت الرجل علاقة بالرسالة التي أحضرتها لي مساء الأمس؟

- لا أعلم، ربما...

كنت شبه صادق في كلامي، تشتت ذهني لوهلة وحجب عني أفكاره تعصبًا، ربما كان دماغ شوقي محقًّا حين شتمني بصمت، الله يسامحه مجددًا، لكن لدي فرصة قوية لأبدد ظلمة شكوك حطت رحالها داخل رأسي.

- مصطفى، لدي طلب آخر.

التصق ظهره بالعمود من خلفه وهو يقول بنبرة قاطعة غير قابلة للنقض: «لا، لا أريد التورط في أيٍّ كان الأمر الذي ورطت نفسك فيه».

- إنه من صميم عملك، اسمع، أريد أن أعرف فيما إذا كان الرجل قد تعرض للتخدير قبل أن يموت.

تلاشى القلق من عينه وحلت الإثارة، يمكن لمصطفى أن يقوم بثورة الآن ما دام أنه آمن على نفسه.

- بالتأكيد، إذا كان قد تعاطى أي مواد مخدرة، فإن ذلك سيظهر بالتشريح، لدي مجهر إلكتروني يعتمد...

قاطعته: «جيد، جيد، ابذل كل ما بوسعك، لا تعطهم الفرصة لإقفال القضية على أنها انتحار، أشعر أن رسمي بيك يرغب في ذلك ولهذا السبب لم يبح بأمر الرسائل لشوقي، القاتل هو أحد قاطني القصر، ورسمي بيك سيحاول التستر عليه، هو لمَّح إلى ذلك بنفسه بالأمس».

ازدرد لعابه بشكل ظاهر، سأل: «لماذا تبدو متأكدًا؟».

- لدي ما يدفعني لأفكر في هذا الاتجاه، كل ما عليك القيام به هو أن تنبه الطبيب الشرعي لذلك، حاول أن تكون موجودًا في أثناء التشريح.

- سأحرص على أن أكون في مكان قريب.

- ستتصل بي وتبلغني بما توصلت إليه.

أراد أن يلعب دور صعب المراس لكن انفعاله لم يكن صبورًا مثل تظاهره، قبل أن يعلن التسليم.

- سأحاول.

3

مصطفى غادر الفيلا برفقة الرجلين الآخرين اللذين حضرا من المعمل الجنائي دون أن يجدا الكثير ليقوما به، وأنا تركت الجميلة والوحش خلفي وصعدت السلالم إلى الأعلى، مشيت في الممر الأنيق الذي زينته صور ولوحات ومناضد عليها مزهريات ملونة، لكن غرفة روبي كانت مغلقة ولم يجب أحد على الباب، لم يكن هناك سوى ملصق لبطلة النسخة الحديثة من فيلم ووندر وومان المعاد إصداره، استوقفت خادمة ذات ملامح آسيوية صرفة لأسألها عن روبي لكن ترددات استجابتها كانت معطلة، ما زلت أملك هيئة ضابط شرطة وإن لم أرتدِ زيه، ليس هناك ما يدعو الخادمات للارتعاش فزعًا على أي حال، عملية رفع جسد بحجم علاء، مع الاحترام لكل النساء، تحتاج إلى إسناد رجل قوي، مع ذلك فإن الخوف أكل لسانها وجزءًا من قدراتها اللغوية، وحين ضقت ذرعًا بتمتماتها المفهومة وغير المفهومة تركتها ومشيت مبتعدًا مخافة أن أسقطها سهوًا بنوبة قلبية، نزلت السلالم مجددًا بعين واعية لكل التفاصيل ما ظهر منها وما بطن، رأيت شوقي يكلم بقية أفراد العائلة، الأب وبسمة وكمال وقد انضم إليهم بهجت الذي كان قد وصل للتو وعلى وجهه علامات قلق دائم الحضور، لكن روبي الصغيرة لم تكن موجودة معهم، تجنبت الانضمام إليهم مخافة أن يقدم شوقي على حماقة أخرى تجعل مني مهرج القصر، تفاديت أن تلتقي عيناي عينَي العجوز ودلفت إلى ممر الضيوف ومنه إلى الباب الخلفي المفضي إلى الحديقة، لمحت نديم منشغلًا

في المطبخ وقد صارت لديه المزيد من الأكواب ليملأها بكل ما يمكن تجرعه من منبهات ومهدئات، كانت معالم وجهه جامدة كأنها نُحتت من صخر، لاحظ وجودي بينما كنت أنظر إليه وسألني فيما إذا كنت أرغب في شيء أشربه، أجبته بالنفي، وحين عاد لينشغل مع ماكينة القهوة فكرت في أني تسرعت بالإجابة، قلت: «في الحقيقة، هل يمكن أن تعد لي كوبًا من الكابتشينو، دون أي إضافات من فضلك».

قال دون أن ينظر إليَّ هذه المرة: «بكل سرور».

- وفي أثناء ذلك، هل يمكن أن أوجه لك سؤالًا؟

- بالتأكيد.

غرفة نديم كانت في الطابق الأرضي، ما بين المطبخ والجناح الخاص بالضيوف، بعيدًا عن الحدث الرئيسي، إذ يفصل بينه وبين غرفة علاء بهو وسلالم وممر وغرف، لكن هذا لا يمنع أن يكون قريبًا في وقت لا تراه فيه الأعين، سألته عما كان يقوم به بحدود الساعة التاسعة.

- التاسعة تحديدًا؟

- وحتى العاشرة.

أمعن مفكرًا لثوانٍ قبل أن يجيب: «هذا هو الموعد الذي يتناول فيه رسمي بيك إفطاره، لذا يُفترض أني كنت هنا في المطبخ، أعددت كوب القهوة المعتاد لبسمة لكي تأخذه، ثم أعددت إفطارًا خفيفًا للسيد مع كوب مغلي من خليط الأعشاب الذي اعتاد أن يشربه كل صباح بعد أن ينتهي من الأكل...».

ثم بدأ يشرح مللًا تفاصيل يمكن اختصارها بعبارة ونيِّف، فكرت في أن الشاب مستبعَد من لائحة المشتبَه بهم على أي حال، يملك الوقت والقوة والقدرة لكنه لا يملك الدافع.

قلت بعد أن أنهى سرده: «ما الذي يمكنك أن تخبرني به عن ليلة أمس؟ عن الوقت الذي رجعت فيه العائلة من حفل الزفاف؟».

- لقد عدنا في وقت قريب من منتصف الليل.

- أنت كنت برفقتهم؟

- السيد الكبير يطلب مني أن أقود سيارته الخاصة بعد أن تنتهي أوقات دوام السائق الخاص به.
- حسنًا، أكمل من فضلك.
- عدنا إلى البيت على فترات متقاربة، أظن أن بسمة وصلت أولًا وصعدت إلى غرفتها، ثم وصلتُ برفقة السيد رسمي، وبعدنا مباشرة وصل كمال مع عائلته، وزوجته كانت تشعر بالاستياء.

رفعت حاجبًا وسألت: «ما السبب؟ يُفترض أن تكون سعيدة لزواج شقيقها!».

- أظن أنها كانت غاضبة بسبب شيء قام به المرحوم علاء، فقد بالغ في الشرب وبدأ يفتعل المشكلات ثم غادر الحفل محدثًا ضجة، لكن هذا لم يكن مستغرَبًا جدًّا، فالسيد علاء لم يرغب في أن يذهب إلى الحفل من الأساس، لكن سامية والسيد رسمي أصرا على أن يرافقهم، وقد أطاع على مضض.
- لكنه لم يرجع معهم؟
- لا، يبدو أنه عاد في وقت متأخر، هو لم يكن موجودًا على أي حال في الوقت الذي ذهبتُ فيه إلى غرفتي، خلدت إلى النوم في وقت قريب من الثانية صباحًا واستيقظت في الثامنة.
- ماذا عن الوقت الذي اكتشفت فيه الجريمة، أين كنت حين سمعت صراخ الخادمة؟
- كنت هنا في المطبخ أحضر مقادير الغداء، وحين سمعت الصراخ ركضت مسرعًا إلى الأعلى لأستطلع الخبر وأنت تعرف البقية.

قلت وأنا أخرِج من جيبي مفكرة: «حسنًا، السؤال الأهم، ما الذي يمكنك أن تخبرني به عن بقية أفراد العائلة؟ من كان منهم موجودًا في المنزل في التاسعة صباحًا؟».

أجاب ببساطة طالب مجتهد تلقى سؤالًا تسهل إجابته: «لا أحد».

أخفيت ذهولي قسرًا وسألت: «ماذا تقصد بلا أحد؟».

- كمال وابنه غادرا إلى الشركة في الثامنة والنصف، وسامية كانت قد غادرت مع الأولاد في الساعة الثامنة إلى النادي الصيفي على أن تذهب بعد ذلك لزيارة أهلها، فقط بسمة هي من بقيت حتى التاسعة والربع تقريبًا قبل أن تذهب إلى الوكالة، لكنها أمضت بضع دقائق هنا في المطبخ ريثما أعددتُ قهوتها ثم غادرت مباشرة، من السهل أن أسمع صوت محرك سيارتها من مكاني في المطبخ.

بالتأكيد، سيارة بسمة إعلان ضجيج متنقل، لكن لم يكن ضجيجها هو ما أرَّق مضجع أفكاري في هذه اللحظة، الجرس العالق بين ثنايا جمجمتي بدأ يقرع تنبيهًا، ما قاله لي للتو جرح مشاعر استنتاجاتي الوليدة وأصابها في مقتل.

كنت على يقين تقريبًا من أن علاء فارق الحياة في وقت ما بين التاسعة والعاشرة، وموت قتيل يستلزم وجود قاتل، لكن، في حال غادر الجميع قبل وقت ارتكاب الجريمة، فإن هذا يتركني برفقة خيارات شبه معدومة أشبه بالعثور على بطاريق في قلب الصحراء الغربية.

ربما أن هذه العقدة كانت أعقد مما اعتقدت.

في الحديقة كان الولدان الصغيران يلعبان في البركة تحت عناية حثيثة من إحدى الخادمات، خادمة أخرى غير التي قابلتها في الأعلى، أو إن من قابلتها في الأعلى لم تكن هي، من الصعب إدراك الفرق، سامية كانت بالجوار تنفث دخانًا متوترًا بيد يغطيها قفاز حريري بلون الكستناء وهو القفاز ذاته الذي كانت ترتديه بالأمس، الجو لا يناسب ارتداء القفازات لكنها أصرت على رفع شعار أن الموضة أهم من الحر، مشيت خطوات حتى وقفت على مقربة منها، قلت استهلالًا: «أمر مروِّع ما حدث لصهرك».

قالت دون أن تتوقف عن التدخين: «توقعت ذلك، سبق وأخبرت العجوز أنه توجد طاقة غريبة في هذا البيت، بإمكاني الشعور بذلك».

- لم أفهم.

- إن روح فؤاد هي المسؤولة عن موته، أنا متأكدة...

توقفت لتسحب نفسًا آخر ثم تابعت: «لقد سمعت صوتًا، لقد كنت أسمع أصواتًا منذ بدأت الرسائل في الظهور».

- ماذا تعنين؟ هل سمعتِ شيئًا ليلة أمس؟

رمت عقب السيجارة على الأرض وداست عليه بقسوة كأنها تنتقم منه لأنه سيتسبب لها بالسرطان مستقبلًا، ثم تابعت: «صحيح، لقد سمعت صوتًا بالأمس، كان عاليًا لدرجة أنه تسبب في إيقاظي».

- في أي ساعة حدث ذلك؟

- لست متأكدة، لم أنظر إلى الساعة، لكن الوقت كان قريبًا من الفجر، صوت أشبه بهمهمات شخص يبكي، شيء أشبه بعويل أو صدى قادم من جهة السقف والجدران.

- وما تفسيرك لذلك الأمر؟

أجابت بحماس: «إنه هو، فؤاد، هذه وسيلته للتواصل معنا، حين سمعت ذلك الصوت، نظرت إلى السقف وهتفت باسمه بصوت عالٍ، وحين فعلت ذلك، توقف الصوت».

- حقًّا؟

- أؤكد لك أن هذا ما حصل، سألته بعدها إن كانت روح فؤاد تهيم في أرجاء الغرفة، وإن كان يرغب في أن يتواصل معنا بطريقة ما.

صوت حقيقي أم مجرد تيار هواء بارد يتدفق في الأنابيب ولكن أسيء تفسيره؟ لم أكن لأعوِّل على كلامها بأي حال، بينما تابعت: «مع استمرار الصوت فقد انتابني إحساس غامض، أن روحه تحاول الخروج من حيزنا المادي، بدأت أصرخ طالبة منه الانتظار، كمال كان في الحمام في تلك اللحظة، وجاء مسرعًا ليتبين الخبر، وحين أخبرته بما سمعته اتهمني بأني واهمة وبأن الأدوية التي أتناولها أثرت على قواي العقلية ثم عاد كلانا إلى النوم، وحين عدت لأفتح معه الموضوع في الصباح منحني كل تفسير متاح باستثناء أن هناك شبحًا يحوم في أرجاء المنزل، وبسمة كذلك سخرت مني...».

فتاة عاقلة هذه البسمة، قلت في نفسي، بينما تابعت سامية بنبرة فيها أسى: «المسكين، روح معذَّبة تبحث عن الخلاص، ولكن لا أحد يرغب في تصديق ذلك، أنا لا ألومه أبدًا على أي حال، حتى لو تبين أنه السبب في انتحار علاء، لم أكن لألومه، علاء لم يكن محبوبًا من أحد، لا أستغرب أن يختاره فؤاد دونًا عن البقية، لكن بقدر حزني على وفاته فأنا سعيدة لأنه لم يختَر كمال».

- ما سر غضبك من علاء ليلة أمس؟

- ماذا عساي أن أقول؟ لقد أساء التصرف مجددًا كالعادة، أنا نادمة حقًّا لأني أقنعته بالذهاب معنا، بدأ يسرف في الشرب ويتحرش بالمدعوات، بهجت أخذه إلى الخارج قبل أن تحصل فضيحة، مع ذلك، لو كنت أعلم أنه سيموت بحلول الصباح لما أزعجت نفسي قط بالتفكير فيما قام به، الموت يجعل كل ما عداه تافهًا، علاء لم يكن قد عاد بعد لذا آثرت أن أخلد إلى النوم، وحين قمت من الفراش في الصباح التالي فكرت أن أزعجه، ذهبت إلى غرفته وطرقت الباب لكن لم يفتح لي أحد، وباب غرفته كان مغلقًا بالمفتاح، لذا آثرت أن أرجئ غضبي حتى وقت آخر.

- هل أنت متأكدة أنه كان مغلقًا بالمفتاح؟

- أجل، ويمكن للخادمة أن تؤكد ذلك أيضًا، فهي معتادة تنظيف غرفته في أثناء نومه، لكنها وجدت الباب مغلقًا أيضًا، وعلاء لم يكن يفعل ذلك في العادة ما لم تكن هناك فتاة برفقته في الداخل.

- متى ذهبت إلى غرفته؟

- أعتقد في الثامنة وبضع دقائق، قبل أن آخذ الأولاد إلى النادي من أجل دروس السباحة، كمال وقتها كان يستعد للذهاب إلى الشركة ورامي لم يكن قد أفاق بعد، وحين خرجت لم أشاهد سيارة علاء، اعتقدت في البداية أنه لم يعد إلى القصر ليلة أمس، لكني علمت لاحقًا أن بهجت أخذها.

- بهجت؟

- أجل، لقد غادر مع علاء أمس في أثناء الحفلة، ثم أحضره بهجت إلى القصر لأن علاء بالطبع لن يكون واعيًا بما يكفي ليتولى القيادة بنفسه،

حتى السائق الآلي بحاجة إلى قدر من الوعي البشري، بالطبع فإنه لن يفوِّت الفرصة ليستعير سيارة علاء الفارهة، بهجت معتاد استعارة سياراتنا طوال الوقت وفي أي مناسبة، أظن أنه يحب أن يتظاهر بأنه ليس الابن العاق والمطرود من جنة والده، حتى لو كان ذلك مؤقتًا.

سرحت في أفكاري لكنها تدخلت مقاطعة: «حضرة الضابط، وفِّر على نفسك العناء، فؤاد هو المتسبب فيما حدث، الأبواب الموصدة لن تقف عائقًا أمامه».

ثم تركتني وانصرفت لتستدعي ولديها اللذين ملآ الدنيا صراخًا في وجه خادمة أثبتت عجزها، عدت إلى الممر ومررت بالمطبخ لكني لم أرَ نديم، وإنما رأيت رامي الذي كان يقف مستندًا بكوعه إلى الجدار وفي يده شطيرة بيتزا محشوة بكل أجبان العالم برفقة كوب شراب تشكلت طبقة جليد على سطحه، وحين لمحني بادر قائلًا بنبرة حكيم يعيش فوق هضبة التبت: «ألم أخبرك بالأمس؟ المال، هو سبب كل الأمور الغريبة التي تحدث في هذا البيت».

حسنًا، مخبول آخر لكنه استبدل بلفافة التبغ شطيرة ومشروبًا غازيًّا مثلجًا.

- ما الذي يدفعك لقول ذلك؟

- جدي هو الذي فعل ذلك.

رمقته باهتمام قطة وضع لها شخص طعامًا، تابع الشاب سخطه الهادئ: «لم يسبق لي أن صادفت شخصًا يكره أولاده مثل جدي».

سألته مستوضحًا، قبل أن تطير الفكرة بعيدًا: «ماذا تعني بأن جدك هو من قتل عمك علاء؟».

- أعتقد أن جدي يئس أخيرًا من عمي علاء وقرر أن يحرمه من الميراث على طريقته الخاصة، عمي علاء يقترب من الخمسين لكنه لا يعرف من حياته سوى البذخ والتبذير، ودائمًا ما يبدي ندمه لأنه أطاع كلام جدي وتخلى عن عشيقته، حدث ذلك قبل أن أولَد، ومع ذلك كان لا يزال يذكر الأمر في كل مناسبة.

فكرت في أن علاء وفؤاد كليهما وجهان لعملة واحدة غير قابلة للصرف.

- ألم يفكر علاء في الزواج مطلقًا؟

- هذه معضلة أخرى، جدي لن يوافق على فتاة يختارها علاء، وعلاء لن يوافق على فتاة يختارها جدي، الزواج الوحيد الناجح في هذه العائلة هو زواج والديَّ، كمال ابن رسمي عناكب الذي يملك عشرات المصانع والشركات في كل ما هب ودب، وسامية سليلة صاحب أكبر مصانع للأدوية على مستوى القارة كلها، فقط زواج مثل هذا يمكن أن يباركه جدي.

حسنًا، فكرت في أن هذه عقلية قديمة ربما، لكنها ليست بالية، فؤاد، علاء، بهجت، وغالبًا بسمة، جميعهم اختاروا عصا التمرد على عمى الطاعة.

- لماذا تعد طعامك بنفسك أنت أيضًا؟ أم أنك لا تثق بالطباخ أنت أيضًا؟

- ليس الأمر كذلك، لكني لم أجد نديم في أي مكان.

- لقد كان هنا قبل دقائق.

- لم أره، ربما ذهب لرؤية جدي أو طلبه رجال الشرطة لأخذ أقواله مجددًا، على أي حال فأنا لن أعتمد على نديم ليطعمني طوال الوقت، هذه نقطة ضعف كبيرة، أن تضع نفسك تحت رحمة شخص واحد، ماذا لو أصيب بالجنون في أحد الأيام وقرر أن يسمِّمنا جميعًا؟

قلت مستبعدًا الفكرة المجنونة: «نديم لا يملك أي دافع ليفعل شيئًا مثل هذا».

قال مبسِّطًا المسألة: «لن يحتاج إلى واحد، الجنون يمكن أن يكون معديًا في هذه العائلة».

- صحيح، وأنت أكبر مثال على ذلك.

- ماذا تعني؟

قلت مستدركًا: «أقصد أنك لا تحب عائلتك كثيرًا على ما يبدو، ولم تتعب نفسك بإخفاء ذلك حتى».

- لا يوجد لدي سبب لأحب أحدًا منهم، لا يوجد هناك من يعاملني بطريقة جيدة، لكن لدي وسائلي الخاصة في التعبير عن نفسي، لن يوقفني أي شيء.

بالطبع، كنت قد تشرفت بالتعرف على إحداها بالأمس، خبير الألعاب المتفجرة، بينما تابع رامي كلامه وهو يمضغ: «لدى جدي فلسفة بسيطة، إما أن تكون تحت إمرتي وتكون شخصًا مكرمًا، وإما تخالفني وحينها عليك أن تتدبر أمورك بنفسك، لقد كان واضحًا جدًّا حيال هذا الأمر، والدي هو الوحيد الذي اعتاد أن يطيع جدي بطريقة آلية، على العكس من بسمة، تلك الفتاة تجيد التلاعب بجدي جيدًا، بل إنها تجيد التلاعب بالجميع».

استنفرت حواسي كامل طاقاتها استعدادًا لخوض حرب في التركيز.

- كيف ذلك؟

- بسمة أنانية متنمرة ولا تختلف عن عمي علاء كثيرًا، تعشق خداع الرجال، وبخاصة الأقل شأنًا، توهمهم بأن ظروفهم الاجتماعية السيئة لا تهمها، وتحشو رؤوسهم بكلام فارغ عن الحب وما شابه، ثم تقنعهم بأن يتقدموا لخطبتها، يأتي الواحد منهم محمَّلًا بالآمال والأحلام فيطرده جدي شر طردة، بينما تراقب من الأعلى وهي تكتم ضحكتها، ثم تتصل بالشاب المسكين لتخبره بأنه ليس بإمكانها أن تلتقيه بعد الآن لأن والدها العزيز لا يرغب في ذلك، ببساطة، هذا الأمر موجود في خلايا دمها، حتى نديم لم ينجُ من براثنها، المسكين يهتم بإطعامها بقدر يفوق اهتمامه بجدي نفسه.

حسنًا، أعترف أن هذا كان تطورًا ملتويًا في الأحداث، انتصب ميلان قامتي وانفرجت عيناي انتباهًا كطفل تسمَّر أمام شاشة هاتف، بينما تابع مفتعلًا أسى لا وجود له: «أشعر بالرثاء لهذه الحفنة من المساكين، وأشعر بالرثاء أكثر لزوجها المستقبلي في حال تزوجتْ أصلًا، إنما هذه هي طريقتها في التمرد على جدي دون أن تظهِر ذلك».

ازدردتُ لعابي بصعوبة، بينما ظل ينفث لهيبه في وجهي، أو أن رأسي هو الذي كان يشتعل ذاتيًّا: «بسمة لديها عقدة نفسية، وعمي علاء كان ينتقدها

دائمًا، كانا يتجادلان باستمرار، والدي فقط هو من حرص على أن يبقى بعيدًا عن طريقها».

قلت، كأن هذا هو كل ما يهم حاليًّا: «لكنها سبق أن ذكرت لي أنها مرتبطة...».

- هي تقول ذلك على الدوام، دائمًا هناك ضحية في انتظار الرفض، وهي وسيلة مبتكرة لإلهاء جدي خوفًا من أن يجبرها على الزواج بشخص لا رغبة لها فيه، بسمة تعاني عقدة نقص، ربما لأنها ليست ابنته الحقيقية.

شعرت بتيار كهربائي سرى في خلايا جسدي انتهاءً بدماغي.

- ماذا تعني بأنها ليست ابنته؟

- بسمة ليست عمتي، بسمة هي ابنة شقيقة جدي من طرف الأب، توفي والداها في حادث حين كانت صغيرة واختار جدي أن يكون هو الوصي عليها لأنه الأقدر على ذلك، فرد آخر يضمه إلى قطيع عائلة عناكب، مع ذلك فإن بسمة امتلكت زمام أمرها وإن كان ذلك جزئيًّا، وكالة الأزياء التي تملكها أسستْها من المال الذي ورثته عن والديها، وجدي منحها اسمه ظاهريًّا فقط، فهي لن تكون طرفًا في نزاع الإرث، لهذا لا يوجد ما يجبرها على البقاء فعليًّا، لكنها لا تزال هنا مع ذلك، ربما كانت تطمع في الوصية التي سيتركها لها جدي بعد أن يموت.

ثم عاد ليقول هامسًا: «أيًّا كان ما أخبرتْك به، فهو مجرد كذب، هذا هو ما تجيده ببراعة».

رمى بقايا شطيرته في أقرب سلة قبل أن يقول: «سأعود إلى غرفتي لأرتاح قليلًا، لقد كان نهارًا متعِبًا».

- لحظة واحدة فقط.

مددت يدي لأخرج المفكرة ثم فكرت أنه لا داعي لذلك، سألته بطريقة روتينية: «ماذا يمكنك أن تخبرني عن ليلة الأمس بعد أن رجعتم من حفل زفاف خالك؟».

- لا شيء يستحق الذكر، كانت والدتي غاضبة لأن عمي علاء قرر أن يعبر عن نفسه في الحفل بطريقته الملتوية، اعتبرت ذلك فعلًا خاطئًا لمجرد أنها لا تتفق معه، ثم هدأت سريعًا ولم تعد تذكر الأمر، والدتي سريعة الغضب ولكنها سريعة النسيان أيضًا، والداي ذهبا إلى غرفة نومهما وأنا ذهبت إلى غرفتي ولم أغادرها حتى جاء والدي لإزعاجي كالعادة في الصباح.
- ماذا يمكنك أن تخبرني عن البقية؟

قال مستدعيًا ذكرى قريبة المدى: «نديم رافق جدي إلى غرفته، وبسمة كانت قد وصلت قبلنا ولم أرها، وعمي علاء حضر في وقت متأخر، ربما قبيل الفجر بقليل، وكان برفقته شخص آخر».

- هل هو بهجت؟
- لا أعرف، غرفتي في الممر ذاته الذي تقع فيه غرفة عمي علاء، لذا فإن عليه أن يمر من أمامها في حال أراد الوصول إلى غرفته، وقد سمعته يكلم شخصًا بصوت عالٍ، وكان ذلك الشخص يرد عليه.
- ولم تميز الصوت؟

قال بعد لحظة تفكر: «لا، كان صوتًا أقرب إلى الهمس، ليس بإمكاني أن أحدد فيما إذا كان مألوفًا حتى، ربما كان برفقة إحدى عشيقاته أو أصدقائه أو أنه تلقى زيارة متأخرة، وربما كان هناك أكثر من شخص، أيًّا كان الأمر فإن الشخص الذي رافقه إلى الغرفة غادر بعد عشر دقائق لأني سمعت صدى خطوات تسير في الاتجاه المعاكس، من الصعب أن تسير فوق رخام الممر دون أن تصدِر صوتًا ما، وبخاصة في حال كنت على عجلة من أمرك، لست متأكدًا مع ذلك، أنا أعاني الأرق وصعوبات في النوم وأرفض استخدام الأدوية رفضًا تامًّا، وقلة النوم تسبب لي الهلاوس في بعض الأحيان، من يدري، ربما كان شبح عمي فؤاد حقًّا ولكنا نرفض تصديق ذلك».

بدأت أشعر بالندم لأني لم أخرِج مفكرتي من جيبي.

4

الآن صار لدي أمر آخر لأتحرى بشأنه ولم أكن قد أعرته التفاتًا، أن تكون هناك يد غريبة وراء ما حدث، شخص اختبأ في الغرفة ونفَّذ جريمته في الصباح ثم تسلل إلى الخارج، هذا يمكن أن يفسر لغز الباب الموصَد، لأنه بالتأكيد لم يفتح من تلقاء نفسه، ولو كان القاتل شبحًا فعلًا فإنه لا يملك سببًا ليعبث بقفل الباب فتحًا وإغلاقًا.

في الدقيقة التالية كنت على وشك أن ألفظ أنفاسي لهاثًا، فقد ركضت في ممشى الحديقة باتجاه البوابة، أسابق الزمن وانتباه شوقي في آنٍ واحد، وصلت إلى حيث تختبئ كابينة أمن بالقرب من البوابة، التي كانت عبارة عن علبة فايبر جلاس كبيرة لها نافذة وباب وإلى جانبها حمام متنقل بتهوية جيدة، لكني تجاهلت الحمام ودلفت إلى الكابينة صارخًا: «أين أشرطة المراقبة؟».

استغرق الأمر وقتًا حتى استعاد رجل الأمن ذاكرته وتعرف على شكلي من تحت شلال العرق، ولم يزد على أن قال: «تحت أمرك يا سيدي».

أعاد لي أحداث ليلة أمس بحذافيرها وقد سجلتها كاميرات فائقة الدقة تلتقط أدق التفاصيل، لن تدخل ذبابة إلى المكان دون أن تلتقط رفرفة أجنحتها، السيارة الفارهة مرت من بين فكَّي البوابة متمهلة في تمام الرابعة فجرًا.

قال لي مسؤول الأمن موضِّحًا ما لا داعي لإيضاحه: «هذه سيارة السيد علاء، لكن السيد بهجت هو من يقود السيارة».

سيارة علاء عادت لتتسلل خارجًا بعد سبع عشرة دقيقة، وهذه المرة كان بهجت يعتلي المقعد وحيدًا دون رفيق، تابعت عيناي خط سير الأحداث حتى حل نور يوم بات الآن قريبًا من تمام نهاره، السيارات غادرت تباعًا بحسب الجدول الزمني، سامية وأصغر ولديها في الثامنة وعشر دقائق، كمال وأكبر أولاده في الثامنة والنصف، وبسمة دون أولاد في التاسعة والربع، بعدها صار المشهد ثابتًا لساعات قبل تعود سامية في الثانية عشرة والنصف، وكمال في الواحدة والنصف، ثم ظهرت سيارتي التعسة بعدها بدقائق، ثم بدأت المواكب تتوافد بعد الكشف المفجع، بسمة واللامبورجيني، بهجت بسيارة لن يركبها مالكها مجددًا، وثلة من سيارات الشرطة.

طلبت من الرجل أن يعيد المشاهد إلى وقت سابق في ليلة أمس، ثم أتبعته بيوم أمس بأكمله، لا غريب وطئ بلاط القصر غيري، أما المراقب فقد كان يمتلك حجة دامغة بدوره، حيث ألقاها في وجهي قائلًا: «أؤكد لك يا سيدي، لم أكن لأسمح بدخول نملة إلى القصر دون إذن بذلك».

خلاصة الكلام، قاتل علاء كان وما زال أحد قاطني هذا القصر.

عدت إلى الداخل أجر خطواتي عرجًا بعد أن أتعب الركض المتوتر عضلاتي، استنتاجاتي الجديدة خاب ظنها بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف، خبر جيد أو سيئ، ما زال الوقت مبكرًا لأحدد.

دلفت إلى داخل القصر وعيناي تجوبان في الأرجاء مثل صقر يبحث عن أي فريسة، لكن بصري عُدمت منه العافية وصارت رؤياه ضبابية، دماغي شُلت خلاياه تجمدًا، ووقف العالم في مكانه ساكنًا إلا من جسد ما زالت ذاكرتي تحفظ معالمه غير بعيد، قدمان رشيقتان على خصر نحيل وجسد نحتته العضلات الدقيقة وطردت منه دهونه، وجه تألق بثقة صاحبته دون حاجة إلى خدمات الميك أب، بدا أن لا شيء تغيَّر فيها باستثناء ملابسها التي صارت أكثر تحفظًا مع قلة اعتنائها بمظهرها، لم تكن بحاجة إلى كعب طويل لتثبت حضور هامتها التي كانت تقارعني في الارتفاع، ولأن الصدمة عقدت

لساني مثل ربطة عنق خنقت صاحبها، فقد كانت هي من بادر مستفهمًا: «ماذا تفعل هنا؟».

لساني حار جوابًا، بينما تابعتْ: «هل تطاردني؟».

قلت متعثرًا في سير كلماتي: «لا، أنا هنا في تحقيق، أعني... بناء على طلب مالك القصر».

- محقق خاص؟

- شيء من هذا القبيل.

تأملتني بعينين دبت فيهما الحيرة.

- مصادفة غريبة فعلًا، لم أعتقد أني سأراك بعد وقت قصير فقط.

- هذا من حسن حظي، على ما أعتقد.

سألت متشككة: «أنت ما زلت موقوفًا، أليس كذلك؟».

- لا شيء تغير منذ الأمس.

قالت مخالِفة: «الكثير تغير منذ الأمس، نحن لم نعد الأشخاص ذاتهم وإن لم نكن ندرك ذلك بعد».

- جيهان، أنا لم أتغير قط، وأنت تعرفين ذلك جيدًا.

- هذا كلام فات أوانه الآن، أخبرني، كيف هي أحوالك؟ هل عثرت على بديلة لي؟

ما الذي تظنه بي هذه المرأة؟ أنا لست زير نساء ولا زير ماء حتى.

قلت بطريقة مبهمة: «ما زلت بحاجة إلى وقت طويل حتى أتغلب على فاجعة طلاقي».

قالت وهي ترفع لي حاجبًا وتنزل الآخر: «طلاقنا فاجعة؟!».

- بالنسبة إليَّ كان كذلك، أنا لم أرد الزواج بأول محققة شرطة في البلاد، أنا أردت الزواج بجيهان التي عرفتها من أيام الجامعة.

- وجيهان التي عرفتها أرادت أن تكون أول محققة شرطة في البلاد.

لا جدوى من جدال مكرر لم يعد له طعم ولا لون، أسطوانة تدور دون أن يُعرف لها بداية من نهاية.

- أرى أنك التقيتَ أول محققة شرطة في تاريخ البلاد.

ازدردتُ لعابًا وبحثت عن رد سريع البداهة لكن لساني أعلن إضرابًا مفتوحًا، بينما حشر شوقي جسده بيننا وهو يقول متخابثًا: «أعرِّفك، ملازم أول جيهان سامي، ابنة اللواء المتقاعد عماد سامي ومعاونة المباحث الجديدة، لا يمكن أن نترك منصبك شاغرًا، أليس كذلك؟».

بدا أن طليقتي حديثًا استشعرت حرج موقفي وموقفها معًا، لذا فقد آثرَت الانسحاب وتركت فريستها للضباع، ودَّعتني باقتضاب ومضت مبتعدة قبل أن يبتلعها الباب المفضي إلى الخارج، حيث توشك الشمس على المغيب.

قال شوقي مقاطعًا مسارات عيني وأفكاري معًا: «لماذا ما زلت هنا؟ كان يفترض بك أن تعود إلى بيتك».

- أنا لم أنهِ عملي هنا بعد.

هز رأسه وقال نافيًا: «أنت ما زلت موقوفًا عن العمل، لهذا سأطلب منك أن تغادر وتدعنا نقوم بعملنا».

- حضرة المقدم، عليك أن تتعامل مع المسألة بجدية أكبر.

قاطعني هازئًا: «أجل، الرسائل وشبح الأخ الميت...».

قاطعته جادًّا: «هناك من يستغل الرسائل لذر الرماد على الأعين، شخص خدَّر القتيل ووضع الحبل حول عنقه ثم تركه يختنق بهدوء».

- ألم أقل لك إنك متسرع؟ على أي حال، معاوِنتي الجميلة أخذت كل الاحتمالات بعين الاعتبار وحققت من أماكن جميع من في القصر، يمكنني أن أخبرك أن احتمالات وجود شبهة جنائية تقل مع كل دقيقة، يا حضرة المحقق الخاص الذي يمارس عمله دون رخصة، أتعلم؟ هذه مخالفة أخرى يمكن أن تتسبب في اعتقالك.

رمقته حانقًا بينما كان يقول: «على أي حال، عمل الشرطة قد انتهى هنا، أعني بذلك الشرطة الذين يملكون شارات حقيقية، سأدعك الآن وشأنك، تتابع تحقيقاتك التي لن يهتم بها أحد».

ذهبت باتجاه غرفة المكتب طلبًا للعجوز، ووجدته جالسًا على عرشه ومن حوله ولداه كمال وبهجت، مجلس مصغر اجتمع للتشاور وأنا كنت من قاطع خلوتهم المقدسة.

- رسمي بيك، علينا أن نتحدث بشأن ما حدث.

العنكبوت الكبير رمقني بنظرة لا تحمل أي تعابير ظاهرة، بينما تفاوتت أنظار الشقيقين ما بين برود كمال وارتباك بهجت، قال العجوز أخيرًا بعد تمحيص: «ليس الآن، يمكنك أن ترجع إلى بيتك، لا حاجة إليك حاليًّا».

- رسمي بيك...

قاطعني: «من فضلك، لدينا أمور عائلية نرغب في مناقشتها».

نبرة صوت لا تقبل الجدال، أدرت لها ظهري ليستوقفني: «عصام، ربما من الأفضل أن نترك الشرطة تتولى التحقيق في الحادثة من الآن فصاعدًا».

أدركت حينها أن لسان شوقي قام بواجب التشهير وزيادة، من الواضح أن كبير عناكب أسقطني من حساباته كما لو كنت نقطة على جدار يمكن أن تزول بالمسح.

الآن فقط لم أعد ضابط شرطة، وما زلت أصر على الإنكار.

استقبلني سمير بمهانة العادات، لكني كنت أبعد ما أكون عن مزاج الصبر والمداراة، إنما شخص مثله يعاني قصورًا في قراءة وجوه الآخرين لن يوقفه أي شيء، ألقى على مسامعي وصلة مديح معنونة بباشا مصر قبل أن يسأل عما إذا حللت مشكلة قريبه في قسم الشرطة.

- ليس بعد، أنا منشغل جدًّا في الوقت الحالي.

- ماشي يا باشا، لا توجد مشكلة، ربما في الغد تجد وقتًا لتنظر في الأمر.

قلت وأنا أخطو داخل الصندوق القديم الذي يُطلق عليه مجازًا لقب أسانسير: «أتدري؟ لسبب ما، كلما وقعت عيني عليك فإني أتذكر قنديل البحر».

- قنديل البحر.

- بالضبط.

- لماذا يا باشا؟

قلت قبل أن يقف الباب حائلًا بيني وبينه: «عليك أن تكتشف ذلك بنفسك».

نجحت في الوصول إلى شقتي وأغلقت عليَّ بابي دون إزعاج إضافي، خلعت ملابس جف عرق النهار على سطحها وقيمت صدمات اليوم في أقل من دقيقة، لدي جريمة أنكر الجميع حدوثها بعمى بصيرة، وضابط شرطة وجد فرصة عمره ليلقي عليَّ أطنان سخرية جمَّعها في قلبه شهورًا طويلة، ثم جاءت الضربة القاضية بعد صمود استمر لجولات، أجد نفسي وجهًا لوجه مع المرأة التي تشرفتُ بتطليقها قبل يومين وخرجتُ من مولدها خالي الوفاض.

عاودت الاتصال بمصطفى الذي وجد نفسه مضطرًّا إلى إجابتي بعد رسالة صرحت فيها مهدِّدًا بأني سأحضر قاطعًا خلوته في المعمل ولن أخرج إلا بفضيحة، دخل في الموضوع فورًا قبل أن أنهي عبارة الترحيب الاعتيادية.

- لقد كنت على حق، المتوفى تناول نوعًا جديدًا من حبوب الفينتانيل، جرعة كبيرة سببت إغماءة طويلة الأمد، هزة أرضية بعشر درجات ريختر لم تكن ستفلح في إيقاظه.

هذا من شأنه أن يجعل منه شخصًا ساكنًا مطاوعًا كخروف يُساق إلى مذبح، راضيًا بطوق حول عنقه وإن لم يكن ذهبًا مسبوكًا، فكرت في أن الاستنتاجات السهلة كانت واضحة كشمس النهار التي فاقت درجة الغليان، بينما بقيت الاحتمالات الأصعب عصية على الفهم.

غدًا صباحًا، سيكون لي حديث ممتد الأطراف مع هشام، أقصد اللواء هشام، ما دام شوقي اختار أن يغض بصره عن الحقائق فيما خلا جمال بسمة الباهر، فإن إعادة إنعاش دماغه صارت ضرورة ملحة.

لم أكن أومن بالخوارق وإن رأيت خارقة بعيني، لأن العين يمكن أن تخطئ التقدير أحيانًا، لكن الحقيقة الدامغة بخَّت الماء على أفكاري المعترضة، علاء فارق الحياة ما بين التاسعة والعاشرة، لكن أحدًا لم يكن معه في الغرفة في ذلك الوقت، وباب غرفته كان مغلقًا على الزائرين ثم عاد ليرحب بهم فجأة، ربما أن شبح فؤاد نجح في إقلاق العجوز وإخافة بهجت وإزعاج سامية وسخرية كمال وبسمة وجنون رامي ولا مبالاة نديم، لكنه بريء من دم علاء براءة الناموس من لدغات أدمت قلبي، وتلك الحورية التي تدعى بسمة، شخص آخر باطنه يخالف ظاهره، لا يوجد شخص مثالي في عالم غير مثالي، لأن العالم لن يرضى بأن يختل توازنه لأجل كائن من البشر.

خرجت بخلاصة لا يجادل فيها عاقلان، كل شخص متهم حتى تثبت براءته حتى وإن لم يكن حاضرًا في المكان لحظة وقوع الجريمة، هذا لن يكون يومًا للنسيان، أفكاري لم تختمر بعد ولكن الليل طويل ودقائقه بطيئة.

الكثير من الكروت الحمراء أُشهرت في وجهي، وما زلت بعيدًا عن رفع راية الاستسلام.

«من أراد أن يدرس كل
القوانين، فلن يتبقى له ما
يكفي من الوقت لخرقها».

- يوهان غوته، أديب ألماني

اليوم الرابع

ضميري اليقظ

١

حلمت بأني أقود سيارة لامبورجيني ذهبية برفقة فتاة جميلة، شقراء بعينين زرقاوين وليست بسمة، ركنت أمام باب ملهى ليلي ودخلت مكانًا فيه فتيات وشبان أشكالهم مثل دمى مطاطية، في الخارج حل ليل، وفي الداخل رقص وقفز ودحرجة، أخرجت من جيب معطفي الطويل مدفعًا رشاشًا ومسدس ماء وأطلقت النار على السقف، أتلفت ثلاث ثريات ملونة وأحدثت فجوة في الجانب الغربي من فتحة التهوية، صدر صرير عالٍ أشبه بعويل شبح، وراقبت فرارًا جماعيًّا بينما اقترب مني رجل ليخبرني أن الرئيس راضٍ عني وينتظر صعودي لرؤيته، ركبت مصعدًا طار بي إلى العاشر مرفرفًا بجناحين، حيث وجدت شوقي العطار يرتدي زي مطرب مهرجانات أسمر بارز الكرش وحول عنقه سلسلة على هيئة مشنقة، رحب بي قائلًا: «أنت هو الرجل المناسب للمهمة، لكن عليك أولًا أن تفر من الشرطة لأن الشرطة تكرهك أكثر مما تكرهني، رجال الشرطة يمقتونك، يتمنون زوالك، لا يطيقون وجودك بينهم ولا بالقرب منهم ولا في أي مكان في العالم».

مع ذلك أخبرني ألا أقلق، إذ ما زال بإمكاني أن أقفز، حاوية القمامة مليئة برسائل قديمة كتبها شخص ميت، ورق كثير يمتص صدمة سقوطي فوقه، لكن من باب الاحتياط يمكن أن أذهب إلى أقرب صيدلية وأشتري مخدرًا غير مصرح ببيعه دون وصفة طبية، ولو حدث وأُعلنت وفاتي فإنه سيتدبر أمر التقرير الطبي ليظهر الأمر على أنه نوبة قلبية، اللعين أقنعني بالفكرة، وقفت

عند حافة النافذة التي كانت تطل على حديقة ومسبح ونخلة قصيرة، حيث رأيت جيهان تستلقي على مقعد بلاستيكي وتلوح لي مبتسمة، سميت بالله وقفزت دون مزيد من التفكير، سقطت من ارتفاع عشرة طوابق، وانتهيت داخل كومة من مختلف أنواع القاذورات التي لا تمت إلى الورق بصلة، شتمت سمير وسمعت ضحكة هازئة صدرت عن شبح.

استيقظت من نومي حانقًا مشمئزًا، قرف في نفسي ومن نفسي، في عقلي وجلدي وأضلاعي، أفكر في الفرق بين رجل كنت عليه ورجل أرغب في أن أكونه، رجل يسير فوق الوحل بحذاء نظيف، شخص يعتقد أنه الأوفر حظًّا على وجه الأرض لمجرد أنه يؤمن بذلك، المحقق الفذ واللامع وصاحب السجل المميَّز، الذي أردى قاتلًا متسلسلًا وعوقب لأنه أطلق رصاصة زائدة والرصاص عهدة عليه، تلك الليلة التي حفرت لها نقشًا في كل جدار يقف في وجهي، كلما اقتربت من نسيانها ظهرت في ذاكرة أشخاص غيري.

لكل شيء نهاية، سقوط يليه سقوط، وأنا لست الشخص الأوفر حظًّا على وجه الأرض وإلا لكنت فتحت عيني فزعًا قبل الارتطام كما يحدث عادة في أحلام الآخرين، لكن ربما إذا حدقت طويلًا إلى حاوية ما فإن الحاوية ستحدق إليك.

سقوطي في الحلم كان إسقاطًا على واقع بدأت أفقد زمامه.

شوقي قرر أن يكون معاديًا جسدًا وروحًا، قال معبرًا عن عدائه باستعلاء: «لست مضطرًّا إلى مشاركة نتائج التحقيق مع شخص مدني ولكني سأفعل فقط لكي لا تتعب رأسك بالتفكير العقيم، شقيقه بهجت هو آخر من شاهده على قيد الحياة مع ساعات الفجر الأولى، الميت كان ثملًا وغائبًا عن الوعي تقريبًا واضطر بهجت إلى إحضاره إلى الغرفة ومدده على السرير قبل أن يغادر، استعار سيارة المرحوم وقاد إلى بيته مباشرة، ولم يدخل أحد إلى الغرفة منذ ذلك الوقت وحتى الساعة الثانية والربع ظهرًا حيث اكتُشفت الجثة، وحتى أقطع الطريق على أسئلتك، لا يوجد أي دليل على أن شخصًا كان في الغرفة في الوقت الذي لفظ فيه المرحوم أنفاسه الأخيرة، لقد كان وحده منذ

الرابعة فجرًا وحتى الثانية ظهر اليوم التالي، أما الرسائل المزعومة فإنها لا تشير إلى أي شيء حقيقي، مجرد كلام مرسَل من شخص ميت».

قلت وأنا أعض على أسناني كبديل عن عض أنفه: «لا يمكن أن نتجاهل الدلائل بهذه البساطة».

- وكيف يمكن أن تعتبر هذه جريمة قتل إذا كان من المتعذر فيزيائيًّا وجود قاتل؟

نظرت باتجاه اللواء الذي كان مطرقًا وقلت: «سيدي، مسرح الجريمة لا يتفق مع حالة انتحار، الوصول إلى عقدة الحبل دون أثاث، والمنوِّم، وعدم وجود رسالة انتحار من الميت...».

تدخل شوقي منكلًا: «المنتحر ليس ملزمًا بأن يترك وراءه رسالة، أما المنوِّم فيمكن أن يكون قد أخذه قبل لحظات من شنق نفسه، ثم من يضمن أنه لم يُعبَث بالموقع قبل وصولنا؟».

سأل اللواء بمنطق البشر: «عصام، كما أسلف المقدم قبل قليل، لا يوجد دليل على أن شخصًا كان معه في الغرفة وقت حدوث الوفاة، ما لم تكن تظن أن شبح شقيقه هو المسؤول عن وفاته».

بدا لي سؤالًا مخادعًا، لو أجبت بنعم فأنا مجنون لا محالة، ولو أجبت بلا فأنا إذًا أنسف فرضيتي بنيران صديقة، وبين التعقل والجنون شعرة، لذا آثرت أن أجيب بطريقة دبلوماسية، سياسي محنك يحاول أن يحفظ ماء وجهه.

- ليس بإمكاني أن أؤكد أو أن أنفي أي فرضية في هذه اللحظة.

سمعت بوادر ضحكة قطعها الحرج، قبل أن يسلم اللواء قائلًا: «عصام، أرى أن المقدم شوقي قام بعمله على أكمل وجه، أتمنى أن تقتنع بذلك».

غادرت المديرية غاضبًا أتأفف، القذارة تقفز من كل مسام في جسدي بعد أن ألقيت نفسي في مكب نفايات كبداية مثالية ليوم أشد حرًّا من سابقه، الاحتباس الحراري الذي زادت التكنولوجيا من هيجانه يصر على أن يحول العالم إلى سجن كبير يحرق نزلاءه، لكن الإنسان يجيد التأقلم والاعتياد ما لم

يتحول إلى جثة تلزِمها الحرارة بالتحلل في غير أوانها لأن جهاز التكييف رفع مؤشر حرارته بدلًا من أن يهبط فيها.

أيًّا كان الأمر، فإني لن أجد الإجابة في الشارع حيث بدأ الزحام يرخي سدوله كمساء معتم لا قمر فوق رأسه، هناك مكان واحد فقط يمكن أن أعثر فيه على ضالتي.

2

ركنت سيارتي أمام الباب ونزلت منها أجر أذيال خيبة مرتقبة، فشلت في إقناع المقدم واللواء وغالبًا سأفشل في إقناع من يفوقهما في الرتبة دون الحاجة إلى نياشين، لكن الرجل دفع لي مقابل خدماتي وعليَّ أن أقدم له شيئًا يليق بنقوده، أو ربما يمكنني أن أكون مدافعًا عن الحق في أسوأ أحواله.

الردهة كانت فارغة بشكل رسم علامة تعجب في رأسي، لا زوار ولا معزين ولا متملقين، العجوز قرر أن يؤجل الإعلان عن وفاة الابن الذي لن يفتقده أحد.

ظهرت خادمة وفرت من أمامي قبل أن تظهر بسمة في وجهي، ضياء خلاب أنار مسار خطواتي التي سارت باتجاهها طوعًا وكرهًا، رحبت بي وابتسمت في وجهي مثل زهرة تفتحت بعد ذبول، مزاجها تعدل سريعًا كأن فاجعة الأمس ليست من النوع الذي يترك أثرًا غائرًا، تذكرت كيف تمكن شوقي من رسم أول ابتسامة على وجهها متبعًا إياها بأول ضحكة، كأنه يتنافس على دخول موسوعة جينيس لأسرع رجل يتسبب في إبهاج شقيقة مفجوعة، بعض الرجال يجيدون اللعبة على أي حال، وأنا ربما أكون أذكى محقق عرفته في حياتي لكني لست أمهرهم في فنون الغزل، بالطبع ليس بمقدوري أن أشتم حضرة المقدم الذي يعلوني في الرتبة لذا فقد شتمت سمير البواب بدلًا منه، من لا يطول الحمار يتشطر على البردعة.

سألتني بسمة: «لماذا لم يسمحوا لنا بدفنه حتى الآن؟».

قلت بابتسامة سخيفة على وجهي: «الإجراءات المعتادة».

- ما هي الإجراءات المعتادة؟

ازدادت ابتسامتي سخفًا على سخف.

- حين يقدم الطبيب الشرعي والمختبر الجنائي تقريرهما النهائي.

- لكننا دفنا فؤاد في اليوم ذاته الذي توفي فيه.

قلت كابحًا جماح امتعاضي بأعجوبة: «استبدال تقرير انتحار بنوبة قلبية أسهل بكثير من استبدال شبهة جنائية بانتحار، قد يستغرق الأمر بعض الوقت».

- ما زلت تظن أن علاء مات مقتولًا.

- ليست لدي ذرة شك.

- والدي يخالفك الرأي.

- أعرف ذلك.

- أتعلم؟ حين استأجر خدماتك، اعتقدت أنه سيكون صادقًا معك، لكن يبدو أن والدي لم يكن كذلك، كان يرغب فقط في معالجة كارثة تنبأ بوقوعها، والآن تحول اهتمامه إلى أن يحاول احتواءها بدل البحث عن أسبابها، لكن إذا أردت أن تعرف الحقيقة فيجب عليك أن تمنحها في المقابل.

- ليس والدك فقط هو من يخفي الأسرار، أنت أيضًا لم تكوني صريحة معي.

- لا يوجد لدي ما أخفيه.

- التماعة عينيك تقول عكس ذلك.

تأملَت الموقف بعينين يغرق فيهما من لا يجيد السباحة، ثم حسمت أمرها: «ما الذي تريد أن تعرفه مني؟».

رغبتُ في سؤالها عن رجال أمعنت في قلوبهم إذلالًا وعدلت عن ذلك، فأنا محقق محترف في نهاية المطاف، لذا فقد استبدلت سؤالًا بآخر: «ما الذي

يدفعك إلى البقاء في القصر ما دمتِ لست مضطرة إلى العيش وفقًا لقواعد سيده؟».

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنك لست بحاجة إلى وصي بعد الآن.

ازدردت لعابًا وقالت: «من أخبرك بذلك؟ هل هي سامية أم ابنها المصاب بلوثة في دماغه؟».

- ليس مهمًّا، هذه وظيفتي على أي حال.

- جميع من في القصر يتعامل بطريقة المساومة، يفشي أسرار غيره مقابل إخفاء أسراره.

- أنت لم تجيبي عن السؤال، ما الذي يدفعك للبقاء هنا؟

بصرها انتقل من وجهي إلى وجه نديم الذي لاح أمامنا للتو مثل رجل خفي قرر أن يظهِر نفسه فجأة، وضع كوب القلوب فوق طاولتها وهو يقول: «تفضلي قهوتك».

منحته شكرًا مرفقًا معه ابتسامة، في وقت كانت فيه حاستي السادسة تعمل عكس اتجاه الريح بتحفيز من لحظة خجل لم يحسب حسابها ورقة ظهرت في غير موضعها، لكن أفكاري قوطعت بمرأى مراهقة أطلت على رؤوسنا من الطابق العلوي، وقفت في مكاني سريعًا بينما كان نديم يسأل عما إذا كنت أرغب في أن أشرب شيئًا، شكرته ومضيت باتجاه السلالم لكن روبي قررت الانسحاب جهة غرفتها دون أن تنظر باتجاهي مجددًا، إحدى قدميَّ صعدت أول درجة من السلالم والقدم الأخرى لم تلحق بها، فقد سمعت الرجل الكبير يهتف باسمي، كان قد خرج من مكتبه للتو وعصاه تسبقه، طلب مني الحضور لملاقاته مكتفيًا بإشارة من سبابته.

عيناه كانتا تبرقان استياءً، لكن تعابير وجهه كانت مصابة بالخرس، بينما نطق لسانه آمرًا: «هل لديك أي جديد؟».

- رسمي بيك، ما يحدث أمر خاطئ.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنك كنت محقًّا، التهديد حقيقي، وعلاء تعرض للقتل ولم ينتحر.

- المقدم الذي حضر بالأمس قال إنه لا توجد شبهة جنائية.

- المقدم مخطئ.

- هل يعقل أن كل الأشخاص الذين جاؤوا بالأمس لا يدركون الفرق بين قتل وانتحار؟

- إنهم يدركون فقط ما ترغب أنت فيه.

فكر قليلًا وقال: «إذًا هم أذكى منك بكثير».

- رسمي بيك، أنت قلت لي بنفسك إن لديك شكوكًا بأن أحد أفراد عائلتك...

قاطعني بنبرة قاطعة: «انس كل ما قلته لك بالأمس، كل شيء اختلف اليوم، ثم كيف يمكن لحي أن يقتص من ميت؟».

الآن بات الأمر مفهومًا، العجوز يحرك خيوطه ليتلاعب بي بعد أن صرت عبئًا عليه.

- يمكنك المغادرة بعد أن تشرب قهوتك، أنت تعرف طريق الباب.

قلت متمسكًا بالقشة قبل أن تنقصم: «هناك أمر آخر».

- ما هو؟

- الرسائل، السبب الذي أحضرتني لأجله، أنا لم أنجز مهمتي بعد.

عض على إبهام متجعد وقال بعدها: «الأمر لم يعد مهمًّا الآن ما دام تحقق ما جاء فيها، لكن لا بأس، أخبرني بما تعرفه».

- أحتاج إلى بعض الوقت فقط، هناك أمر عليَّ أن أتأكد منه.

- إصرارك مثير للإعجاب حقًّا.

- لست معتادًا الفرار من أي قضية كانت.

قال بنفاد صبر قبل أن يدير لي ظهره: «أيًّا كان الأمر، أنهِه سريعًا».

- حسنًا.

- لا تطل البقاء، لدينا دفن وعزاء ويوم حافل.

راقبت الرجل الكبير وهو يمشي عائدًا إلى صومعته قبل أن أنطلق باتجاه السلالم مندفعًا، مررت من أمام الممر المفضي إلى المطبخ ورأيت سامية تخوض جدالًا حاميًا مع أحد ولديها الصغيرين، حوار من طينة لا مزيد من الآيس كريم أيها الطفل السمين المدلل الذي أتمنى لو لم أنجبه، أو ما شابه ذلك.

صعدت السلالم اللولبية مثنى وثلاث، مشيت أتهادى باتجاه الغرفة التي سكنت وحيدة في زاوية قريبة من الجهة التي تطل على الساحة الأمامية، كانت ووندر ووومان لا تزال تقف على الباب من دون أن تطير، تجاهلت نظراتها الليزرية وطرقت على رأسها.

- من؟

- روبي، أنا المحقق عصام، هل يمكن أن آخذ القليل من وقتك؟

- لحظة واحدة.

لكن اللحظة امتدت إلى دقيقة، ثم ظهرت الفتاة الصغيرة.

- ماذا تريد؟

قابلت هجومها الجاف بعرض سلام.

- جئت لأطمئن على أحوالك، لقد بحثت عنك بالأمس ولكنك لم تظهري في أي مكان.

قالت بصراحة: «كنت أختبئ، لا أحب أن تستجوبني الشرطة، لكن أظن أنهم لم يسألوا عني حتى».

- لا بد أن الأمر كان صعبًا عليك.

قالت لا مبالية: «أنا بخير، ليست هذه أول مرة أرى فيها شخصًا ميتًا».

ثم أتبعت عبارتها بابتسامة وصلت متأخرة.

- هل يمكن أن أطرح عليك بعض الأسئلة؟

لكنها فاجأتني قائلة: «هل يمكن أن أطرح عليك أنا سؤالًا؟».

لم تنتظر مني أي رد وأردفت: «ما الذي يدفع والدي ليقتل عمي علاء؟».

- ماذا تعنين؟

- أعني أني أتفهَّم سبب غضب والدي من جدي، لكن والدي ليس قاتلًا، يستحيل أن يفعل ذلك، لو أنه سيرغب في قتل أحد فعلًا، فإنه سيكون جدي.

- روبي، والدك لم يقتل أحدًا.

- عمي بهجت قال إنه فعل.

- عمك بهجت مخطئ، ولا يوجد عاقل يمكن أن يصدق كلامه، يبدو أن عمك يؤمن بالخوارق والروحانيات أكثر من إيمانه بالواقع.

أجهضت بيدها ضحكة قبل أن تولَد، ثم قالت: «عمتي سامية لم تكن تؤمن بالروحانيات، كانت تقول دائمًا إن الأشباح خرافة، لكنها بدلت رأيها حين بدأت الرسائل في الظهور، قالت إن والدي يحاول التواصل معنا بطريقة ما، كانت مقتنعة بذلك بغرابة شديدة، وجدي بدأ يقتنع بالأمر أيضًا، ورامي كذلك».

- بعض الناس يقولون أشياء لا يصدقونها هم أنفسهم، والدك المرحوم بريء من أي تهمة، وأنت أكثر شخص يجدر به أن يعرف ذلك.

- ماذا تعني؟

ابتسمتُ بينما أحاول أن أحدد فيما إذا كنت أقف في حضرة ممثلة أخرى من الفئة العنكبوتية، ثم رميت بصري وراءها حيث كان بإمكان عيني أن تكشف الكثير، لمحت آلة تشيللو، وكمانًا كهربائيًّا موصولًا بقابس، فتاة موسيقية ولكنها تتحلى بالهدوء خوفًا من أن تسبب أي إزعاج لأحد، لديها سرير دائري ونافذة مربعة، وعلى الجانب الأيمن للجدار ملصق لفرقة غنائية انفرط عقد أفرادها منذ زمن سحيق، وبجانبه إطار لوحة مائل لرجل وامرأة وقفا متلاصقين، لم أكن في حاجة إلى أن أستخدم نسبة الـ 10% المتاحة من عقلي لأدرك أن الصورة عائدة إلى والديها المتوفَيين، على ملامحهما ارتسمت ابتسامة لا تعبِّر عن مستقبل سيحل عليهما مثل لعنة.

- لماذا لا تعزفين؟

- أنا أعزف طوال الوقت.

قلت نافيًا: «الآلة لم تُستخدم منذ وقت طويل، بإمكاني أن أرى الغبار على سطحها من مكاني».

اعترفت قائلة: «أنت محق، لقد توقفت عن العزف منذ أن توفيت والدتي، لكني تركت الآلة أمام صورتهما لأني أعرف أنهما يحبان رؤيتها هنا، أنا لا أحب أن أزعج أحدًا بعزفي السيئ على أي حال».

هذه الفتاة عزلة وحدها تذكِّرني بشخص أعرفه جيدًا، محقق فذ ولامع وصاحب سجل مميَّز.

- روبي، هل كنت أول شخص اكتشف الجثة؟

- لا، إحدى الخادمات هي من فعلت، كنت في غرفتي حين سمعت صراخها المزعج، ركضت في الممر ورأيت سامية تقف عند باب الغرفة، وقد طلبت مني ألا أدخل الغرفة، ثم بدأت تتمتم باسم والدي وتهديداته...

- أنا لا أقصد هذه الحادثة، أنا أقصد حادثة أخرى سبقتها بسنة تقريبًا.

- آه...

تنهدت وقالت: «أجل، أنا أول من اكتشف وفاة والدي».

- لا بد أنها كانت صدمة مؤثرة، لكنك مع ذلك تصرفتِ بذكاء، بالمناسبة، الإجابة هي أنت.

- ماذا تقصد؟

- أتذكرين حين قلتِ لي في آخر مرة إن هناك من كذب عليَّ في أثناء الغداء حول مكان وجوده؟ لقد كنتِ أنت من كذب.

ابتلعت لعابها كأنها تبتلع ضفدعًا.

- لا أفهم ما الذي ترمي إليه.

- روبي، أعرف أنك أخفيتِ مذكرات والدك ورسالة الانتحار بعد أن اكتشفتِ وفاته، وأعرف أيضًا أن تلك الرسائل كانت طريقة والدك للتنفيس عن إحباطه، وأنه حين هدد جدك بقتل أحد أولاده فإنه كان يعني نفسه بذلك مشيرًا إلى نيته في الانتحار، وأعرف أنك من كان يمرِّرها أسفل

باب المكتب حتى تصل إلى جدك بعد أن كنت تنزعين الطرف العلوي للصفحة لإخفاء التاريخ، وأنك من مرَّر لي الرسالة في غرفة الضيوف.

قالت أخيرًا بعد لحظة صمت يسودها أسى مكتوم: «أنا لم أقصد أي شيء...».

قاطعتها مطمئنًا: «لا داعي للشرح، أنا أفهم سبب قيامك بذلك جيدًا، وأنت محقة، كان على جدك أن يعرف كم عانى والدك بسببه».

اكتفت بإيماءة تتبعها دمعة صغيرة.

- لماذا تركتِ لي رسالة في غرفة الضيوف؟

تبدل الحزن سريعًا إلى مرح، قالت: «حين عرفت سبب إحضار جدي لك، خطر لي أن أتسلى قليلًا، يمكنك أن تقول إنه نوع من التحدي».

فكرت في أن هذا هو ما يمكن أن يخطر لمراهق طبيعي أن يفعله، الرسائل مجرد مصادفة في غير ميعادها.

- هل أنا متورطة في وفاة عمي علاء؟

إطلاقًا، أنت فقط من أشعل الفتيل دون قصد، لكني لم أقل ذلك وإنما اكتفيت بالنفي ثم طلبت منها أن تحضر لي ما بقي لديها من أوراق والدها، طلبت بحزم رجل بالغ وأطاعت بسلوك طفلة، غابت في الداخل للحظات ثم عادت ومعها دفتر الشبح الذي انتقمت له الكلمات، ووضعته في يدي كأنها تضع قطعة من روحها.

- ماذا الآن؟

- سنذهب إلى جدك ونخبره بالحقيقة.

- لكني خائفة.

- روبي، والدك وعمك، كلاهما مات خائفًا، لكن أنت ما زال بإمكانك أن تقفي في وجه مخاوفك قبل فوات الأوان، بالمناسبة...

قلت وأنا أتصفح الدفتر سريعًا: «أين رسالة الانتحار التي تركها والدك؟».

- والدي لم يترك أي رسالة انتحار وراءه، لم يكن هناك سوى دفتر المذكرات أسفل مخدته، ولا شيء آخر.

3

سرت عائدًا باتجاه مكتب العجوز برفقة رسائل ميت وفتاة، لكن عقلي سار في اتجاه آخر مختلف، نفق في نهايته ضوء لا ينتمي إلى عالم أحيا فيه، إلى حياة يشترك فيها أحياء أموات مع أموات أحياء، ربما أن من تجنيت عليهم بالخبل كانوا هم العاقلين في نهاية المطاف، ربما توجد أشباح تعيش بيننا ولكن العقل اعتاد تكذيب الشعور.

وصلت إلى الغرفة ودخلت دون استئذان، وجدت العجوز جالسًا وسط كل رجاله وقد وصلوا من المشرحة للتو، ابن غامض وآخر مرتبك وحفيد أرعن، أعين كثيرة صوِّبت عليَّ مثل أشعة ليزر تخترق الدروع، وضعت الدفتر أمام طاولة العجوز مثل هبة مقدسة وأعلنت بصوت فارس: «هذه هي جميع رسائل المرحوم فؤاد».

- ماذا تعني؟

- الرسائل التي كتبها ابنك لك قبل وفاته، لكنه مات قبل أن يطلِعك عليها.

- كيف عثرت عليها؟

قلت وأنا أنظر إلى روبي بطرف عين: «هناك من أرشدني إليها».

أصر العجوز: «من الذي أرشدك إليها؟».

قلت بثقة بائع تين شوكي لا يرتدي قفازات: «روح روبي، ابنة فؤاد الميتة».

توالت الشهقات تباعًا حتى أُصبت بصداع في رأسي، منها صيحة مستنكرة صدرت عن الفتاة التي تقف بجانبي، قبل أن تقول بنبرة لا تقل استنكارًا: «أنا لست ميتة، أنا على قيد الحياة».

- لماذا إذًا لا يراكِ أحد غيري؟

قال العجوز: «غير معقول».

سألت لمجرد السؤال: «هل تراها أنت أيضًا؟».

قال كمال: «جميعنا يمكننا رؤيتها، ما الذي دهاك يا حضرة الضابط؟».

حسنًا، الفتاة حية بقدر الهواء الذي أتنفسه، ربما تماديت قليلًا وطاشت مخيلتي، لذا قلت مستبدلًا بخطئي حكمة عميقة وردت للتو: «ليس شرطًا أن يموت الإنسان حتى يتحول إلى شبح، يكفي أن يتجاهله الأحياء».

قال رامي بعد أن تخطى جمود ملامحه: «أنا ما زلت لا أراها».

مخبول مثل والدته، لم أكلف نفسي عناء الرد، وإنما خاطبت العجوز مستعيدًا هيبتي: «رسمي بيك، الآن وقد انتهينا من حكاية المرحوم فؤاد ورسائله، علينا أن نركز في حكاية أخرى أكثر أهمية، هناك قاتل يتجول في بيتك».

لكن انزعاج العجوز تخطى حدود كلامي، كان الحزن يغزو ملامحه للمرة الأولى، كان يرغب حقًّا في تصديق وهم حتى عمي بصره عن الحقيقة.

تدخلت لأعيده إلى الواقع: «رسمي بيك، سعيك للخروج بأقل الأضرار لن يكون مجديًا هذه المرة لأنه سيتسبب في المزيد من الخسائر».

تدخل بهجت قائلًا: «والدي متعَب، ولدينا عزاء لنخطط له، ربما من الأفضل أن تغادر».

رمقته بنظرة أفلتُّ زمام حدتها، وخاطبته بثبات اختل انفعاله: «حين غادرت حفل الزفاف برفقة علاء لم تعودا إلى هنا مباشرة واختفيتما لساعات، هل يمكن أن أعرف سبب اختفائكما كل هذا الوقت؟».

قال مستدعيًا هدوء أعصاب لا يملك منه شيئًا: «ذهبنا لإكمال السهرة في أحد الملاهي الراقية، وحين بدت عليه آثار السُّكر أعدته إلى غرفته، ثم أخذت سيارته وعدت بها إلى بيتي، هل أنت راضٍ؟».

- وهل أنت من وضع المخدر في شرابه؟

فتح فمه مثل تمساح ينتظر دوره لتنظيف أسنانه، بينما تابعت: «هل كنت وحدك حين أدخلته إلى الغرفة أم كان معك شخص آخر؟».

- هذا ليس من شأنك.

- أعلم أنك بحاجة ماسة إلى النقود، إلى أي مدى يمكن أن تصل حتى تحصل عليها؟

ثم رمقت الساعة التي يرتديها بيده التي يبلغ ثمنها ضعف راتبي وقلت: «أرى أنك بدأت تستخدم مقتنيات المرحوم علاء منذ الآن».

تدخل العجوز ليقصم ظهر اندفاعي: «هل نسيت نفسك؟».

- أنا أقوم بواجبي.

- أنت موظف عندي، شخص استأجرته، أنت لست ضابط شرطة حتى.

زفرت الكلام قائلًا: «رسمي بيك، المسألة لم تنتهِ بعد، قد لا يكون بمقدورك أن تفعل شيئًا لفقيدك الأول، لكن بإمكانك أن تحقق العدالة لابنك الثاني».

- لا، ليس على حساب ابن آخر.

الآن بدأ الغمام يزول عن أفكاره، لكن العجوز قرر أن يضع عصابة سوداء على عيني بعد أن صارت الرؤية واضحة.

أحيانًا تفلت الأمور من زمام يدي سيكولوجيًّا، فأنا في جوانب عديدة لم أكن قد وصلت إلى مرحلة النضوج بعد، كنت لا أزال أتدحرج بين الطفولة والبلوغ مثل كرة بولينج، هذا ما اعتقده الطبيب النفسي الذي واظبت على زيارته إلزامًا لمدة ثلاثة أشهر بعد حادثة سفاح العاهرات، ابن سيادة وزير الداخلية.

- رسمي بيك، أعلم أنك تدخلت لتحريف تقرير الطبيب الشرعي المتعلق بالمرحوم فؤاد، أنا الآن أطلب منك ألا تتدخل، أن تتفادى الفضيحة أمر وأن تتستر على قاتل أمر آخر.
- حضرة الضابط، زن كلامك قبل أن ترميه من فمك.
- نفوذك لن يفلح في إنقاذ من بقي من أولادك، من قتل ابنك علاء لم ينتهِ بعد، ومقامرتك ستكون خاسرة.

لكنه كتم هديري بعبارة واحدة: «خدماتك لم تعد مرغوبة، غادر منزلي حالًا».

الإصرار في عينيه الضيقتين لم يكن يقبل أي نقض، لذا فقد أدرت له ظهري أخيرًا بعد أن أدار عني رأسه.

روبي اقتربت مني قبل أن أغادر وقالت هامسة: «شكرًا لك، لوهلة ظننت حقًّا أن أحدًا لم يعد يراني في هذا المنزل الفسيح».

غادرت المكان بدماغ يغلي ودخانه يتطاير، في السماء تفجرت الشمس وفي عقلي تصادم حجران وأحدثا شرارة أيقظت بركانًا، لكني لزمت الصمت قهرًا، ابتلعت خيبتي وملوحتي والمرارة وغادرت القصر إلى حيث ظننت أن لا رجعة، وبسمة لم تلحق بي لمواساتي! آه، كم يمكن للمخيلة أن تكون مضحكة، وصلت إلى البريوس خاصتي مرورًا بصف من سيارات باذخة، لكن سيارة بهجت القديمة لم تكن من بينها، تفوق معنوي آخر راح إلى غير رجعة، العجوز على الأقل لم يطلب مني أن أعيد النقود التي حصلت عليها كدفعة مسبقة، ما زال هناك جانب ممتلئ من الكوب، يمكنني أن أحدق إليه حتى يتبخر أو أصاب بالعمى.

مضيت في طريقي غير مأسوف عليَّ، خفا حنين وقفا في وداعي، بقاؤك ثابتًا حين يختل توازن العالم هو في حقيقة الأمر سقوط انفرادي، لكني قررت ألا أغرد وحيدًا هذه المرة، سبق أن فعلت وسقطت على أم رأسي، سأتابع حياتي بعيدًا عن منزل العناكب، مضيت أجوب في الطرقات تجوالًا حتى استقر رأيي على مطعم أفرغ غيظي بين مكنونات صحونه، لمعدتي عليَّ

حق ملء أمعائها والطعام الجيد له مفعول كالسحر، يمكن أن ينتشل غريقًا من بحر اكتئابه.

كنت على وشك الوصول إلى شقتي بعد أن أعدت شحن طاقتي جسدًا وروحًا، حين تلقيت مكالمة غير منتظَرة.

- أهلًا يا مصطفى.

- هل وصلت إليك آخر الأخبار؟

لستُ مهتمًّا، إذ لم يعد يعنيني حاليًّا سوى خبر وفاتي الذي تأجل إعلانه، لكن الفضول في صوته دفعني لأسأل: «أي خبر؟».

- هناك سيارة انقلبت على الطريق السريع، وقد أصيب سائقها بأضرار جسيمة ونُقل إلى المستشفى بين الحياة والموت.

- مصطفى، حوادث السير تحدث يوميًّا، لذا ما الذي يعنيني...

- الشخص الذي في السيارة هو أحد أبناء رسمي عناكب.

قلت بنبرة خرجت عن السيطرة: «أنت متأكد؟».

- المصاب ذكر بالغ يُدعى بهجت عناكب، كان يسير بسرعة عالية وانحرف عن الطريق فجأة على ما يبدو، السيارة ذات دعامة قوية ولا توجد بها الكثير من الأضرار، على العكس من سائقها.

سألت بدَهيًّا: «هل الحادث مدبَّر؟».

- لست متأكدًا، لكن يبدو لي ذلك، الفوضى تعم المكان وهناك ألوان صبغية في كل أرجاء السيارة.

- ماذا تقصد؟

- قد يبدو هذا غريبًا، لكن يبدو كما لو أن قنبلة مفرقعات ملونة انفجرت في السيارة، من النوع الذي يلهو به المراهقون هذه الأيام.

- أعطني العنوان.

- لا، لن أفعل ذلك، لو عرف المقدم أني من أرشدك إلى هنا سأقع في المشكلات، لكن يمكنك أن تبحث في المواقع الإخبارية...

لا نية لي بذلك، هناك مكان آخر عليَّ أن أعود إليه، حيث تبدأ الحكاية وحيث يُفترض أن تنتهي، استعدت حماستي جسدًا وروحًا، ربما كُتب عليَّ أن أغرد وحيدًا في نهاية المطاف.

أدرت وجهتي بمقدار مائة وثمانين درجة، وعدت للإبحار في زحام الكباري وأنا بكامل قواي العقلية، لكن الأمر يستحق، وبينما كنت سارحًا في مساري تكشفت لي احتمالات كثيرة عليَّ أن أتحقق منها.

4

رجل الحراسة أخبرني أن السيد الكبير غادر برفقة كمال وبسمة إلى المستشفى لأن بهجت تعرض لحادث، لكني تكلمت بلهجة راوٍ عليم بسير الأحداث ومجريات الأمور وأخبرته أن رسمي بيك أرسلني لإحضار بعض الأوراق المهمة من غرفة مكتبه لأجل التأمين.

كان مرورًا سلسًا بلا أي عواقب، السيد نسي أن يأمر رجال أمنه بمنعي من الدخول لحسن الحظ، شكرًا لألزهايمر ولنقص هرمون الـ B 12.

فتحت لي الباب إحدى الخادمات، حاولت أن تشرح لي أن القصر شبه خالٍ لكني تظاهرت بعدم الفهم إلى أن يئست ومضت إلى حال سبيلها، وجدت نفسي وحيدًا في الردهة ذات الأطراف المترامية، وحيدًا مع مهمة محددة، قرع آلة وترية وصل صداه إلى مسامعي، روبي الصغيرة قررت أن تتحرر أخيرًا.

سرت بخفة على رؤوس أصابعي مثل لص تسلل إلى بيت غادر أصحابه، صعدت إلى الطابق العلوي عبر السلم الاحتياطي الذي تستخدمه روبي، صوت أنغامها علا رنينها لكني مشيت بعكس اتجاهه، البنت لم تكذب حين قالت إنها لا تجيد العزف، حاولت أن أدخل شقة كمال لكن بابها كان موصدًا في وجهي، باب حديث النشأة ولا تفلح معه الحيل التقليدية لشخص مثلي، قديم الطراز يقود سيارة عتيقة، بقية الغرف كانت مغلقة بالمثل باستثناء غرفة علاء، لكني كنت موجودًا هنا لأبحث في خزائن الأحياء، يمكن للموتى أن ينتظروا إلى وقت آخر ما دام لم يعد لديهم ما يرغبون في إخفائه.

عدت أدراجي إلى الأسفل خالي الوفاض بجراب فارغ، نزلت من السلالم ذاتها وسرت في الممر الضيق المفضي إلى المطبخ، لمحت نديم يجلس عند باب الحديقة الخلفية ودخان سيجارته الكثيف يطفو في الهواء، شخص آخر على قائمتي التفتيشية، والجاكيت خاصته كان معلقًا على حامل بالقرب من آلة الثلج التالفة، سرت ثابتًا بأنفاس مقطوعة ومددت يدي إلى جيوبه ثم خرجت بسلسلة مفاتيحه، عدت أدراجي أتسحب حتى باب غرفته وفتحت قفلها ثم أعدت المفاتيح إلى مكانها، فعلت كل ذلك دون أن يشعر بوجودي، أخيرًا، غرفة لم تستعصِ أقفالها عليَّ، جهودي لم تُهدر كليًّا ومحاولاتي لن تذهب سدى.

غرفة مدير البيت وطباخه وسائقه الاحتياطي تفوق صالة شقتي طولًا وعرضًا وارتفاعًا، أثاث عصري وأنيق مثل صفحة في كتالوج، فيها لمسة أنثوية لا وجود لصاحبتها، لكن المخابئ ستكون هي ذاتها منذ أن قرر أول شخص في العالم أن يحفظ سرًّا عن أعين الآخرين.

إذًا، ما الذي يُفترض أن أبحث عنه؟

مشيت باتجاه خزانة الملابس التي رصدت اقترابي بمرآتها ولم تحرِّك ساكنًا، لكني لم أقف كثيرًا لأبدي إعجابي بذوقه في أزياء لم أرَه يرتديها، وغابت يدي بين الرفوف وتحت طيات المناشف الناعمة، راودني عن نفسي شعور بأن هناك عينًا تتلصص عليَّ لكني لم أرَ أحدًا عند الباب ولا في أي مكان به ثقب، دلفت إلى الحمام الملحق بالغرفة وبحثت في الرفوف فوق المغسلة، قنانٍ صغيرة من أدوية سائلة وصلبة إنما لا غبار عليها، عدت إلى الغرفة وعاودني إحساسي بوجود متلصص غيري لكني تجاهلته، فتشت أدراج التسريحة وتحت مرتبة السرير وفوق رف الكتب التي بدت أوراقها جديدة لم تُمس باستثناء كتاب واحد من بينها، وفيه عثرت على ضالتي، صورة وحيدة بين طيات كتاب مهترئ يحكي عن فنون الطبخ.

ربما حان الأوان لتتحول ظنوني إلى حقائق، وقرائني إلى أدلة، وملاحظاتي العابرة إلى استنتاجات مكتملة، أعدت الصورة إلى بطن الكتاب، وأعدت ترتيب أفكاري من آخر نقطة حفظ في نظام عقلي، إنجاز بالنسبة إلى شخص لا

يعرف عما يبحث عنه، لكن إذا كنت لا تعرف عما تبحث فإن أي شيء تعثر عليه سيكون هو الشيء الصحيح.

انتهيت من حملة التفتيش في أقل من دقيقتين، رقم قياسي يصعب تحقيقه حتى في عملية سطو هوليودية، ربما أكره حياتي حاليًّا، لكني أحب أن أكون ذلك الشخص، المحقق الفذ واللامع وصاحب السجل...

- ما الذي تفعله هنا؟

قفزت من مكاني فزعًا، ثم تذكرت أني ضابط شرطة وأعمل حاليًّا محققًا خاصًّا ولا يجدر بي أن أشعر بالفزع، لذا فقد استعدت رباطة جأشي سريعًا.

- كنت أبحث عنك.

- كيف دخلت إلى الغرفة؟

- وجدت الباب مفتوحًا.

- مستحيل، لقد أغلقته بالمفتاح.

أخرج سلسلة المفاتيح من جيبه لكي يتأكد، بينما قلت: «ربما نسيت أن تغلقه، لقد كنت أبحث عنك بالمناسبة».

- كنت هنا في المطبخ طوال الوقت، ما الذي تحتاج إليه يا حضرة الضابط؟

حضرة الضابط! شخص آخر لا يعرف أن خفَّي حنين سارا في رثائي ظهيرة هذا اليوم. قلت وقد استعدت انتفاشتي المفقودة: «السيد الكبير طلب مني الحضور إلى القصر لأتحقق من بعض الأمور، لديه شكوك بشأن حادثة بهجت المفجعة».

أومأ موافقًا وانتظر.

- هل تعلم إلى أين كان بهجت مغادرًا؟

- إلى بيته، زوجته اتصلت به وطلبت منه أن يحضر بسرعة لأن أحد أولاده سقط في أثناء اللعب وتسبب في كسر يده.

أمسكت أطراف شاربي الوهمي تبرمًا وسألت: «هل كنت موجودًا بالقرب منه حين تلقى المكالمة؟».

- ليس تمامًا، لكن صوته كان عاليًا جدًّا وهو يتحدث، ثم غادر المكان مهرولًا.
- وأين كان بقية أفراد العائلة؟
- جميعهم كانوا موجودين في البهو، لم يغادر أحد القصر منذ مغادرتك، لكن يا حضرة الضابط، ألا يُفترض بك أن تعرف كل هذه الأمور؟ ألم تذهب لرؤيتهم في المستشفى؟

سؤال محرج ومربك في آن واحد، أشحت بوجهي ونظرت إلى الصورة المعلَّقة على الجدار.

- من هذين الشخصين؟

رمقني بطريقة جعلتني أشعر بأني طرحت أغبى سؤال في التاريخ.

- هذان والداي.

تابعت كلامي لمجرد الكلام: «هل كانا قريبين؟».

- لا، لكنهما من البلد نفسه.
- آه، متى وافتهما المنية؟
- منذ أن كنت طفلًا صغيرًا، والدي أولًا ثم تبعته والدتي بعد بضع سنوات.

حينها لمعت في عقلي ومضة، حلقة أخرى مفقودة من سلسلة لا نهاية لها، حدقت إلى وجهه متأملًا وفي ذهني ثارت أعاصير، كيف فاتني ذلك؟ إلى أي مدى يجب على المرء أن يفتح عينه حتى يتمكن من الرؤية؟ أدق التفاصيل، لقد كانت هناك طوال الوقت.

أطرقت مفكرًا في هول ما استنتجه عقلي بينما اعتقد نديم أني سرحت بعيدًا خلف الغيوم.

- هل جئت لتسألني عن والديَّ؟
- قطعًا لا، لدي سؤال آخر، لكني أشك في أنك ستجيبني عنه بصراحة.
- أنا شخص صادق على الدوام يا سيدي.
- ما رأيك في السيد رسمي؟

- رجل جيد، وقد ساعدني كثيرًا.
- إذًا أنت لا تكرهه.
- أكرهه؟ بالطبع لا، السيد اعتنى بي بعد وفاة والدتي.
- وأنت تعتني به في المقابل.
- يمكنك أن تقول إن المنفعة بيننا متبادلة.
- آه، جيد، ما رأيك في بسمة؟
- الآنسة بسمة فتاة طيبة، وتعاملني بشكل جيد جدًّا.

سألته مباغتًا: «أنت تعرف أن الآنسة بسمة متبناة، أليس كذلك؟ هي ليست ابنة رسمي بيك ولكنها ابنة شقيقته».

- بلى، أعرف، الكل يعرف، لكن ما علاقة ذلك بما يحدث؟
- ربما تكون له علاقة، وربما لا تكون له أي علاقة.

كانت اختلاجة بسيطة، جزء من ثانية ارتباك لا يظهر بالعين المجردة ولا بمجهر مصطفى المتطور، ثم سرعان ما تحول الجمود إلى شيء شبيه بالقلق مكسو بقناع من البرود المفتعَل.

- أي خدمة أخرى؟ لأني أرغب في تبديل ملابسي، هناك مشوار عليَّ أن أقوم به قبل أن تعود العائلة، عليَّ أن أصطحب رامي إلى مديرية الشرطة.
- لماذا؟
- ضابط البحث الجنائي يريد أن يحقق معه بخصوص إحدى ألعابه التي انفجرت في السيارة، يعتقدون أنها ما تسبب في الحادث.
- آه، حسنًا، أين هو رامي الآن؟
- ستجده يسبح في البركة، ما زال يشعر بالاضطراب منذ أن عرف بالأمر، ووالدته موجودة هناك أيضًا.

تركته يغلق بابه في وجهي ومررت من المطبخ بروية ثعلب، وقفت عند الباب ونظرت من زاوية ضيقة، كان رامي في البركة وسامية تجلس على أحد

المقاعد وتحدق إلى الأفق، والطفلان يلعبان غير بعيد تحت رعاية خادمة، نظرت أسفل مني ولمحت عقب سيجارة أعلنت وفاتها قبل أمد قصير، حملتها بإصبعين وقرأت العلامة التجارية، جميع من في هذا القصر يدخنون سجائر مستوردة ذات خامة وفخامة، كأنهم تعلموا شرب السجائر على يد معلم واحد.

تركت رامي وسامية دون أن أحاول إزعاجهما بحضوري الثقيل، وعدت أدراجي إلى الخارج محمَّلًا بالمزيد من الاحتمالات، مشتبَه بهم ودوافع وأدلة، حروف تحتاج إلى من يعيد ترتيبها.

في الطريق أطلقت العنان لسماعة هاتفي الخارجية، عاجلني مصطفى قائلًا قبل أن أنطق بحرف: «لقد مات المصاب».

- توقعت ذلك...

نطقت العبارة بلساني وذهني معًا، ثم تابعت: «على أي حال أنا لم أتصل بك لهذا الغرض، هناك خدمة أخرى سأطلب منك القيام بها».

- لا.

- هذه ستكون آخر مرة، ولن تستغرق الكثير من وقتك، وستكون مدفوعة الثمن.

أخبرته بما أريد، فكر قليلًا، ثم قال: «حسنًا، لكني منشغل الآن، سأقوم بذلك غدًا صباحًا».

نهشتني أنياب الأسئلة في اللحظة التي أنهيت فيها المكالمة مثل حيوانات ضارية، رسمي عناكب يفقد ابنًا آخر، حدث تنبأت به قبل ساعات قليلة فقط بخبط عشواء، عبارة ألقيتها في وجه العجوز في لحظة غضب عابرة.

هل صرت منجمًا حقًّا؟ أم أن عقلي الباطن يعرف أكثر مما يظهر؟ الحكاية الكلاسيكية ذاتها التي تتكرر في كل زمن حتى صار توقعها سهلًا.

5

قرع جرس الباب أخرجني من طور أفكار تشابكت مثل أغصان شجرة عمياء، قطعت عصفًا ذهنيًّا أجريه مع نفسي ومشيت نحو الباب بخطوات تستشعر حرج موقفها، من يمكن أن يطرق باب وحيد مثلي لا يفتقده إنس ولا جن؟! فتحت الباب باحتمالات محدودة ولكن رائحة العطر النفاذة فضحت صاحبتها قبل أن تطئها عيني.

- سيدة هيفاء، أهلًا.

لم تنتظر إذنًا لتنفذ من فرجة صغيرة بين كتفي اليسرى وحافة الباب، احتلت خطواتها الصالة في ثوانٍ لتحدث ضجة أعادت الحياة إلى أثاث مات منذ زمن، هذا آخر ما كان ينقصني، امرأة تشتت تركيزًا لملمتُ شتاته بالكاد، طرحت عليَّ سؤالًا تعرف إجابته مسبقًا: «زوجتك ما زالت في بيت أهلها؟».

- لم ترجع بعد، أنا في البيت وحدي.

تمتمت بصوت خفيض التقطته أذناي بالكاد: «غريب».

فتحت ستار عباءتها سهوًا لتكشف عن ثوب ضيق بلون الدم ثم أعادت تغليف جسدها لتزداد عباءتها شدة فوق شدتها، ممتلئة تتفجر أنوثة أمام جائع يتوهم الشبع، أشحت بصري بعيدًا وقلت: «أي خدمة؟».

اقتربت مني بخطوات تتمايل لتخطف معها ما بقي من هواء يسبح في فراغ الصالة، انتصب جسدي ارتعاشًا بينما كانت تمرر يدها قريبًا مني تتلمس خطوط الباب الدقيقة وهي تقول: «ألن تدعوني إلى فنجان قهوة؟».

قتلتُ بصيلاتي هرشًا وقلت: «أنا مشغول الآن».

- لماذا تبدو متوترًا؟ أنا لست غريبة.

بقيت أقف بينها وبين الباب مثل علامة تعجب بين جملتين، قبل أن أخطو مبتعدًا وأنا أقول: «سيدة هيفاء...».

قاطعتني وهي تقتل الباب غلقًا: «هيفاء دون ست».

تجاهلت مداخلتها التي قُتلت في الأفلام بحثًا وقلت: «لدي قضية بحاجة إلى كامل تركيزي».

رمقتني بنظرة عتاب عشيقة لعشيقها، وقالت وقد تدلت شفتها السفلى: «تطردني من بيتك؟».

اقتربت مني خطوة أتبعتها بثانية ثم ثالثة، قالت بدلال: «أهون عليك؟ تكسر خاطري بهذه الطريقة؟».

قلت مرمِّمًا دفاعات بدأت تتهاوى: «أنا لم أقصد ذلك، أنت مرحَّب بك ولكن كما قلت لك، أنا وحيد في البيت وزوجتي لم تعد بعد».

داعبت خصلة نافرة التفت حول سبابتها مثل أفعى عاصرة.

- وما المشكلة؟ هل تخاف أن أعضك؟

جرس الباب قُرع مجددًا ليقطع حوارًا داخليًّا دار بين عقلي وأحد أبالسة الخلوات، تبعه صوت جهوري يهتف: «يا عصام باشا، أنا جابر، جارك في البيت المجاور».

تجمدت خلايا دماغي وحرت جوابًا للحظة، بينما كانت هيفاء تمارس لطمًا دون صوت.

- زوجي! يا للفضيحة! لقد انكشف أمرنا.

همست حانقًا: «أي أمر يا بنت المجنونة؟ ثم ما الذي جاء بك إلى هنا وزوجك في البيت؟».

رفعت عباءتها حتى ذقنها وهي تقول مرتعدة: «سأختبئ في خزانة غرفة النوم».

قلت مستدركًا ويدي تقبض على ذراعها متلبسة: «لن تذهبي إلى أي مكان».

دفعتها باتجاه الباب ثم فتحته أمام كومة العضلات الذي حدجنا بنظرة فيها خليط من أفكار ذاهلة ومدهوشة، هيفاء ابتلعت لسانها ووجهها أرغى وأزبد، لكن لساني حافظ على هدوء أعصابه مرحِّبًا: «أهلًا سيد جابر، زوجتك جاءت لتسأل عن الحالة الصحية لوالدة جيهان زوجتي، كثَّر الله خيرها، هي وجيهان صديقتان».

طبعًا جيهان لم تكن لديها أي فكرة عما إذا كانت هناك هيفاء تعيش على وجه الأرض أصلًا، لكنها التقطت الإشارة وقالت مؤكِّدة: «صحيح، لا تنسَ أن تنقل لها تحياتي».

تجمدت ملامح وجهه مثل قالب طوب نُقش عليه رأس آدمي، انتظرتُ عاصفة على هيئة لكمة لم تأتِ، الرجل قرر أن يحفظ وجهي وماء وجهه مداريًا تشوشه بابتسامة ضبط بها أوتار أعصابه.

- كيف أصبحت صحتها الآن؟

- من هي؟

- حماتك.

- آه، الحمد لله، أحسن.

- جيد، جيد، المهم، بما أننا جيران منذ بعض الوقت، وحضرتك ما شاء الله ضابط شرطة كبير ولك وضعك في المديرية...

أعرف مثل هذه المقدمات جيدًا، لكنه تهاون معي حين عثر على زوجته في شقتي ولم يبادر إلى تحطيم فكي لذا قررت أن أتهاون معه بالمثل. قلت مبتسمًا: «أي خدمة؟».

- ابن شقيقتي أنهى دراسته ويرغب في الالتحاق بكلية الشرطة، ربما يمكنك أن تكلم أحد اللواءات من أجله.

ما الذي يظنه هؤلاء القوم بي؟ أنا لست وزير الداخلية، أنا الشخص الذي قتل ابنه.

- بكل سرور، اترك لي بياناته وسأكلم مدير البحث الجنائي شخصيًّا.

كشر كاشفًا عن أنياب قرش بما يُفترض أنها ابتسامة مفتوحة.

- شكرًا لك يا حضرة الضابط.

غادر وزوجته في أذياله تجر أطراف عباءتها، أغلقتُ وراءهما الباب وأوصدتُه بالمفتاح وأنا أفكر في أن أقطع حلق الجرس حتى لا يصرخ مجددًا، لكن الجرس الباقي من حقبة ما قبل التاريخ شأنه شأن الشقة وساكنها وكل ما فيها خالف أوامري العقلية قبل أن أصرح بها، دوي مزعج ألهب طبلة أذني مثل داء المرارة، يمكن لأتفه الأشياء أن تتحول إلى صداع مزمن في الرأس في حال ركزت عليها، تغريدة عصفور غاضب ليست استثناءً على ذلك، حتى العصافير التي تربت في أشجار الشوارع لم تكن لتسبب هذا القدر من الإزعاج. جرس بابي يغرد مرتين في ليلة واحدة، ما الذي فعلته في حياتي البائسة لأستحق ذلك؟ أنا مجرد قشرة بيض سقطت في المقلاة سهوًا.

زفرت وأنا أفتح الباب ثم توقفت زفرتي في حلقي لتسبب لي اختناقًا جزئيًّا تخلصت منه بنوبة عطاس طارئة، بينما اكتفت جيهان بأن حدقت إليَّ بعينين تضحكان.

تمالكت نفسي أخيرًا بعد شبهة احتضار وقلت: «ماذا تفعلين هنا؟».

- جئت لأعرض عليك هدنة، وأمد لك يدًا متعاونة.

لكن كلتا يديها كانت مشغولة، إحداهما حملت ملفات وأوراقًا، والأخرى قبضت على رزمة من شراب الشعير بنهكة الأناناس، وهي اليد ذاتها التي رفعتها في وجهي، فعلًا، لا يعرف ذوقك أكثر من طليقتك، لكن هذا ليس وقت الوقوف مثل رجل ثلج يذوب كمدًا، أفسحت لها الطريق مرحِّبًا ولا خيار آخر أمامي.

خلعت جيهان حذاءها المطاطي بسلاسة دون تدخل جراحي، وأزاحته بقدميها كيفما اتفق مثلما تفعل دومًا، لاحقتها بأنظاري بينما سارت باتجاه

الصالة التي كانت تحفظ تجاعيد جدرانها جيدًا، وألقت بنفسها على أفضل كنبة، عدو يعرف ساحة الحرب جيدًا وأعد لها العدة.

- الشقة على حالها منذ تركتها قبل شهور.

جلست قبالتها ونطقت بأغبى عبارة استهلالية: «أنت الآن أصبحت غريبة عن المكان».

لكنها لعبت أوراقها بشكل جيد، ردت عليَّ بهدوء دون فتور أو غضب لدرجة أني شعرت أنها غريبة عني حقًّا: «لست غريبة كليًّا، ما زالت لي ذكرى في كل شبر، ربما كان عليَّ أن أطلب الحصول على الشقة أيضًا».

أفلتت مني ضحكة خرجت نتاج أعصاب اهتزت، لعنت في سري التعديلات العصرية التي طرأت على قوانين الأحوال الشخصية لتواكب التقدم الحضاري بينما أقول متظاهرًا بمرح لم يكن له أثر: «كنت سأمنحك إياها عن طيب خاطر، هذه الشقة قديمة أصلًا ويمكن أن تنهار في أي وقت».

- دعك من هذا كله، نحن الآن أولاد الحاضر، جئت لأعرض عليك هدنة مثلما ذكرت لك.

لكنها لم تعرض عليَّ سوى علبة شعير تلقفتُها احتضانًا، بينما تابعت: «كلانا الآن يحقق في قضية مشتركة، ربما يمكن أن ننجز أكثر في حال تعاونا معًا».

استعدت ريقًا مدمغًا بنكهة الأناناس المثلج وقلت: «هل رئيسك على دراية بهذا التعاون؟».

- ذلك الكريه، بالتأكيد لا، هذه الزيارة ستظل سرًّا بيننا.

ثم بدأت تكشف أوراقها التي سرعان ما تناثرت فوق سطح الطاولة الصغيرة التي كانت تفصل بيننا مثل محرم في الوقت الذي كنت أرقص فيه طربًا لاستخدامها كلمة كريه تصف بها شخصًا كريهًا.

- أخبرني، ما هو الانطباع الذي تكون لديك عن حادثة الأمس؟ أنت كنت موجودًا في المكان قبلنا ولا بد أن عينك التقطت ما لم يُتح لنا رؤيته.

لم أكن مستعدًّا للتطبيع معها بعد، فهي لم تعد شريكة فراش أستأمنها على أسراري بنصف وعي، لكني في المقابل كنت أجلس بحضرة أول محقق بحث جنائي من الجنس الآخر، وهي زوجتي السابقة علاوة على ذلك، ومشاعري حيالها لم تكن قد نضبت بعد، خضت جدالًا داخليًّا مثل كل مرة أصادف فيها بابًا تمنيت أن يظل مغلقًا بينما أصارع لفتح أقفاله.

- هاه، ماذا قلت؟ يمكنني أن أبدأ أولًا إذا رغبت في ذلك.

تنفس صدري ارتياحًا لهذا العرض السخي وقلت: «أخبريني بما فاتني من أحداث الجريمة الثانية».

قالت وهي ترمق خطوط أوراقها تصفحًا: «بهجت توفي في حادث سير مدبَّر، للوهلة الأولى يبدو أن علبة مفرقعات نارية ملونة قد انفجرت وتسببت في إبعاده عن الطريق، بالتحقيق مع رامي الحفيد الأكبر لرسمي عناكب الذي عُرف عنه إدمانه لهذا النوع من الألعاب لم نتمكن من تأكيد الأمر، ربما تكون إحدى ألعابه أو أن شخصًا آخر اشترى لعبة مماثلة، وهي من النوع الذي يحمل مؤقتًا أوتوماتيكيًّا بحد أقصى خمس عشرة دقيقة، ويبدو أنه فُعِّل في وقت مماثل تقريبًا للوقت الذي ركب فيه المرحوم السيارة، أو ربما قبل ذلك بفترة قصيرة جدًّا، لكن رامي أنكر ذلك، وما يدعم كلامه بالإضافة إلى شهادة أفراد عائلته، أنه كان موجودًا في غرفته في الوقت الذي يُفترض أنه تم توقيت القنبلة فيه، وكان يمارس لعبة فيديو تفاعلية مع عدد من أصدقائه، الكاميرا كانت تبث صورته مباشرة وهذا الوقت مثبَت في ذاكرة اللعبة، ويمكن لبقية اللاعبين أن يشهدوا بذلك أيضًا إذا لزم الأمر، كما أنه لا توجد أي طريقة ليحزر فيها أن بهجت كان سيغادر في ذلك الوقت تحديدًا، كما أنه لا يملك أي دافع».

- إذًا فقد أطلقتم سراحه؟

- هذه الطبقة من البشر لا يمكنك إبقاؤها رهن الاعتقال دون دليل صريح بالإدانة، لم يكن هناك أي سبب لإبقائه على الرغم مما جاء في تقرير السموم الأوَّلي.

انتظرت قليلًا حتى تحدِث الأثر الدرامي اللازم قبل أن تقول: «القتيل لم يمت بسبب الحادث مثلما يبدو عليه الأمر من الوهلة الأولى، لقد مات بواسطة غاز سام».

صفر فمي اندهاشًا بينما تابعت: «تركيبة مطورة من سم الرايسن ذات تأثير مضاعَف وتأثيره أسرع، ما زال المختبر الجنائي يعمل على معرفة المزيد من التفاصيل، لكن الظاهر أن هناك شخصًا ما دس الغاز السام داخل العلبة، تلك النوعية من الألعاب تعتمد على أكياس تشبه البالون المطاطي المقوى وبداخله خليط من الأصباغ الملونة، وحين يُشغَّل المؤقت يصدر أمرًا إلى جهاز صغير ملحَق بالبالون ليبدأ بملئه بغاز الهيليوم تدريجيًّا حتى ينتفخ البالون وينفجر مما يؤدي إلى فتح غطاء العلبة وتناثر الأصباغ في وجه الشخص القريب من العلبة، هناك من أضاف السم إلى أسطوانة الغاز الصغيرة بكمية كبيرة يمكن أن تفتك برجل بالغ في ظرف دقائق، وباختصار، القتيل لم يكن يملك أي فرصة للنجاة من اللحظة التي انفجر فيها البالون ووصول الغاز المسموم إلى جهازه التنفسي».

قلت مبديًا خلاصة انتباهي المطلق: «ماذا عن كاميرا السيلفي والكاميرات الجانبية للسيارة؟ هل تمكنتم من استرجاع ذاكرتها؟ لا أظن أنها ستتعطل بسهولة».

- للأسف، طريق آخر مسدود، هناك من أوقف تفعيل الكاميرا الداخلية في المركبة وأفرغ الذاكرة الحالية، وهو أمر يسهل القيام به من خلال لوحة الأوامر في السيارة، لكننا لا نعرف فيما إذا كان بهجت هو من قام بذلك بنفسه أو شخص آخر ولم ينتبه هو لذلك.
- إذًا فإن بهجت كان مستهدَفًا بذاته وهناك من حرص على أن يراه ميتًا.
- تمامًا، لكن من هو هذا الشخص وما هي دوافعه؟

معضلة أخرى من بين معضلات، لذا قلت مستنتجًا: «ربما كان رغبة في الانتقام من العجوز، أو المال، أو الكراهية، لكن ماذا عن المشتبَه بهم؟».

- هذه معضلة أخرى، لا يوجد لدينا مشتبَه بهم إلى الآن، السيارة مزودة بنظام مسح بالأشعة فوق الحمراء، لن يستطيع أحد أن يفتحها ما

لم يتعرف عليه الذكاء الصناعي في السيارة أو يحمل مفتاحًا يدويًّا، والمفتاح الوحيد كان بحوزة القتيل وهو غير قابل للنسخ، لكننا لم نتحقق بعد فيما إذا كان نظام التعرف على الوجوه قد أعيدت برمجته ليحفظ أشخاصًا آخرين باستثناء مالك السيارة الأصلي.

- تقصدين علاء؟

- تمامًا، سيكون علينا أن نعيد استجواب الجميع في الغد للتأكد من هذه النقطة، لكن الاستجواب الأوَّلي لم يظهِر أي نتائج، جميع قاطني القصر كانوا في الداخل قبل دقائق من مغادرة القتيل ولم يثبت أن أيًّا منهم كان يقف بالقرب من السيارة، كما أن هامش الوقت كان قصيرًا جدًّا ما بين مغادرة القتيل والوقت الذي فُعِّل فيه مؤقت العلبة.

- ماذا عن زوجته رنا؟ ماذا قالت بخصوص المكالمة الهاتفية التي أجرتها قبل أن يغادر؟

- قالت إنها سألت فقط عما إذا كان يعود إلى البيت الليلة أو يبقى في القصر، لكنها لم تطلب منه أن يعود على وجه السرعة.

- إذًا أولاده بخير ولم يُصَب منهم أحد مثلما ادَّعى بهجت.

- صحيح، لقد كان يفتعل ذلك ليغادر، ولكن سبب قيامه بذلك يبقى مجهولًا.

- ربما أن هناك من خدعه بطريقة ما ليركب السيارة.

- هذا محتمل، لكن لا يمكن إثباته.

- نحن إذًا أمام نظرية قاتل شبح مجددًا.

- على أي حال، هذا هو كل ما توصلنا إليه إلى هذه اللحظة، شوقي يرغب في انتظار التقرير النهائي قبل أن يبدأ في البحث عن مشتبَه به، لكني لا أملك برودة أعصابه، ولهذا لجأت إليك، أنت أفضل محقق عرفته في حياتي.

تنفس قلبي ارتياحًا دون الحاجة إلى قصبات هوائية، أعلم أن بإمكان جيهان أن تكون مخادعة لو أرادت، فأنا ما زلت أحفظ كل سكناتها وخلجاتها بين طيات الذاكرة، المرأة التي كانت زوجتي في السراء وإن لم تحتمل

الضراء، لكن تعابيرها الليلة كانت تنضح صدقًا، أنا أفضل محقق عرفته في حياتها قطعًا ما دام منافسي يُدعى شوقي كريه العطار، كم هو جميل أن يأتيك المديح من شخص لم تعد ترتجي شيئًا منه!

قالت وعلى وجهها ابتسامة ذكَّرتني بزمان مضى: «الآن حان دورك لتخبرني بما تعرفه».

حسنًا، هي لم تحاول خداعي بسحر الإغواء على الأقل وهذا دليل كافٍ على حسن النية، لهذا رويت لها كل ما مر بي من أحداث في اليومين الفائتين بلحظاتهما وثوانيهما، وضمَّنت كلامي نتائج واستنتاجات، أخرجت جيهان مفكرتها التي كانت تمثِّل كل ما تفتقد إليها مفكرتي وبدأت تخط فيها أسماءً ومواعيد، من المفيد أن يقوم المرء بعصف ذهني مع شخص آخر غير نفسه على سبيل التغيير، ناقشنا كل صغيرة وكبيرة، منطقية أو خوارقية، ووصلنا إلى نتائج مبهمة، بالإضافة إلى كبير عائلة عناكب، كان لدينا خمسة مشتبَه بهم أحياء وآخر ميت، وباحتمالات متساوية تقريبًا، لم أشاركها اكتشافي الجديد لهذا اليوم لكني لمَّحت لها بما يكفي عن ذلك حتى تلتقط الإشارة وحدها.

ساعتان حل أجلهما قبل أن تقرر جيهان إنهاء الليلة بينما كان الوقت يقترب من منتصف الليل.

- الوقت تأخر، عليَّ أن أعود إلى البيت.

- لمَ لا تقضين الليلة هنا؟

رمقتني بنظرة فيها اتهامات مشكوك في صحتها، لأستدرك: «يمكنك النوم في الغرفة وسأنام أنا هنا على الكنبة، لن تكون المرة الأولى على أي حال».

قالت مبتسمة: «من الأفضل أن أغادر، أنت لن تكون قادرًا على احتمال الحريق ولا إطفائه».

قلت مفتعلًا ضحكة: «هذه مبالغة، أنا رجل بالغ ويمكنني السيطرة على نفسي».

لكن كذبتي كانت مكشوفة، هذه كانت ثاني امرأة أختلي بها الليلة وشيطان الرغبة لا يعرف الرحمة، لذا فقد قُضي الأمر بأن حملت أوراقها ومضت باتجاه الباب وهي تتمنى لي ليلة سعيدة.

«وبعد أن وضعت الحل بين
أيديكم، يشرفني أن أعلن
انسحابي من القضية».

- هركيول بوارو، شخصية روائية

اليوم الخامس

خيوط متشابكة، ولكنها واهية

٦

مع ساعات الصباح الأولى، كنت أقف أمام باب شقة مصطفى، ببيجاما مخططة وعينين نصف مغمضتين، فتح لي الباب فزعًا قبل أن يهدئ من روع حجابه الحاجز حين رآني، مددت له كيسًا بلاستيكيًّا بصحبة مغلف وأنا أقول: «هل ستكون بحاجة إلى الكثير من الوقت حتى تظهر النتائج؟».

- عصام، ماذا؟ الفجر أذن قبل أقل من ساعة.
- أعرف ذلك، لقد صليت في الجامع الذي أمام بيتك.
- ما الذي جاء بك الآن؟ لماذا لم تنتظر...
- هذا أفضل وقت لأصل إليك بسرعة، الناس نيام والزحام لا يزال في خبر كان، الآن، متى ستذهب إلى المختبر؟

نظر إلى ساعته قبل أن يكتشف أنه لا يرتدي ساعة، قال: «دوامي يبدأ عند التاسعة».

- كم تحتاج إلى وقت لكي تكون جاهزًا للذهاب؟

عاد إلى البحلقة لأقول مصرًّا: «أنا بحاجة إلى معرفة النتيجة في أسرع وقت ممكن، هناك أرواح على المحك».

- تحليل مثل هذا يستغرق من ساعتين إلى ثلاث ساعات على الأقل.
- لهذا السبب ستذهب إلى المعمل باكرًا هذا اليوم، سأنتظر حتى ترتدي ملابسك وآخذك إلى هناك قبل الازدحام.

- عصام، هل تشرب الكحول؟

- لا، شراب شعير ومنبهات فقط، أنا لم أنم حتى الآن، كنت ما أزال أفتقد النظرية، وأظن أني عثرت عليها، مصطفى، عليك أن تساعدني لمنع جريمة أخرى.

قال أخيرًا بعد أن أصابه اليأس: «أمهلني ربع ساعة لأرتدي ملابسي».

- سأعطيك خمس دقائق.

عند الساعة الثامنة كنت قد صرت في شقتي مجددًا بعد أن توسل لي مصطفى لكي أغادر قبل أن يصبح وجودي في المعمل مفضوحًا، سيئة أن تكون ضابط شرطة موقوفًا عن العمل وهناك من يترصد لك برتبة مقدم متصيدًا أقل هفواتك. رميت جسدًا منهَكًا فوق السرير وحاولت أن أريح عيني، بينما بقي عقلي يدور مثل آلة تعمل بالطاقة المتجددة، فكرت في أن حمَّامًا باردًا من شأنه أن يقطع دابر الفوضى ويعيد النظام إلى العصبات والخلايا الدماغية بعد أن اختلط حابل إشاراتها بنابله، كنت على وشك أن أخطو إلى الدش حين رن هاتفي الجوال مرجئًا الانتعاش إلى حين، كان رقمًا خاصًّا يتعذر سبر أغواره إلا بالرد على صاحبه.

- صباح الخير، أنا بسمة.

رغم أنفي دق قلبي طربًا ورقص كقرد في مولد، مع ذلك قلت برصانة: «من؟».

- بسمة، ابنة رسمي عناكب، هل تذكرتني؟

- آه، تذكرتك، أهلًا.

يا لي من ممثل بارع! كنت سأرفع لنفسي القبعة احترامًا لولا أني أكره اعتمار القبعات.

- والدي يريد منك أن تحضر إلى منزلنا حالًا لأمر طارئ، قال إنه يرغب في استئجار خدماتك مرة أخرى.

- لا أعلم، ربما تكون لدي مواعيد أخرى.

- هل يمكن أن تتفقد جدولك إذًا؟ من فضلك.

- حسنًا، سأفعل ذلك الآن.

طلبت منها أن تنتظر على الخط ريثما أتأكد، وفتحت مفكرة المواعيد التي أحتفظ بها في رأسي، لدي عدة مشاوير لأقوم بها ما بين المطبخ والحمام وغرفة المعيشة، جدول مزدحم، لكن في حال اكتفيت بأخذ نصف شاور بدلًا من حمام كامل وجمعت المطبخ مع غرفة المعيشة بمشوار واحد، يمكنني أن أوفر القليل من الوقت لأزور بيت العناكب مرة أخرى.

من الذي أحاول خداعه؟ أنا لدي كل الوقت المتوفر في العالم.

قلت بعد برهة: «سأصل خلال ساعة».

- سيكون والدي بانتظارك على الإفطار.

كنت على وشك أن أغلق الخط، ثم سمعتها تقول: «عصام، شكرًا جزيلًا لك».

عصام حاف دون أي إكسسوارات! طرت عاليًا في السماء، لمست سطح القمر وسرقت حلقة زحل وركلت بلوتو بعيدًا عن المجموعة الشمسية، قبل أن أقول: «لا شكر على واجب يا بسمة».

لكنها كانت قد أغلقت الخط سلفًا.

فتحت الخزانة وارتديت ثيابًا داخلية نظيفة، شعرت أني محظوظ لأن جيهان التي غادرت بالأمس دون أن أشعر بذلك لم تجردني منها مثلما جردتني من كل شيء آخر أملكه، أضعت دقيقتين كاملتين قبل أن يستقر اختياري على بذلة بيضاء ما زالت عذراء في غلافها، وفاضلت بين ربطات العنق الأربع التي لدي، ثم قررت ألا أرتدي أيًّا منها، فأنا لا أحب ارتداء ربطات العنق.

عند مدخل العمارة لمحت سمير جالسًا بجذع مرتخٍ وساقين متقاطعتين، هذه المرة لم يقف ولم يهرول باتجاهي، حينها أدركتُ أن شيئًا ما في العالم قد تغير دون أن أنتبه، خاطبني بصوت أعلى من طبقة التذلل المعتادة: «لقد ذهبت إلى قسم الشرطة مع قريبي بالأمس، وقد سألنا وعرفنا أنك أوقِفت عن العمل منذ شهور».

ثم أضاف بفم مفتوح وحنجرة ملتهبة: «يا حضرة الضابط».

ضحكت ملء شدقي وقلت لنفسي أن لا بأس، لست بحاجة إلى احترام وضيع مثله، ولتذهب السلطة إلى الجحيم.

- لقد كنت محقًّا حين شبهتك بقنديل البحر.
- أجل، لقد عرفت السبب، قناديل البحر لا يوجد لها قلوب، أردت أن تشير إلى أن قلبي ميت.
- لا، بل لأن قناديل البحر لا تملك عقولًا لتدرك أن ليس لها قلب.

خمنت أن الأمر سيستغرق منه وقتًا طويلًا ليفهم، أو أنه سيموت دون ذلك.

كنت على وشك أن أدلف من بوابة القصر التي حفظت معالم شكلي حين اتصل بي مصطفى متلهفًا، وكان يحمل لي عبارة واحدة لا ثاني لها.

- النتائج جاءت إيجابية.

2

استقبلني نديم عند الباب.

- مرحبًا بك، مجددًا.

ابتسمت، ابتسامة حقيقية وليست رسمًا على ورق، تحسن مزاجي سريعًا دون سبب، يحدث ذلك عادة في الأوقات التي أكون فيها على أعتاب اكتشاف كبير، تجتاحني السعادة كما لو ابتلعت أقراصًا تسبب النشوة، لكن بوعي دون أن أصدر ضجة، مددت يدي وصافحته بحرارة أثارت استغرابه.

- السيد في انتظارك في المكتب.

وجدته يجلس خلف طاولته، جامد الوجه شارد الدماغ كأنه راح في غفوة ونسي إغلاق عينيه، وقفت دقيقة حداد على روحه التي لم تفارق جسده بعد، قبل أن يستعيد العجوز قدرته على تحويل الأفكار إلى كلام مسموع.

- أظن أني مدين لك باعتذار، لكني سأظل مدينًا لك به لأني لا أعتذر لأحد أبدًا.

في الطريق كنت قد حضَّرت عبارات كثيرة والآن قررت ألا أذكر أيًّا منها واكتفيت من الحياة بعبارة: «لا مشكلة يا رسمي بيك، أنا أتفهم موقفك».

أطرق مفكرًا للحظات ازداد فيها شعره بياضًا، ثم قال: «أنت كنت على حق، لقد ارتكبت أخطاء فظيعة جعلت مني كائنًا ملعونًا، ويبدو أن هذه اللعنة لن تنتهي حتى أصبح وحيدًا تمامًا».

- يمكن للأمر أن يتوقف، شريطة أن تتخذ القرار الصحيح.

- للأسف أصدقك، أنا الآن بحاجة إلى من يتكلم إليَّ وليس إلى من أتكلم إليه، لهذا السبب أعرف أن الشرطة لن تفعل الكثير، ما دفعني لإحضارك إلى هنا مجددًا هو عنادك وإصرارك على إظهار الحقيقة، اعتدت أن ينفذ الناس أوامري ويلبوا رغباتي دون نقاش، كان بإمكاني أن أغير الحقائق، فؤاد توفي بنوبة قلبية ولم ينتحر وسيصدقني الجميع، علاء انتحر ولم يُقتل وسيصدقني الجميع، لو قلت إن الشمس تخرج من المغرب لصدقني الجميع، لعنة أن تكون أكثر ثراءً من البقية، الجميع يطيعك ظاهريًّا، ولكن لا أحد يهتم حقًّا لو كان العالم يسير بشكل خاطئ، هذا ما يحدث حيث تتجاهل ما يمليه عليك الواجب وتنفذ ما يطلبه رسمي عناكب منك حتى وإن خالف ضميرك والتزاماتك، لم يعد أحد يهتم في هذا العالم، حتى لو أشرقت الشمس من المغرب حقًّا، لن يهتم أحد.

استعصى عليَّ فهم ما إذا كان هذا مديحًا لي أم ذمًّا للآخرين أم الاثنين معًا، بينما تابع كلامه بلسان هادئ وبصر شاخص باتجاه نقوش السجادة: «هل أنت على دراية بحكاية الأب الذي جمع أولاده وطلب من كل واحد منهم أن يكسر عصا وحيدة، ونجح جميعهم في كسرها، ثم حين أعطاهم رزمة من العصي فشلوا في ذلك؟».

- أظن أني سمعت حكاية مماثلة.

- الأب كان يحاول أن يعلِّم أبناءه أنهم فرادى يسهل كسرهم، لكن لو تعاونوا معًا فإن أحدًا لن يقدر عليهم، هذا كان المغزى الظاهري من الحكاية على أي حال، أن نتعلم أن في الاتحاد قوة، يصعب كسر الأشقاء حين يكونون يدًا واحدة، لكن ما خفي من الحكاية كان أعظم، لأن أحد هؤلاء الأبناء أمسك بحزمة العصي وبذل كل جهده حتى تمكن من كسرها جميعًا دفعة واحدة ورمى بحكمة والده أدراج الرياح...

ثم رفع رأسه مثل دمية تحرِّكها خيوط ونظر إليَّ قائلًا: «أخبرني، هل هذا ما حصل هنا؟ هل لدي هذا الابن الذي قرر أن بإمكانه أن يكسر إخوته لكي يحصل على ما يريده؟».

- رسمي بيك، مع خالص احترامي لك، لكن أنت لم تشجِّع أولادك على التعاون في المقام الأول، كل ما كان يهمك هو أن تبقيهم تحت السيطرة، ما كان يربط بين أولادك هو مجرد خيوط واهية، قد تبدو متشابكة ومتماسكة من الخارج لكنها يمكن أن تنهار بمجرد النفخ.
- أعرف ذلك، ثمن آخر أدفعه ومعاناة أخرى أتعايش معها، قل لي، من سيكون الجلاد ومن سيكون الضحية القادمة؟ هل سأُفجع بابن آخر؟ هل سيكون كمال؟ أم بسمة؟ أم سأُفجع بأحفادي هذه المرة؟ رامي؟ روبي؟ أو حفيداي الصغيران اللذان لم أحفظ اسميهما بعد؟ أم ستكون سامية؟ الكنة الوحيدة التي اخترتها دون أن أخوض حرب تمرد، أو حتى زوجة بهجت التي رفضتها بقرار قطعي؟ هل سأتمكن من احتمال نقصانهم واحدًا تلو الآخر أم أني سأُصاب بالجنون أخيرًا؟
- رسمي بيك، أظن أنك نسيت أن تذكر ابنًا آخر.
- ماذا تعني؟
- نديم.

تنهيدة أخرى في أقل من دقيقة.

telegram @
yasmeenbook

- كيف عرفت ذلك؟ هل الشبه ظاهر بيننا إلى هذا الحد؟
- فقط إذا دققت جيدًا وعرفت أين تنظر، استغربت في البداية من الطريقة التي كان يتحدث بها، لا يوجد خادم يذكر أسماء مخدوميه مجرَّدة دون لقب، لهذا بدأت أدرك أنه لا يعتبر نفسه عاملًا أبدًا، ولكنه نظير لبقية من في القصر، ثم ازدادت شكوكي أكثر حين رأيت صورة والديه، لا يوجد ابن أقل شبهًا بوالده من نديم مع الرجل الذي في الصورة، ثم قررت أن أحسم الشك باليقين، لذا خطفت عقب سيجارته وأخذته إلى المعمل الجنائي وأجريت تحليل DNA بالمقارنة مع العينات المأخوذة من ابنيك المتوفَّيين، وقد تلقيت تأكيدًا قبل وصولي بلحظات.

- يبدو أن من الصعب إخفاء سر لأكثر من ثلاثين سنة، أليس كذلك؟
- أكثر الأسرار خفاءً هي التي نخفيها أمام أنظار الجميع، لكن لو تمكنت أنا من ملاحظة ذلك فإن بإمكان شخص غيري أن يلاحظ ذلك، لدي شك أن جميع أفراد عائلتك يعرفون الحقيقة ولكنهم يتظاهرون بعكس ذلك.
- هل هذا الكشف يجعل من نديم مشتبهًا به؟
- فقط إذا كان يمكنك أن تخبرني فيما إذا كان يملك دافعًا ليقتل ثلاثة من أشقائه.
- ثلاثة؟
- سيد رسمي، لا أظن أن المرحوم فؤاد قد انتحر حقًّا قبل سنة.

هز رأسه متأسيًا وقال: «كل هذا خطئي».

- فات الأوان على ذلك.
- أنت محق، هذه هي قاعدتي دومًا، لا تنظر خلفك أبدًا.

ثم سرح ببصره بعيدًا جدًّا وقال: «والدة نديم كانت قد بدأت عملها مربية في القصر، فتاة يتيمة جاءت من الأرياف بعد وفاة والدها وزواج والدتها بشخص آخر، وأنا كنت وقتها قد انفصلت عن زوجتي الأولى، فرت إلى الولايات المتحدة وتزوجت بشاب أصغر منها، وتركتني مع ثلاثة أولاد صغار في السن، علاء وكمال وفؤاد، المرحومة نداء ساعدتني في الاعتناء بهم، شابة صغيرة وجميلة، وأنا لم أكن قد بلغت الأربعين من عمري بعد، وكنت دائم الانشغال لأحافظ على إمبراطورية مالية كان والدي يستعد ليورِّثني إياها بصفتي الابن الوحيد بين عدة شقيقات، وكنت أعود إلى القصر متأخرًا على الدوام، منهَك ومثقَل بعقود وأرقام وعطاءات ومشاريع ورِشَى، لكن نداء كانت تستقبلني مثل زوجة محبَّة، وجدت فيها كل ما لم أعثر عليه لدى طليقتي السابقة التي كان اللهو هو أكبر همها في الحياة، وسرعان ما صرنا مقرَّبَين يكمل الواحد منا مشاعر الآخر، ثم وفي إحدى الليالي عدت إلى البيت مثقلًا بآثار الثمالة، ذهبت إلى غرفتها واعتديت عليها جنسيًّا».

توقف عن الكلام لثوانٍ أطلق فيها زفيرًا أشبه بناي قتله الحزن، ثم عاد ليستجمع شتات ذاكرته: «في اليوم التالي كنت قد هيأت نفسي لكل الاحتمالات، سجل هاتفي ودفتر شيكاتي على أهبة الاستعداد سواء قررت التقدم بشكوى ضدي أو إصلاح المشكلة طبيًّا، نادرة جدًّا هي الأشياء التي لا تصلِحها النقود، لكنها ابتلعت مرارة اندفاعي الحيواني ولم تفعل أي شيء، لم يكن هناك سوى صمت ومسحة حزن، كأنها أدركت أن لا شيء يسعها القيام به، بعد أسابيع أخبرتني أنها تحمل جنينًا في أحشائها، وقتها لم أجد أي مشكلة في ذلك، بإمكاني أن أرسلها إلى أفضل أطباء البلد لكي تجهضه، لكنها فاجأتني حين أعلنت عن رغبتها في الاحتفاظ بالجنين، كانت تعلم جيدًا أن من المستحيل أن أعترف به أو أطلبها للزواج، لأن والديَّ لن يسمحا بذلك أبدًا، لن أستبدل بزوجتي الأولى ذات الحسب والنسب -وإن تبين فيما بعد أنها ساقطة- فتاةً تعمل لدينا مقابل أجر، حاولت أن أثنيها عن عزمها محتكمًا إلى الواقع والمنطق، لو علم والدي أو المتشددون من عائلتها بالأمر فإنها لن ترى نهار يوم جديد، أصرت على الرفض مع ذلك، طلبت مني أن أساعدها حتى تنجب ثم ستلوذ بالفرار إلى مكان بعيد ولن أسمع عنها ولا عن ابنها مجددًا، لكني عثرت على حل آخر، أحضرت شابًّا مريضًا قريبًا لها وعرضت عليه الزواج بها مقابل مبلغ مالي يمكن أن يساعد عائلته لكي تحظى بحياة كريمة بعد وفاته ووافق على الفور، نداء قابلت اقتراحي بحزن شديد، ربما كان لديها أمل أن أتحدى والدي وأطلب يدها للزواج، في النهاية تزوجت بالشاب الذي أحضرته ورحلت لتسكن معه، علمت بعدها أن زوجها توفي متأثرًا بمرضه أخيرًا، ونداء عملت سكرتيرة في شركة سياحة بتدخُّل مني دون أن تدرك ذلك، ثم ابتعدتُ عن طريقها».

تنهد محرزًا هاتريك في أقل من خمس دقائق ثم أردف: «تزوجت بفتاة أخرى من عائلة عريقة اختارها لي والدي وأنجبت منها بهجت، لكن زواجي الثاني لم يُكتب له النجاح مثل سابقه وإن اختلفت الأسباب، قررت بعدها أن أعزف عن الزواج نهائيًّا وأكتفي بتبديد طاقتي في العمل نهارًا وتجديدها بالترفيه والسهر في النوادي والكباريهات ليلًا، وقتها كان والدي قد أصبح طاعنًا في السن وأولادي ما زالوا أصغر من حمل أي مسؤولية مما تسبب

في زيادة أعبائي وانشغلت عن مراقبة نداء وابنها تمامًا، ثم توفي والدي لاحقًا لأكتشف فجأة أني قد صرت الآمر والناهي داخل القصر وخارجه، وصار الجميع يتملقونني لذاتي وليس لمكانة والدي، حينها قررت أن أصحح الخطأ الذي وقعت فيه قبل عشر سنوات وذهبت لأبحث عن نداء وأطلب يدها للزواج، لكني وصلت متأخرًا جدًّا، نداء كانت قد فارقت الحياة قبلها بأسابيع فقط، كانت مصابة بالتهاب القولون التقرحي منذ أن كانت صغيرة وازدادت مضاعفات المرض فجأة حتى أصبح مهدِّدًا للحياة، لم تكن قادرة على تحمل تكاليف العلاج وعزة نفسها منعتها من اللجوء إليَّ، لذا فقد رضيت بقدرها صابرة وآثرت أن تحتفظ بالنقود القليلة التي جمعتها لابنها، لابننا الذي حمل اسم شخص آخر، كانت قد تركته في عهدة شقيق لها، لكني فعلت ما أفعله دومًا، أغريتهم بالمال مقابل أن أحصل على الصبي، وأصبح يعيش معي من وقتها».

- ومتى صارحته بالحقيقة؟

- حين صار كبيرًا بما يكفي، صارحته بالحقيقة واشترطت عليه إبقاء الأمر سرًّا.

- وكيف كانت ردة فعله حين عرف؟

- تقبل الأمر بطريقة جيدة، أن تحصل على نصف أب ثري خير من لا شيء، ثم كان عليَّ أن أمنحه الخيار الذي حصل عليه إخوته، أن يبقى معي هنا ويحظى بحياة كريمة وراتب مرتفع لا يحلم بالحصول عليه في أي مكان آخر بالإضافة إلى حصة من الميراث، أو يغادر ولا يحصل على أي شيء، وقد وافق على عرضي وأدى دوره بامتياز حتى هذه اللحظة، وأنا أوفيت بجانبي من الاتفاق وتركت إقرارًا مسجَّلًا لدى المحامي للاعتراف به كوريث شرعي لي.

- رسمي بيك، هل تدرك أنك منحتني دافعًا جديدًا للتو؟

- ماذا تقصد؟

قوطعت بطرْقات يبدو عليها التهذيب، ليطل نديم بعدها بشحمه ولحمه، سأل بعفوية كالعادة: «هل أحضر الإفطار؟».

- لا، لا أشعر برغبة في الأكل الآن.

ثم نظر إليَّ مستفهمًا فقلت: «لست جائعًا أنا أيضًا، لكني سأرحِّب بفنجان قهوة، دون إضافات».

قال العجوز: «وأنا أحضر لي كوب الأعشاب المعتاد يا بني».

رمقه نديم مستغربًا قبل أن يغادر، لينظر إليَّ بعدها ويسأل: «ما الذي كنت توشك أن تخبرني به للتو؟».

لدي نظرية، نظرية حقيقية مثل بصيرة رجل أعمى، لكن عليَّ أولًا أن أمعن في التأكد.

- ما زال عليَّ فهم كيف تمكن القاتل من تنفيذ كلتا الجريمتين دون أن يكون قريبًا من المكان، وفي حال توصلت إلى ذلك، فإني سأتمكن من معرفة ما سيقوم به القاتل تاليًا، الدليل موجود هنا في القصر.
- حضرة الضابط، افعل ما تراه مناسبًا، إما أن تفك هذه اللعنة، وإما أني سأصبح وحيدًا جسدًا مثلما أنا وحيد روحًا.

3

صعدت السلالم الرئيسية هذه المرة، ودون أن أحاول إخفاء رائحتي، عودتي كانت رسمية وموثقة ومظفرة، المحقق الفذ واللامع وصاحب السجل الأكثر من مميَّز عاد إلى العمل، عقلي معالج بيانات متعدد المهام بسرعة 10 جيجا هرتز دون الحاجة إلى مبرد، خطواتي واسعة كحبار عملاق وعيناي رادار روسي، أجريت مسحًا سريعًا للممر الفارغ إلا من خادمة تزيح الغبار من فوق أجساد التماثيل قبل أن أدلف إلى غرفة علاء التي لم يعد يهتم بإغلاقها أحد، قد أجلت التنقيب عن خبايا مسكنه إلى حين ولكن الوقت لم يعد رفاهية بعد الآن.

وقفت أمام البقعة التي جفت وتأملت جسدًا لم يعد معلَّقًا إلا في ذاكرتي الفوتوغرافية، جسم كائن بشري يتأرجح كبندول ساعة قديمة ملت من احتساب الوقت، أنا في المكان المناسب للبحث عن شيء لا أعرفه لكني يمكنني أن أعثر عليه.

استعدت أفكارًا دارت في رأسي مثل عجلة روليت على مدار يومين وليلتين، بفارق أنها الآن كانت تستمد طاقتها من قلب الحدث، أنا بحاجة إلى المغناطيس الذي سيتسبب في إيقاف العجلة على الرقم الفائز.

علاء دخل غرفته بتأمين من بهجت في وقت ما بين الرابعة والخامسة فجرًا، فارق الحياة ما بين التاسعة والعاشرة واكتُشفت جثته في الساعة الثانية، وهناك من تدخل لتغيير صفة باب غرفته ما بين إغلاق وفتح.

هل كان بهجت هو من فعل ذلك؟ قطعًا لا، هو كان موجودًا في البداية لكنه لم يكن حاضرًا في أثناء النهاية، غادر فجرًا ولم يعد إلا بعد اكتشاف الجثة، لا توجد طريقة ليفتح الباب مجددًا.

علاء لفظ أنفاسه في وقت ما بين التاسعة والعاشرة، حيث غادر أهل المنزل ومن بقي منهم لم يكن لديه سوى هامش وقت ضئيل جدًّا باستثناء شخص واحد لديه كل المقومات اللازمة، أو أن علاء كان وحده حين قررت الروح مغادرة الجسد ولم يكن برفقته إنس ولا شبح.

القاتل لم يرد أن تُكتشَف الجثة إلا بعد ساعات، لماذا؟ سؤال بدَهي، لأنه يخفي شيئًا ما، ودرجة الحرارة العالية في الغرفة، هل قصد استعجال الجسد ليتحلل في وقت أسرع؟ ولماذا ستكون لديه مشكلة في ذلك؟ وماذا عن فتحات التهوية؟ هل كانت الأصوات التي تسمعها سامية عائدة إلى شبح فعلًا مثلما هيأت لها شريحة دماغها؟ أم أن بداخل الأسقف والجدران خبايا لا تُرى إلا بالعين الثاقبة؟ وإلى أي مدى يمكن أن تكون الفتحات والشقوق واسعة؟

لانت مني التفاتة باتجاه بقية الغرفة، في اللحظة التي هبط فيها مذنب ليشق عنان قشرتي المخية ويستقر في رأسي كفص جبهي ثالث.

آه، يا أولاد العناكب، كان يجب أن أحزر من البداية.

غادرت غرفة المرحوم بعد أن انتهيت من إتمام «لماذا» و «كيف»، أما «من» فلا تزال حائرة مثل كرة بين مرميين، لكني لن أعدم الهجمات المرتدة.

مشيت بخطوات سببت رضوضًا لسطح السجادة، أمامي ممر طويل لكني لن أعدم الوسيلة لقطعه طولًا وعرضًا وارتفاعًا لو أردت، على أعتاب إقفال قضيتي الأولى كمحقق خاص غير معترَف به محليًّا أو دوليًّا، وقفت أمام باب جديد من سلسلة أبواب مغلقة، هذه المرة لجأت إلى أسهل الطرق بعيدًا عن تعقيدات اللصوصية والتجسس، خيط رفيع عليَّ أن أتمسك به قبل انقطاعه، تقدمت بثبات وطرقت على الباب ثم انتظرت، ليظهر من خلفه كمال بقميص أبيض نصف مفتوح وربطة عنق تنتظر من يعقد حلها.

- ماذا تريد؟

- هل يمكن أن ندردش قليلًا؟

- بشأن ماذا؟

- بخصوص القضية، والدك طلب مني أن أنظر في الأمر مجددًا.

أفسح لي طريقًا لمحرابه وهو يقول: «حاول أن تسرع، فقد صار لدينا عزاءان الآن».

خطوت إلى صالة واسعة تبتدئ بأرائك وطاولات وتنتهي بشرفة وستارة، بينما اختفى كمال خلف باب إلى اليمين حيث يوجد حمام إلى جانب غرفة نوم، مشيت بخط مستقيم وتركت بصري ينحرف بدرجاته كيفما شاء، ما الذي أبحث عنه؟ وهل سأعثر عليه هنا؟ مضيت أبحث عن تفاصيل فوق صفحات جدران بيضاء وبين شقوق أثاث داكن، حتى وصلت إلى حيث تسطع الشمس من باب زجاجي يخفي وراءه إطلالة ذات دعامات حجرية مزخرفة ومن ورائها تمتد حديقة القصر الخلفية انتهاءً بسور عالٍ، الشرفة كانت تطل على الحديقة الخلفية وعلى بعد أمتار قليلة من شرفة القتيل بثوب منتحر، وبالأسفل لمحت نديم يحاول إقناع الطفلين بالخروج من المسبح في مهمة قررت والدتهما الانسحاب منها، لم يعنِ لي هذا سوى أنني سأعود أدراجي إلى الأسفل لأجد أن قهوتي لم تجهز بعد.

- ما الذي تريد أن تحدِّثني عنه؟

استدرت لأحجب أشعة الشمس بظهري ونظرت إليه متأملًا قبل أن أمعن النظر في زوايا الجدران والسقف.

- هل لديكم مشكلات في الأنابيب أو في التهوية أو الجدران أو ما شابه؟

- ماذا تقصد؟

- زوجتك قالت إنها تسمع صوت المرحوم فؤاد في بعض الأحيان، لذا فكرت في أنها ربما تتخيل الأمر، يعمد العقل أحيانًا لتصور أمور غير حقيقية بناء على أصوات أساء تفسير مصدرها.

- لا شيء من هذا القبيل، هل هذا ما أردت أن تسألني عنه؟

- لا، قطعًا، أردت أن أسألك عن أحداث يوم أمس، قبل أن يغادر المرحوم بهجت القصر.

كان قد أنهى غلق أزراره وعقد ربطته وارتدى جاكيت أسود اللون فوق ثيابه، ثياب أنيقة في قالب شخص ثري يستعد لحضور جنازة.

- ما الذي تريد أن تعرفه بالضبط؟ سبق أن أخبرت الشرطة بكل شيء.

- أنت كنت موجودًا في القصر حين غادر؟

- أجل، كنا جميعنا نجلس في الصالة، تلقى مكالمة هاتفية من زوجته ثم قرر أن يغادر فورًا، شيء يتعلق بعائلته، أظن أن أحد أولاده سقط وتسبب في كسر يده أو ما شابه.

أحد أولاده؟

سألت مستفهمًا: «أنت لا تعرف أسماء أولاد أخيك؟».

رفع كتفيه لا مباليًا وقال: «لم أرهم في حياتي سوى في مرات نادرة، ولم أحضر أيًّا من أعياد ميلادهم، لذا يمكنك أن تلتمس لي عذرًا في ذلك».

قلت بنبرة متأمل: «أليس من المجحف أن تتحمل وحدك مسؤولية الإمبراطورية التي تركها والدك؟ أعني... لا أحد من إخوتك فكر في أن يمد لك يد المساعدة».

- ليست مشكلة على الإطلاق، لهذا لدينا جيش من المستشارين الذين يتقاضون رواتب باهظة.

مرر إبهامًا على جانب ذقنه الحليق قبل أن يقول: «ربما يمكن أن نجد مكانًا بينهم لضابط شرطة بموهبتك، يمكن أن نستعين بمستشار أمني».

قلت متجاهلًا عرضه السخي بتعفف قديس: «حسنًا، بالعودة إلى أحداث الأمس، أتساءل كيف وصلت إحدى ألعاب ابنك إلى سيارة المرحوم علاء؟ سيارته مزودة بنظام بيومتري وماسح للتعرف على الوجوه بالأشعة تحت الحمراء، لن تفتح أبوابها أبدًا إلا لمالكها أو لمن يحمل المفتاح اليدوي الاحتياطي الذي كان بحوزة المرحوم بهجت، سيارة غير قابلة للاختراق تقريبًا، هل كان علاء يتشارك سيارته مع أحد آخر بحيث يمكن للماسح الحراري التعرف عليه كشخص آمن تفتح له السيارة أبوابها؟».

- لست متأكدًا، ربما والدي بصفته المالك المسجِّل للسيارة، أو نديم لحالات الطوارئ.

- فقط؟

- لا أعرف، أنا لم أكن وصيًّا عليه، الله يرحمه.

- في رأيك لماذا سيكذب المرحوم بهجت؟

- ماذا تعني؟

- أقصد بشأن إصابة ابنه، لأن الشرطة تحدثت مع رنا أرملة أخيك، وقالت إن أولادها بخير وإنها لم تتصل به لهذا السبب ولم تستعجله في المغادرة.

تبدى عليه القليل من الانتباه قبل أن يقول: «لا أعرف، لكنه سيكون أمرًا مثيرًا للاهتمام، أليس كذلك؟ من حسن الحظ أن والدي استأجر خدماتك مجددًا لكي تحل لنا هذا اللغز وتكتشف هوية القاتل».

- المسألة لا تتعلق بمعرفة هوية القاتل، المهم هو إثبات التهمة عليه.

- أنت محق يا حضرة الضابط، الآن، لو لم يعد لديك أي أسئلة أخرى لا معنى لها، أنا مضطر إلى المغادرة.

- سؤال أخير فقط، أين تحتفظون بالقمامة؟

- عفوًا؟

- القمامة، أكياس النفايات، هل تحتفظون بها في مكان ما هنا أم تتخلصون منها فورًا؟

قال بصبر بدأ ينفد مثل بالون مثقوب: «الخادمة تجمع النفايات كل صباح وتنقلها إلى حاوية نفايات خارج الأسوار، لا يوجد لدينا نظام تدوير في حال كنت تسأل عن ذلك، البيئة هي آخر ما نهتم له».

- هل هناك أي أمل في أن أعثر على ما تخلصتم منه بالأمس؟

- حضرة الضابط، أنا في عجلة من أمري.

تدحرجت هبوطًا إلى الأسفل ومضيت إلى الباب الذي كان نديم قد خرج منه للتو بصينية فارغة تبرق لمعانًا، ثم دلفت إلى الداخل حيث كان العجوز يحتضن كوب أعشابه بسخاء.

- جئت في وقتك، لقد وصلت قهوتك.

لكن نديم عاد مجددًا إلى الغرفة قبل أن ينطق لساني كلامًا أو تذوقًا، أعلن قائلًا: «رسمي بيك، الشرطة في الخارج».

أعاد الكوب إلى الطاولة بعد أن كان على وشك أن يصل إلى فمه، هب واقفًا بتعجل يخالف عاداته المتمهلة وهو يقول: «هل لديهم معلومات جديدة؟».

- لا أعرف.

- لنذهب ونراهم إذًا.

شوقي العطار كان يقف منتفشًا في منتصف البهو مثل تمثال فرعوني، وإلى جواره الحمامة الرشيقة التي تُدعى بالمحققة، ومن خلفهما كان هناك أربعة رجال آخرين يقفون على أهبة الاستعداد مثل متسابقين في انتظار إشارة البدء. صوبت بصري باتجاه جيهان التي فرت مني بالنظر إلى السقف المزين بالكريستال، تفعل ذلك أحيانًا حين ترتكب خطأ بحقي حيث تبدأ بعد نجوم السماء.

- جيهان، ما الذي فعلتِه؟

تدخل شوقي ليرمي بفتاته: «حضرة المحقق الخاص، تكلم بطريقة رسمية، أنت تخاطب محققة في المباحث الجنائية».

قلت متجاوزًا خدعة لم تتكشف لي ملامحها بعد: «لا يوجد شخص في العالم يعرف القواعد بقدري يا حضرة المقدم، وأنت أدرى الناس بذلك».

قال متهكمًا: «آه، أنت تعرف القواعد، الضابط الذي قتل ابن وزير الداخلية من أجل حفنة عاهرات».

اللعين، عبارته تعاونت مع الظرف الراهن لاستفزازي، قلت بانفعال: «لقد أرديت قاتلًا متسلسلًا، ولو عاد بي الزمن فإني سأعاود الكرَّة، ربما تجردت

العاهرة من أخلاقها لكنها لم تتجرد من آدميتها، على العكس من أشخاص آخرين».

- ما الذي تقصده بكلامك؟

تدخل رسمي بيك أخيرًا ليوقف نزالًا لا طائل من ورائه: «ما الذي جاء بك يا حضرة المقدم؟».

رمقني شوقي بنظرة عداء مغلَّفة بالضيق قبل أن يبدل وجهته باتجاه الرجل الكبير ويقول: «لقد جئنا من أجل نديم، الرجل الذي يعمل لديك بمهنة مدبر منزل، نديم متهم بقتل ابنيك علاء وبهجت».

تمالك العجوز رباطة جأشه قائلًا: «هل لديك دليل على ذلك؟».

- ربما ليس لإدانته، لكن لدينا ما يكفي لتوجيه التهمة له، نديم هو الوحيد الذي كان موجودًا في الوقت الذي مات فيه علاء، كما كان بإمكانه أن يصل إلى السيارة ويترك العلبة المتفجرة فيها، لكن هذا ليس كل شيء...

اقترب من العجوز مثل ضبع يافع وجد فرصة ليقارع أسدًا عجوزًا، وقال بنبرة خفيضة: «كما أن لديه دافعًا قويًّا ليتخلص من جميع أشقائه، صحيح؟ لقد أصبحنا نعرف الحقيقة الآن، نديم هو ابنك غير الشرعي، وفي حال تخلص من بقية الورثة فإن بإمكانه حينها أن يتقدم ليثبت نسبه البيولوجي كوريث وحيد».

لكن العجوز بقي متماسكًا مثل فزاعة تقف وسط حقل ميت.

- كل ما ذكرته للتو هو مجرد تخمينات، ما هي اللعبة التي تمارسها هنا يا حضرة المقدم؟

- أنا فقط أؤدي عملي يا رسمي بيك، على أي حال، لدي إذن من النيابة بتفتيش غرفة نديم، ربما نعثر على شيء أكثر إقناعًا، وفي حال لم نعثر على شيء فإننا سنعود من حيث أتينا، المشكلة يا سيدي، أن كشف الأسرار يمكن أن يقلب الموازين رأسًا على عقب.

أطرق العجوز مفكرًا للحظة، قبل أن يقول مقررًا: «لا بأس، أدِّ واجبك يا حضرة المقدم».

ثم استدعى نديم الذي لم يبدِ أي اهتمام مطلقًا، مد يده بالمفتاح وهو يقول: «افعلوا ما يحلو لكم».

بان التردد على شوقي لوهلة، كأنه فوجئ بالبساطة التي سار بها الأمر لدرجة أنه بدأ يشكك في مكانه من الإعراب، لكنه لم يبدِ أي نية للتراجع.

- أرنا الطريق إلى غرفتك من فضلك.

سرنا جميعًا باتجاه الممر المؤدي إلى غرفة نديم، وجدت الفرصة لأسير قريبًا من جيهان التي لم يعد لديها المزيد من النجوم المتخيَّلة لتعدها، قلت مغتاظًا: «لماذا خنتِني؟».

قالت دون أن تنظر إليَّ: «خيانة؟ أنا كنت أقوم بعملي».

- آه، هل كان شوقي هو من طلب منك أن تفعلي ذلك؟

- لا، مستحيل، كانت تلك فكرتي وحدي، أنت لا تعلم كم هو صعب على النساء أن يجدن فرصًا...

قاطعتها متهكمًا: «في عالم يحكمه الرجال، لقد حفظت كل عباراتك عن ظهر قلب، هذا لا يبرر الخيانة، كان يمكن أن أكون أبًا لأطفالك، لو أننا رُزقنا بأي أطفال».

شوقي فتح باب الغرفة ودلف إلى الداخل برفقة عساكره الأربعة وبدؤوا في الدوران مثل نحل طنان في حديقة ورود ذابلة، بينما همست لي جيهان بنبرة صادقة: «عصام، أنت لا تفهم، لا أنكر أني استغللتك من أجل الحصول على شيء يساعدني على حل القضية، وقد أخبرت المقدم ببعض مما تحدثنا عنه بالأمس، وقد نقلت له كل ما تناقشنا فيه بالأمس حول أن نديم هو المشتبَه به الأبرز وفقًا للإطار الزمني ولوجود دافع قوي في حال ثبوت نسبه للسيد رسمي...».

قاطعتها حانقًا بينما كان شوقي ينفض الكتاب الذي عثرت عليه بالأمس لتسقط الصورة من قلب أوراقه: «كل ما ناقشناه كان مجرد تخمينات».

- أعرف ذلك، لكن هذا ليس السبب وراء حصول شوقي على مذكرة لتفتيش غرفته.

حينها اكتشفت أن هناك ما فاتني، بينما كان شوقي يشير إلى رسمي بيك بالصورة وهو يقول: «لماذا يحتفظ نديم بصورة للآنسة بسمة بين طيات كتابه؟ وعليها عبارة أحبك إلى الأبد؟».

تجهم وجه نديم وتجنب إبداء أي تعليق، بينما قال العجوز مخفيًا اندهاشه بمهارة متقَنة: «هذا أمر لا يخص الشرطة في شيء».

- معك حق يا رسمي بيك، مع أن الدافع الآن بات أكثر وضوحًا.

ثم طلب من أحد رجاله أن يرفع الفراش عن السرير، بينما وضَّحت لي جيهان الأمر سريعًا.

- لقد تلقينا اتصالًا من مجهول في وقت باكر جدًّا هذا الصباح.

- من هو المتصل؟

- لا نعلم، لم يكشف عن هويته وغالبًا غيَّر صوته باستخدام تطبيق إلكتروني، لكن المكالمة جاءت من الهاتف الثابت في القصر، أخبرنا أن نديم قتل علاء وبهجت وأخفى أدوات الجريمة في غرفته، كما أخبرنا أن بصمة وجه نديم مسجلة في نظام سيارة علاء، ثم اعتقد شوقي أنه توصل إلى الحل بعد أن ربط استنتاجاتي مع فحوى المكالمة.

قاطعتنا صيحة الانتصار التي صدرت عن المقدم، قبل أن يفرغ محتويات الكيس الذي عثر عليه تحت المرتبة فوق السرير وهو يقول: «أرى أننا قد عثرنا على ما كنا نبحث عنه».

صدمتي لم تقل عن صدمة نديم، كلانا تلقى سطل ثلج صُب على أم رأسه، لكني لم أقف متجمدًا مثله وإنما هرعت إلى داخل الغرفة وأنا أتمتم: «مستحيل».

- بالتأكيد، أنت لا تصدق أن بإمكاني أن أحل القضية قبلك، يا حضرة المحقق الخاص.

على السرير كانت هناك قنانٍ صغيرة وعقاقير، نسخة مطورة من حبوب الفينتانيل ذات تخدير طويل الأمد، وقارورة من سم الرايسن، تركيبة معدَّلة يسهل تحويلها إلى الحالة الغازية دون حاجة إلى معالجة مخبرية، ومنفاخ صغير الحجم مع أسطوانة بحجم قداحة، سرنجة مستخدَمة، وقناع لحماية الوجه، وقارورة صغيرة تحتوي على زرنيخ سائل.

قال شوقي حاسمًا المسألة: «الآن بات في حكم المؤكد أن لدينا جريمتَي قتل، لدينا الأدلة، ولدينا الدافع، ولدينا الجاني».

وحين طال انتظاره دون أن أنطق فإنه فسر حيرتي على أنها شكل من أشكال الهزيمة، وطلب من رجاله إلقاء القبض على نديم الذي كان ولا يزال لم يحرك ساكنًا، بينما تدخل العجوز بغضب مبديًا عدم اقتناعه، يمكن أن يصدق أن شبح ابنه الميت ارتكب الجريمة ولكن ليس ابن نداء الطيبة، لكن الأدلة كانت دامغة، الضجة جذبت بقية من في القصر، تجمعوا سريعًا مثل سرب نمل تعثر بحبة سكر، كمال وابنه وزوجته، وبسمة التي وصلت للتو بعد جولة ركض لم يجف عرقها بعد، وحتى روبي الصغيرة لم تغب عن العرض.

بسمة وقفت إلى جانب نديم وقد أبدت استنكارًا مبالَغًا فيه قبل أن يأخذها رجال الشرطة الأربعة إلى الخارج، وجيهان تمسكت بكيس الأدلة مثل جنين أنجبه رحمها للتو، والعجوز استنفد قدرته على الجدال أمام منطق المقدم الذي وضح لهم أن ما عثر عليه للتو كافٍ تمامًا ليدين نديم إدانة لا رجعة فيها، ابن غير شرعي على وشك أن يُحرم من إرثه الشرعي، العقار المخدِّر في الجريمة الأولى والسم المعدَّل في الجريمة الثانية، لكن هناك شيئًا آخر فاته العثور على تفسير له وتجاهل أمره تمامًا.

الزرنيخ لم يُستخدم في أيٍّ من الجريمتين، لماذا عثر عليه في الكيس؟ أم أنه كان هناك لإكمال الزينة.

أفقت من شرود آنيٍّ على صوت جيهان تهمس لي: «كيف فاتك كل هذا بالأمس؟ هل أخفيت عني الأمر؟».

قلت بصوت علا رنينه: «هذه الأدلة ملفَّقة».

قال شوقي مستاءً كجرادة في صحراء جرداء: «لمَ لا تعترف بالهزيمة؟».

لكني حافظت على جديتي شكلًا ومضمونًا.

- لقد فتَّشت غرفة نديم بالأمس، وهذه الأشياء لم تكن هناك، شخص ما دسَّها.

كان شوقي منتشيًا مثل هتلر وموسوليني معًا قبل أن تنقلب عليهم الطاولة، وأنا من سيقلب الطاولة على حضرة المقدم، دون الحاجة إلى أي حلفاء.

قلت بإصرار من رأى الحقيقة وحده: «هناك من يحاول أن يلفق التهمة لنديم، وأنا أعرف هويته».

تنبه العجوز، واتسعت عينا طليقتي اندهاشًا، وقال شوقي مستعليًا: «حضرة المحقق الخاص، دع الضباط الحقيقيين...».

قاطعته بحدة دفاعًا عما لدي: «نديم لم يكن موجودًا في الغرفة حين مات علاء، ولم يقترب من السيارة قبل أن يغادر بهجت، لدي تفسير لكل ما حدث، ورسمي بيك استأجر خدماتي لأعثر على القاتل وهذا ما سأقوم به».

تدخل العجوز قائلًا بحزم: «أريد أن أسمع ما لديك».

- لنذهب جميعًا ونجلس في البهو، وسأقدم لكم القاتل على طبق من ذهب.

قال شوقي منصاعًا: «حسنًا، سأمنحك فرصة إلى حين وصول رجال الطب الشرعي لكي تثبت فشلك مجددًا».

لم تكن لدي مشكلة في ذلك، لو كنت مخطئًا فإنه لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها، أنا موقوف عن العمل ولن أوقَف مرتين، لكن لو كنت مصيبًا...

حسنًا، ربما لن أحصل على شيء أيضًا لأني لا أضمن ما سيكون عليه مزاج كبير عائلة عناكب، لا بأس، على الأقل سأشعر بالرضا عن نفسي، مثل تلك الليلة التي أرديت فيها سفاح العاهرات قتيلًا غير مأسوف عليه.

رسمي كبير عناكب، كمال الجامد، رامي الأرعن، سامية الشاردة، بسمة المبالغة في الشفقة، روبي التي لا تتقن العزف، شبح فؤاد الميت الذي بدأت أشك في أنه يراقب من مكان ما متشفيًا.

معرفة هوية القاتل شيء، وإثبات التهمة عليه شيء مختلف تمامًا.

التقت عيناي بعينَي روبي التي لاح على ثغرها ابتسامة، قلت: «هل يمكن أن أطلب منك خدمة؟».

- بالتأكيد.

مهما تقدم العلم وازدهر، لا يوجد ما هو أفضل من الطرق التقليدية لحل لغز جريمة قتل.

4

- سأبدأ من النقطة التي يعرفها الجميع، وهي بداية ظهور الرسائل، حين قررت روبي أن تشارك خواطر والدها المرحوم مع جدها بتمريرها أسفل باب مكتبه، السيد رسمي لم يأخذ الأمر بعين الاعتبار في البداية، مما أثار غيظ الفتاة فأصبحت تنتقي رسائل ذات لهجة أكثر حدة حتى أصبح الأمر مثيرًا للقلق.

احمر وجه الفتاة مثل حبة طماطم اختنقت بغاز الإيثيلين، قالت متمتمة: «أنا آسفة».

لكن أحدًا لم يلقِ لها بالًا كالعادة، بينما تابعت: «صيغة التهديد الصريحة دفعت السيد رسمي للتفكير في احتمالية وجود خطر حقيقي، نشأ لديه هاجس قوي لم يتمكن من تجاهله، لذا استأجر خدمات محقق يجيد عمله للتحقق من الأمر».

أطلق شوقي نخيرًا عاليًا تجاهلته باحترافية: «طبعًا لم يخطر ببال السيد رسمي أن فؤاد كان قد كتب هذه الرسائل لنفسه كتعبير عن حالة الاكتئاب التي كان يمر بها قبل وفاته، وأن الأمر كان مجرد لعبة تمارسها فتاة صغيرة، ظاهريًّا لم يكن هناك خطر حقيقي وكان يمكن أن تنتهي الحكاية عند هذا الحد، لولا أن شخصًا آخر قرر أن يستغل الأمر ليحول التهديد الظاهري إلى جرائم فعلية، ومن هنا تبدأ فصول حكاية أخرى مستقلة...».

قاطعني شوقي مجددًا: «هل يمكن أن تلخص لنا الأمر يا هركيول بوارو دون الخوض في الكثير من التفاصيل؟».

لم أتمكن من تمييز الاسم الذي أطلقه عليَّ، ولم أكن متأكدًا مما إذا كان يشتمني دون أن أعي ذلك، الله يسامحه على أي حال، تابعت كلامي: «الجريمة الأولى حدثت قبل يومين لكن التخطيط لها بدأ منذ وقت أطول من ذلك بكثير، سلوك علاء ومغادرته في منتصف الحفل كانت مكافأة إضافية سهلت من العملية، بهجت بقي يلازم علاء طوال الليل حتى تأكد من أنه ثمل تمامًا قبل أن يعيده إلى القصر في مشهد يبدو اعتياديًّا ومكررًا، لن يكون من الصعب عليه أن يدس الفينتانيل في شرابه، وحين تأكد من أن علاء غاب عن وعيه تمامًا جهَّز الحبل تمهيدًا لارتكاب الجريمة».

تدخل شوقي مجددًا: «لا يمكن أن يكون بهجت هو القاتل، لأنه قُتل في اليوم التالي في حال أنك لاحظت ذلك».

- وذلك لأن بهجت لم يكن يعمل وحده، فهو بالتأكيد ليس أذكى شخص في سلالة عناكب، هناك شخص آخر كان موجودًا في الغرفة تلك الليلة، وهو من ساعد بهجت في تجهيز مسرح الجريمة ورفع جسد علاء على الحبل، ثم غادر بهجت بعدها مهرولًا، وكان يشعر بالاضطراب لدرجة أن رامي هنا تمكن من سماع صوت خطواته من مكانه في الغرفة، لكن الشخص الآخر كان أكثر انضباطًا وخطط لكل خطوة بعناية فائقة، أغلق باب غرفة علاء بالمفتاح حتى لا تُكشف الجثة قبل الأوان، وبالطبع فقد اعتقد الجميع أن علاء نائم في غرفته بعد ليلة كحولية اعتيادية، وبقي الباب مغلقًا حتى تأكد القاتل من أن الوقت قد صار مناسبًا، فأعاد فتحه وترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي حيث جاءت الخادمة واكتشفت الجثة.

سألت جيهان متلهفة: «إذا كانت الجريمة قد تمت في الرابعة فجرًا، لماذا قرر الطبيب الشرعي أن الوفاة حدثت في الصباح؟».

قلت بثقة: «الأمر بسيط، قالب ثلج».

- قالب ثلج؟

أومأت واثقًا وأردفت: «علاء لديه ماكينة لتصنيع الثلج في الغرفة، تلك الآلات التي روِّج لها مؤخرًا على أنها ضرورة لا غنى عنها في الأيام الحارة، هذه الماكينة تعمل على مرحلتين، حيث تصنِّع قوالب ثلج كبيرة بحجم 30 سم تقريبًا، ويُدفع القالب باتجاه مسننات لتقطيعه إلى قطع صغيرة، لكن من الممكن الحصول على القالب الكبير قبل تقطيعه، وهذا ما حدث في الليلة التي قُتل فيها علاء، بهجت وشريكه المجهول ثبَّتا رقبته على الحبل وأسندا قدميه باستخدام قالب الثلج، بعدها تمت عملية الشنق بشكل بطيء اعتمادًا على ذوبان الثلج من تحته، وبعد بضع ساعات كان قد نقص من القالب ما يكفي بحيث تصبح قدماه في الهواء وازداد الضغط على رقبته حتى اختنق تمامًا في وقت ما بين التاسعة والعاشرة صباحًا، وبحلول الوقت الذي فتح فيه القاتل الباب كان القالب قد ذاب تمامًا، هذا يفسر سبب زيادة القاتل حرارة الغرفة ليسرع من عملية إذابة القالب الكبير، ووجود بقع جافة على السجادة بقدر أكبر من المعتاد، وتفاوت آثار التسلخات على عنقه في عدة مواضع».

لكن شوقي لم يبدُ مبهورًا تمامًا مثلما اعتقدت، قال: «هل أنت مقتنع حقًّا بما تقوله؟».

- هذا هو التفسير الوحيد المعقول، طريقة لإبعاد الشبهة عن الجميع ومحاولة إلصاقها بشبح مزعوم، وبخاصة مع ظهور الرسائل الغريبة، ربما تمكن الشريك من إغراء بهجت بالمال، بالإضافة إلى سيارة علاء ومقتنياته الثمينة التي لن يطالب بها أحد، أيًّا كان الأمر، فإنه تمكن من إقناع بهجت بسهولة، مثلما تخلص منه بسهولة أيضًا.

سألت جيهان التي كانت الأقرب مني: «كيف ذلك؟».

- بهجت بدا متوترًا بالأمس، وبخاصة بعد أن وجهت له اتهامًا صريحًا بتخدير علاء، هذا الأمر تسبب في إفزاعه، ماذا لو أن أصابع الاتهام بدأت تتوجه نحوه؟ حينها أقنعه شريكه المجهول بتنفيذ خطة أخرى لإبعاد الشبهات عنه، وذلك من خلال تدبير محاولة قتل فاشلة بحيث يبدو أن شخصًا وضع له علبة المفرقعات الملونة وتسببت في انحرافه عن الطريق، وبهجت اقتنع بهذه الفكرة بسذاجة اعتيادية وقرر أن

يؤدي دوره بمهارة، تظاهر بأنه تلقى مكالمة هاتفية طارئة، وكان قد حصل على علبة المفرقعات من شريكه المجهول وتركها في السيارة سلفًا، وفي أثناء ركوبه عطَّل الكاميرات الداخلية ثم وقَّت العلبة بنفسه لتنفجر بعد دقائق من انطلاقه، بل إنه قرر أن يفتعل حادث تصادم حقيقيًّا بعد انفجار العلبة، لكن ما لم يحسب حسابه هو أن هذه الخطة البسيطة لم تكن وليدة اللحظة، شريكه كان يسبقه بخطوات كثيرة وكان يخطط للتخلص من بهجت حتى منذ اللحظة التي اتفق معه بها، لهذا حضَّر أسطوانة الغاز السام في وقت سابق وهو لن يعدم المصادر والوقت لذلك، وقد جرت الرياح بما تشتهي سفنه تمامًا، بهجت كان ضحية خدعة كبيرة من البداية، إذ اعتقد بسذاجة أن التهم ستوجَّه إلى شبح المرحوم فؤاد وبخاصة أن الشرطة ستقف عاجزة أمام تفسير لهذه الحوادث دون وجود مشتبَه بهم، لكن القاتل كان يخطط لأمر آخر مختلف، التخلص من علاء وبهجت، الرسائل وشبح المرحوم فؤاد المزعوم لم تكن تعني أي شيء له في حقيقة الأمر، فقد كان يسعى لإلصاق التهمة بنديم من البداية، وأظن أن الجميع هنا على دراية بالسر الذي حاول رسمي بيك إخفاءه عن عائلته لثلاثين سنة، نديم هو ابنه البيولوجي.

كانت روبي هي الوحيدة التي شهقت بصوت عالٍ، قالت: «أنا لم أكن أعرف ذلك».

- الجميع، باستثناء روبي، على علم بحقيقة نديم، لكن شخصًا واحدًا فقط قرر أن يتصرف حيال ذلك، لماذا يحصل نديم على حصة إرثية مساوية للبقية؟ بل لماذا يحصل أي منهم على حصة إرثية؟ وهذا كان الدافع لكل هذه الحوادث، التخلص من جميع الورثة المحتمَلين بدءًا بالمرحوم فؤاد.

احتجت بسمة: «فؤاد لم يُمت مقتولًا».

- للأسف ليس بإمكاني أن أؤكد ذلك الآن، فهو مجرد تخمين يتسق مع الأحداث الراهنة، يصعب عليَّ أن أصدق أن فؤاد قتل نفسه دون أن يترك

رسالة انتحار صريحة، لكن الأوان فات على التحقق من الأمر، لكنه لم يفت بالنسبة إلى شقيقَيه.

سألت طليقتي متلهفة: «من هو القاتل الخفي إذًا؟».

- ليست هذه هي المعضلة، من السهل معرفة القاتل، لكن إثبات التهمة عليه، أمر مختلف تمامًا.

غمزت لروبي التي التقطت الإشارة بمهارة لاعب كرة قاعدة، غابت لدقيقة ثم رجعت ومعها كوب أعشاب سائلة لم يُمس بعد، تناولته منها وقلت: «طبعًا لن يكون من الصعب إلصاق التهمة بنديم، وبخاصة بعد أن عثرت الشرطة على أدلة الإدانة في غرفته، إنما لو كان تقديري صحيحًا، فإن القاتل ارتكب أكبر أخطائه...».

رفعت الكوب حريصًا على ألا يفقد أي قطراته، وأعطيته لرامي الذي حدق إلى كلينا.

- أريد منك أن تتجرع الكوب دفعة واحدة.

سأل متشككًا: «ما هذا؟».

- خليط الأعشاب الذي اعتاد جدك تناوله صباح كل يوم، مفيد للقولون والمسالك البولية.

- لكني لا أحبه.

- سيكون مفيدًا لك جدًّا، يمكنك أن تثق بي.

حملق فيَّ بتردد، وسألني والده: «ما الذي ترمي إليه من وراء ذلك؟».

قلت ببساطة: «أريد أن أعرِّفكم على فوائد الأعشاب».

وقف شوقي على قدميه وهو يقول: «حسنًا، لقد اكتفيت من هذه المهزلة».

بالطبع، لو كان هناك من سيفسد كل شيء سيكون هذا الأخرق، لست مناصرًا للانتحار لكني على استعداد لأن أقتل نفسي قبل أن أقر بالهزيمة أمامه، مهنتي كانت لتصبح على المحك، لو كانت لدي مهنة أصلًا، حقيقة قضت على أي مخاوف، شكرًا للأقدار التي وضعت جبهان على مسافة قريبة مني للغاية، لولا ذلك لما فكرت في القيام بحركة مجنونة مثل هذه، سحبت

سلاحها من غمده بحركة سريعة وصوبته باتجاه رامي، حركتي الأخيرة قوبلت بوابل من الشهقات ومعالم الاستنكار التي لا تضر ذبابة.

سأل شوقي وهو يبسط كفيه أمامي مثل أعمى يبحث عن جدار: «ما الذي تفعله يا مجنون؟».

- عد إلى مكانك يا حضرة المقدم ودعني أقوم بما أجيده جيدًا.

تدخل العجوز الذي لم يرف له جفن حتى: «حضرة الضابط، دع المحقق يتابع شرحه».

انقلبت سحنة شوقي كأن فيلًا داس على وجهه، تردد قليلًا قبل أن يعاود الجلوس وهو يقول: «حسنًا، لا تغضب، نحن لسنا أعداءك، يمكن أن تثق بنا...».

بدأ يتعامل معي كمريض نفسي فر من مصحة للتو، لكني كنت أبعد ما أكون عن الجنون، أنا العاقل الوحيد في مدينة تعطلت فيها الأدمغة لقلة الاستخدام، عدت لأركز مع الشاب وأعشابه.

- اشرب كوبك دون مماطلة.

ارتسمت على عينَي الشاب نظرة تمرد.

- أنت لن تطلق النار عليَّ.

- سبق أن قتلت ابن وزير الداخلية، ولن أتوانى عن قتل شاب مثلك.

عبارة حاسمة قاصمة دفعته لأن يزدرد لعابه قبل أن يقول: «سأشرب الشيء اللعين».

قرَّب الكوب من شفتيه الرفيعتين، لكن والدته أطلقت صرخة عالية.

- لا تفعل.

قال بلا مبالاة: «لا توجد مشكلة، إذا كان الضابط مصرًّا...».

إلا أنها لم تمنحه الفرصة ليسكب محتوياته داخل جوفه ودفعت الكوب من يده ليسقط على الأرض مطرطشًا ملابسه في الطريق، هتف الشاب مستنكرًا سلوك والدته بينما رمقتُها باستغراب مفتعَل وسألت: «سيدة سامية، لماذا فعلتِ ذلك؟».

قالت حانقة: «لست مضطرة إلى تبرير أفعالي لك أو لغيرك».

- أتساءل إن كنتِ تعرفين شيئًا لا يعرفه البقية، بخصوص محتويات الكوب.

لم تجب لأتابع: «هيا، يمكنك أن تعترفي الآن، لقد انكشف كل شيء».

سأل كمال: «ماذا تعني؟».

- ظننت أن الأمر صار واضحًا الآن، سامية هي القاتل الذي نبحث عنه.

- كيف ذلك؟

- لأنها الشخص الوحيد الذي يعلم مسبقًا أن كوب الأعشاب كان مسمومًا.

- مسموم؟

قلت متباهيًا: «الخطة كانت تسير بشكل مثالي باستثناء خطأ صغير جدًّا أشبه بإضاعة ركلة جزاء في الثانية الأخيرة، قارورة الزرنيخ التي عُثر عليها في غرفة نديم، التي كانت الشيء الوحيد الذي لم يُستخدم في الجريمتين السابقتين، حينها تساءلت عن السر وراء وجودها هناك، ثم خطرت الفكرة في بالي سريعًا، إذا كان هناك من دس القارورة لإدانة نديم فإنه سيكون قد استخدمها لا محالة، ولا توجد سوى طريقة واحدة لذلك، وهي أن يدس القاتل السم في الشراب الذي يصنعه نديم للسيد رسمي».

أخذتني الحماسة لحد أني فرقعت بأصابعي وأنا أتابع: «بالطبع، الزرنيخ، سم المشاهير الأكثر شهرة تاريخيًّا لحل الخلافات حول الميراث، لا يوجد سم أكثر دلالة لمحاولة قتل السيد الكبير، وحتى لو أُحبطت المحاولة فإن أصابع الاتهام بكل الأحوال ستشير إلى نديم، ولن يبقى هناك من ينافس زوجها على الإرث، ثلاثة ماتوا والرابع دخل السجن بتهمة قتلهم، لكن هذه الحركة الاستعراضية لم تكن موفَّقة قط».

مطت شفتيها وهي ترمقني بحقد كأني أجبرت أحد أولادها على ابتلاع شراب مسموم، بينما تابعتُ: «سامية كانت تخطط للأمر منذ وقت طويل جدًّا، هدفها الأول كان التخلص من فؤاد، الذي كان وقتها يعاني الاكتئاب ويغرق نفسه بالعقاقير المهدئة، لن يكون من الصعب أن تعبث بأدويته لتظهر

الأمر على أنه انتحار، إذ مَن غير سليلة ملك صناعة الأدوية في البلاد يمكنها الحصول على أحدث العقاقير والسموم وأشدها تأثيرًا؟ بقيت تترقب حتى تأكدت من أن أحدًا لم يشك في الأمر مطلقًا، بعد ذلك بدأت تخطط للتخلص من البقية بهدوء وروية لأن الأمر سيكون أكثر صعوبة، لا علاء ولا بهجت كان قد أظهر ميولًا انتحارية، وبالطبع هناك نديم الذي كان عبئًا إضافيًّا ظهر من العدم، لهذا قررت أن تحصل لها على حليف مؤقت، وكان بهجت هو الحلقة الأضعف، شخصيته الضعيفة أمام زوجته ووالده في آنٍ واحد، وحاجته الماسة إلى المال جعلت منه شريكًا ممتازًا يسهل السيطرة عليه، وبخاصة مع بدء ظهور الرسائل مما دفعها لاستغلال الأمر بأفضل طريقة ممكنة لإقناعه، وبدأ كلاهما يروِّج لفكرة أن شبح فؤاد يحوم في أرجاء المكان، ثم اختارت الوقت المناسب للتخلص من علاء بمساعدة بهجت الذي لم يكن يعرف أن دوره سيحل تاليًا، لأن سامية كانت قد أعدت صندوق المفرقعات الممتلئ بالغاز المسموم منذ وقت طويل وكانت فقط بانتظار الفرصة لاستخدامه، وجاءت تلك الفرصة على طبق من ذهب وهو ما ساهمت أنا به شخصيًّا بكل أسف، بعد ذلك لم يبق أمامها سوى تلفيق التهمة لنديم وهو ما يصل بنا إلى أحداث هذا الصباح، سامية تعلم جيدًا مواعيد تناول السيد رسمي لإفطاره وكوب الأعشاب اليومي الذي يعده نديم له، قامت بحساباتها جيدًا وأجرت اتصالها المجهول للإبلاغ عن نديم، وفي أثناء انشغاله بإعداد الشراب طلبت منه المساعدة لإخراج طفليها الشقيين من المسبح، ثم تسللت إلى المطبخ ووضعت السم في الكوب وبعدها تسللت إلى غرفته ودست الأدلة التي عثر عليها حضرة المقدم لاحقًا، واكتفت بالمراقبة من تلك اللحظة».

حينها نطقت سامية أخيرًا، ولم يعد لأقنعتها الآن أي داعٍ.

- استنتاج فارغ لا يوجد أي دليل عليه.

- أنت أدنت نفسك بنفسك حين تدخلتِ لمنع ابنك من شرب السم، لا أحد سواك سيعرف ذلك، كما أفترض أن لديك نسخة من مفتاح غرفة علاء ونديم، لذا لو سمحتِ لنا بالاطلاع على سلسلة مفاتيحك...

وقفت وهي تقول معترضة: «لن أسمح لأحد بذلك».

جيهان اقتربت من سامية بضراوة مفترس يستعد للانقضاض على فريسة متمردة، قالت: «سيدتي، لا تضطرينا إلى القيام بذلك بالطريقة الصعبة».

يمكن لطليقتي أن تكون مقنعة للغاية في زي رجل شرطة، فعلًا لا يفل المرأة إلا المرأة، بينما بحثت سامية عن أي تأييد من ألسنة البقية لكنها لم تجد أي شيء، لذا فقد انصاعت وأخرجت سلسلة مفاتيح من جيبها ثم رمتها على الطاولة وهي تقول: «أجل، أملك نسخًا عن جميع المفاتيح، لكن هذا لا يعني أي شيء سوى أني فضولية قليلًا».

- أمر آخر، هل يمكن أن تنزعي القفازات من فضلك؟
- ما حاجتك إليها؟
- لاحظت أنك ترتدينها طوال الوقت، لذا أفترض أنك كنتِ ترتدينها في أثناء وضعك السم، من حسن الحظ أن لدينا في المعمل الجنائي مجهرًا إلكترونيًّا متطورًا واختبارات حديثة، يمكن أن نعثر على أصغر الأشياء وإن كانت مجرد رذاذ متطاير، والزرنيخ تحديدًا يسهل اكتشاف أقل أثر له منذ فجر التاريخ، لهذا سيكون عليك أن تفسري وجوده على القفاز، سيدة سامية، تظاهرك بالبلاهة وتصديق الروحانيات وحكاية الأصوات الغريبة وروح المرحوم فؤاد المعذَّبة وكل هذه الأمور لم تنطلِ عليَّ منذ اللحظة الأولى، أنت تمتلكين عينَي قاتل، باردتين ومجرَّدتين من المشاعر، سبق أن شاهدت ذلك من قبل.

خلعت قفازيها وألقتهما إلى جانب سلسلة المفاتيح وهي تقول: «ستندمون جميعًا، ألا تعرفون من هو والدي؟».

لكن نظرة باتجاه حماها وزوجها دفعتها للاستسلام أخيرًا، قالت وهي تزفر: «حسنًا، أنا من فعلتها، أنا قتلتهم جميعًا، هل أنتم راضون الآن؟».

سأل كمال مصعوقًا: «لمَ عساك تفعلين ذلك؟».

حينها نقلت غضبها من الجميع لتركِّزه على وجه زوجها، قالت بنبرة حادة: «أنت تسألني لماذا؟ هاه، هل تعتقد أن من العدل أن يرث الجميع بالتساوي بينما تقوم أنت بكل العمل؟ وأنت الوحيد الذي يطيع أوامر والده دون نقاش في وقت قرر بقية إخوتك التمرد، مع ذلك فإن والدك العجوز كان

يعاملك على قدم المساواة معهم، ولم يكن ليتوانى عن حرمانك من كل شيء بسبب أخطاء ارتكبها إخوتك، ثم أكتشف أن طباخ العائلة هو شريك آخر في الإرث، أي فضيحة هذه؟ نحن العائلة الوحيدة التي تستحق أن تحمل لقب عناكب، نحن من سيحافظ على هذا الإرث، أما البقية فإنهم لا يستحقون ذلك، لهذا لا تنتظر مني أن أقف مكتوفة الأيدي بينما تكتفي أنت بمراقبة حقنا وحق أولادنا يذهب إلى من لا يستحقه».

انتهت فورة الغضب فجأة كما بدأت، وحل صمت صدمة كاد أن يمتد لولا أني قطعته مخاطبًا رسمي بيك: «تهانيَّ لك يا سيدي، المرأة الوحيدة التي اخترتَها زوجة لأحد أولادك تبين أنها تعاني اعتلالًا نفسيًّا».

جيهان ظلت تنتظر أوامر رئيسها لكن شوقي بقي ساكنًا كما لو حط على رأسه طير أصم، في النهاية آثرت أن تتصرف من تلقاء نفسها، خطفت المسدس مني الذي كنت قد نسيت أمره لوهلة، ثم رفعته باتجاه سامية وهي تقول: «سيدتي، أنت مقبوض عليك بتهمة قتل ثلاثة أشخاص».

أما أنا فقد كان يشغلني شيء آخر، نظرت باتجاه شوقي الذي كان ما زال يبحث عن لسانه.

- لدي سؤال لك.

قال بتجهم: «ماذا تريد؟».

- من هو هركيول بوارو الذي وصفتني به قبل قليل؟

5

- أشكرك لأنك أنقذت حياتي.

كانت مصادفة محضة، لو تأخرت لثانية فقط لكان العجوز في خبر كان، لكني قلت مغتنمًا الفرصة: «أنا ماهر جدًّا في عملي يا سيدي».

- وأنت تستحق مكافأة مجزية، سأتصل بجاسر ليعيدك إلى عملك.

طبعًا جاسر هذا كان مدير الأمن بجلالة قدره.

- أشكرك، لكني لا أرغب في العودة إلى سلك الشرطة مجددًا.

- أنت متأكد.

كنت متأكدًا تمامًا، حان الوقت لكي أعيش لواقع نفسي وأضرب بوهم السلطة عرض الحائط، حين ينتعل المرء حذاء غيره فإنه يبدأ برؤية الأشياء من منظور مختلف.

- سأتقدَّم باستقالتي من الشرطة رسميًّا، لكن ربما يمكنك مساعدتي في أمر آخر.

- ما هو؟

- لقد قررت أن أفتح مكتب تحريات خاصة، وسأكون بحاجة إلى الحصول على ترخيص بذلك، سيكون أول مكتب تحقيقات خاصة في البلاد ولهذا يصعب الحصول على إذن...

قاطعني: «اعتبر الأمر منتهيًا، ستحصل على تصريح بذلك غدًا لو رغبت، بالمناسبة، أنت تستحق بقية أتعابك».

جف حلقي وأنا أراقبه ينقر فوق شاشة هاتفه الجوال.

- أعطني اسمك الرباعي ورقم حسابك البنكي من فضلك.

أمليت عليه ما طلبه دون أدنى تردد، ليقول بعدها: «لقد حوَّلت بقية أتعابك إلى حسابك، أتمنى أن يكون ذلك كافيًا لتبدأ مهنتك الجديدة».

نقر هاتفي لينبهني إلى أن هناك رسالة تنتظر مني أن أقرأها، لكني قاومت فضول قراءة الأصفار التي أضافها إلى رصيدي وقلت: «أنا شاكر لك جدًّا يا رسمي بيك، أتمنى ألا تكون مضطرًّا إلى استئجار خدماتي مرة أخرى».

- أتمنى ذلك أنا أيضًا.

كنت على وشك الانصراف قبل أن يسألني: «هل كنت ستسمح لرامي بأن يشرب من كوب الأعشاب المسموم؟».

- بالطبع لا، الشراب المسموم بقي في مكانه لحين حضور المختبر الجنائي، لقد كان كوبًا آخر طلبت من روبي أن تعده بسرعة قبل أن أبدأ العرض.

ضحك العجوز في لقطة نادرة وقال: «فتاة ذكية».

- لكني كنت سأطلق عليه النار لو أنه رفض أن يشرب منه.

وجدت بسمة تقف في البهو بحلة سوداء بهية، انتهى الغموض وحان وقت الحزن، سألتها عن نديم فقالت إنه ذهب ليرتدي ملابس ملائمة استعدادًا لعزاء شقيقَيه، قبل أن تجدد لي امتنانها.

قلت وأنا أفكر في الأرقام التي ذهبت إلى رصيدي للتو: «لا داعي للشكر، لقد قمت بما يمليه عليَّ الواجب والضمير، لهذا السبب يصفني الناس بالمحقق الفذ واللامع وصاحب السجل المميَّز».

- من الذي يصفك بذلك الوصف كله؟

قلت ممعنًا في تصديق الكذبة: «جميع الأشخاص الذين أعرفهم، وهم كثر على فكرة».

قالت وهي تبتسم: «أنت تستحق ذلك، أنت محقق ماهر في عملك جدًّا».

الطاووس الذي في داخلي فرد أجنحته اختيالًا، تمنيت لو أن جيهان موجودة لترى المديح ينهال عليَّ من لسان فتاة تفوقها جمالًا، فكرت أن شوقي سيحمِّلها عبء إنهاء الأعمال الورقية وسيذهب ليجلس وحيدًا مع خيبته في غرفة معتمة.

جلست بالقرب منها وقلت: «الآن فهمت سبب بقائك في القصر كل هذه المدة دون أن تفكري في المغادرة، لقد كنتِ تنتظرين أن يصبح نديم مستعدًّا».

- لم يكن لدينا أي حل آخر، لطالما راودتنا فكرة الفرار لكن نديم لم يكن يرغب في التخلي عن والده، كما فكر أن زواجنا لن يكون مقبولًا اجتماعيًّا لأنه في نظر الجميع مجرد موظف في القصر، أبي، أو خالي بالأحرى، لم يكن سيسمح بزواجنا أبدًا.
- خالك لم يكن بمثل هذا التعنت في شبابه، لكن ما حدث له في الماضي حوله إلى الشخص الذي أصبح عليه، لقد خسر المرأة الوحيدة التي أحبها، هذا ما جعل منه شخصا قاسيًا وحانقًا، لو أنه تحدى تقاليد والده وسمح لنهر ماء صافٍ مثل المرحومة نداء بالدخول إلى حياته لتغير كل شيء، لكنه في النهاية القدر، هناك حكمة إلهية لكل شيء.
- الماضي يترك في نفوسنا ندوبًا لا سبيل لمحوها، ربما لا يمكن أن تُرى بالعين المجردة، لكنها تتجسد في كل قرار وكل سلوك لا يفهمه سوى صاحبه.

مضت لحظة حل فيها صمت كأنغام لا تُسمع بالأذن المجردة، قبل أن تقول: «أظن أني محظوظة لأني لست أحد ورثة رسمي عناكب، وإلا لكنت الضحية التالية، بالمناسبة، هناك أمر خطر لي حين رأيتك وأنت تصوب المسدس باتجاه سامية ورامي».

- ما هو؟

- تذكرت ما قمت به سابقًا حين أطلقتَ النار على سفاح العاهرات، الآن ينتابني الفضول لأعرف ما إذا كنت قد تعمدت قتله أو أن الأمر كان دفاعًا عن النفس؟

تنهدت في لحظة حقيقة.

- لا، لم يكن دفاعًا عن النفس، لقد كنت أملك عنصر المفاجأة وكان بإمكاني اعتقاله، أو على الأقل كان يمكن أن أطلق النار على قدمه لإعاقته، لكني أسأت تقدير الأمور، الفتاة كانت ممددة أمامه على السرير وقد جهز نصله لنحرها، وقد كان عليَّ أن أختار ما بين أن أراه يذبحها ثم أعتقله، أو أن أطلق عليه في مقتل قبل أن يجهز عليها.

- وأنت فضَّلت حياة عاهرة على حياة ابن وزير.

- لا، لكني فضَّلت إنقاذ ضحية من الموت على يد قاتل، لقد اخترت العدالة، الاصطلاح الذي صار وقعه غريبًا في هذه الأيام التي صار فيها الظلم حالة مقبولة.

- مع أنك اخترت الخيار الصحيح، لكنك دفعت ثمنًا باهظًا جراء ذلك.

- صحيح، مع أني عشت في ثوب البطل لشهور قبل أن ينسى الجميع أمري باستثناء وزير الداخلية السابق الذي قرر أن يستخدم كل نفوذه لإيقافي عن العمل بتهمة الإهمال والتقصير، لكني لست نادمًا أبدًا على ما فعلته.

- أنت شخص طيب يا حضرة المحقق، أنا حقًّا لا أفهم سبب انفصالك عن زوجتك، أنت قادر على أن تجعل أي امرأة سعيدة.

وقفت على قدمي مسرعًا وأنا أقول: «عليَّ أن أغادر الآن».

- لماذا؟ هل أنت منشغل بأمر ما؟

- اسمعيني، أنت فتاة جميلة، لكني لن أرضى أن أكون طرفًا في مثلث الحب هذا، ربما تكونين أجمل فتاة أقابلها في حياتي كلها، لكني لست مستعدًّا لإقامة علاقة عاطفية في الوقت الحالي.

حملقت فيَّ اندهاشًا بينما تابعت: «لا تغضبي، أرجوك، المشكلة ليست متعلقة بك ولكنها متعلقة بي أنا».

- أي مشكلة؟
- أنا لا أصلح للحب والزواج، لن تنالي مني سوى المعاناة.
- حضرة المحقق، أنا لا أعرف ما الذي تتكلم عنه! أنا لا أفكر فيك بهذه الطريقة...

قاطعتها مستعينًا بسبابة مستقيمة، إذ كان يجب أن أكون حازمًا معها حتى تنساني بشكل أسرع: «أنا حقًّا آسف، نحن لن نصلح لنكون معًا، أصدقاء ربما، لكن ليس أكثر من ذلك، عليك أن تبقي مع نديم، لن أكون السبب في إفساد علاقتكما».

غادرتُ وتركتها صامتة، تحدق إليَّ وقد غمرها الذهول، المسكينة، بالتأكيد تشعر بالصدمة لأني رفضت أن أكون على علاقة معها وهذا ما دفعها لأن تضحك بهذه الطريقة الغريبة، خسارة، جذوة الحب التي بدأت تشتعل بيننا لم يكن سيُكتب لها أن تعيش على أي حال.

آه، من الرائع أن يشعر المرء أنه ما زال مرغوبًا.

تمت بحمد الله